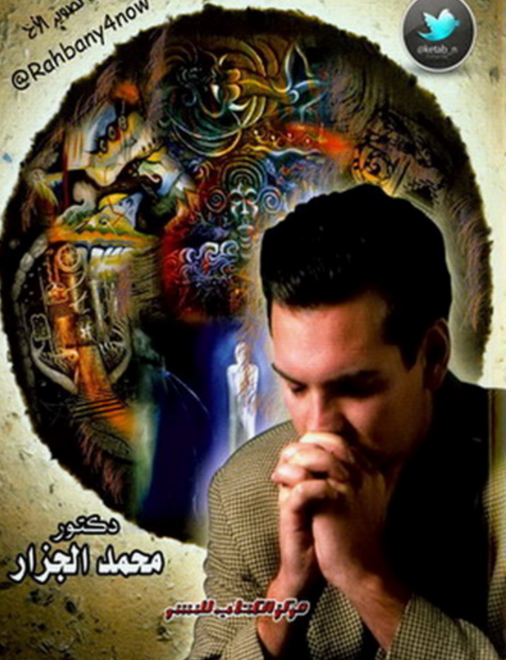
الفكر الإنسانى



دكتور
محمد الجزار

مركز الكتاب للنشر

الفكر الإنسانى

الدكتور

محمد الجزار

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net

المحتويات

المنظومة الكونية

نشـــأة الكـــون:

إذا كان الإنسـان لم يتواجد مع بداية الخلق فإنها كانت التمهيد الحتمى لظهور الإنســان بعد ذلك. حدث الانفجار العظيم، وانتشر الكون فى الفراغ اللانهائى، وتناثرت مكوناته وتباعدت عن مركز الكون بسرعات فائقة، وضد الجاذبية الهائلة التى كانت تشد هذه المكونات لتماسك فى شكل كرة صغيرة قبل حدوث الانفجار العظيم. كانت مكونات الذرات من اليكترونات، وبروتونات، ونيوترونات حرة غير متحدة تحت الظروف الحرارية المرتفعة. بدأ اتحاد مكونات الذرة عند انخفاض درجة الحرارة انخفاضا نسبيا لتكوين عناصر الكون، وكان أول تسلسل التفاعلات العناصر الثقيلة نسبيا من بروتونات ونيوترونات لتكوين نواة الذرة، أما الاليكترونات فقد انضمت إلى عناصر الذرة عند الانخفاض التالى فى درجات الحرارة الذى كان يحدث بتمدد الكون، بانجذاب الاليكترونات السالبة الشحنة إلى نواة الذرة الموجبة الشحنة اكتمل تكوين الذرة فى صورتها المعروفة.

تكونت سحب من غاز الهيدروجين بنسبة ٥٥٪ وغاز الهيليوم بنسبة ٤٤٪ بالإضافة إلى ١٪ من العناصر الأخرى المختلفة لتشكل عناصر الكون. أدى الانخفاض التالى فى درجة حرارة الكون إلى وقف التمدد فى السحب المتكونة وتقلصها، مما يجعلها تدور بسرعة أكبر لتوازن جذب المادة التى تحتويها بداخلها، وبذلك تكونت المجرات العملاقة التى احتوت بعد ذلك على بلايين من النجوم والكواكب. تستمر عملية تشكيل الكون فتتل بعض سحب غازى الهيدروجين والهيليوم من السحابة العملاقة المسماه بالمجرة، وتنكمش هذه السحب المنفصلة - الصغيرة نسبيا - ويحدث احتكاك للذرات فى داخلها، فتزيد درجة الحرارة إلى المستوى الذى يحدث عنده تفاعلات نووية، ينتج عن هذه التفاعلات تحويل الهيدروجين إلى مزيد من الهيليوم، كما ينتج طاقة حرارية هائلة تؤدى إلى تناثر مادة السحب الى الخارج فيتوقف

انكماش السحب وتقلصها، فتتكون النجوم التى تحتوى على غازى الهيدروجين والهيليوم، وتشع هذه النجوم حرارتها وضوءها نتيجة تحويل الهيدروجين إلى هيليوم.

من أعماق الكون الفسيح الذى لا سبيل إلى قياس أبعاده، أو تخيل امتداده، وفى إحدى المجرات المكتظة بالنجوم والتى قد تبلغ آلاف الملايين، وداخل إحدى التجمعات المتزاحمة والمختلطة أو ما يسمى بالمجموعات المحلية، يوجد كوكب الأرض كعضو فى مجموعة نجم الشمس الذى بدوره عضو فى مجموعة مجرة الطريق اللبنى Milky Galaxy أو ما يسميه العرب بطريق التبانة.

تعتبر مجرة الطريق اللبنى من الحجم المعتدل المتوسط بالنسبة للمجرات الأخرى التى تبلغ البلايين فى هذا الكون الذى لا نعرف عنه إلا النذر الضئيل. فى مجرتنا المعنية، تبلغ المسافة من الحافة إلى الحافة عبر قرصه المضىء مائة ألف سنة ضوئية، أما سمك بروزه المركزى فيصل إلى خمسة وعشرون ألف سنة ضوئية. والسنة الضوئية الواحدة هى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة، بسرعته التى تبلغ ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية الواحدة، وهى تقارب نحو عشرة ملايين من الكيلو مترات.

على مسافة تبلغ نحو ثلثى الطريق اللبنى من مركز المجرة، حيث تقل كثافة النجوم، أو يقل عددها نسبيا، يضىء نجم عادى بلون مائل للصفار، يهيم فى حرية نسبية حيث يتواجد أقرب نجم يجاوره فى نفس المجرة (الأقرب القنطورى) على بعد أربع سنوات ضوئية، أى يبعد عن شمسنا بحوالى أربعين مليون مليون كيلو متر، ويقع النجم الذى يليه فى الجوار على بعد نحو ستين ضوئيتين إضافيتين. تتكون أفراد أسرة نجمنا من كواكب تلف وتدور حوله، وتوابع لهذه الكواكب تسمى بالأقمار، وكويكبات وشهب ونيازك ومذنبات. من أفراد هذه الأسرة يوجد الأرض مثل كوكب صغير يلازم نجمًا صغيرًا عاديًا، يوجد فى أطراف مجرة من بين آلاف الملايين من

المجرات. يعيش على سطح هذا الكوكب كائنات مختلفة، منها عنصر يسمى بالبشر، تتملكهم - أو كانت حتى وقت قريب نسبيا - عقيدة أن أرضهم هى مركز الكون الذى خلق خصيصًا من أجلهم.

نتيجة لقوى الجاذبية، يأخذ الكون الشكل الكروى، إن المادة بصفة عامة يجذب بعضها البعض، والكتلة الأثقل هى التى تجذب الكتلة الأخف، هذه الجاذبية هى التى تجعلنا ثابتين على وجه كوكب الأرض وتمنعنا من التحليق فى الفضاء. تبلغ قوة جاذبية الشمس سبعة وعشرون مرة ضعف قوة جاذبية الأرض، والمجرات أيضًا بما تحتويه من البلايين من المجرات لها قوة جاذبية هائلة بالنسبة للنجوم والكواكب. إن مجموع قوى الجاذبية المتمثلة فى بلايين مجرات الكون تجعل الفضاء من حولها ينحنى على نفسه، كما تجعل الضوء أيضًا ينحنى فلا يسير فى خطوط مستقيمة بالنسبة للإحداثيات المستقيمة المتعارف عليها، وعليه أثبت علماء الفلك انحناء الكون. لقد أثبت العالم ألبرت أينشتين أنه لا توجد خطوط مستقيمة فى الكون، حتى الضوء لا يسير فى خطوط مستقيمة. لا يمكن الإحساس بهذا الانحناء فى الضوء إلا فى المدى الطويل الذى يقاس بسرعة الضوء، حيث إن الشمس تبعد عن كوكبنا بحوالى ثمانية دقائق وثلث.

تدور الشمس فى مجرة درب التبانة فى دورة تستغرق ٢٠٠ مليون سنة تمر فيها الشمس خلال سحب غبار المجرة، ويمكن لهذه السحب أن تعتم الضوء وتغير من كمية الحرارة التى تستقبلها الأرض من الشمس، ويرى بعض علماء الفلك أن العصور الجليدية العظمى هى نتيجة مرور الشمس داخل سحب مجرة التبانة. يبلغ عمر نجم الشمس حوالى خمسة بليون سنة، وتقع المجموعة الشمسية على فرع جانبى من مجرة درب التبانة، ما بين ذراع الجبار وذراع فرساوس، وتبعد المجموعة الشمسية عن مركز المجرة بحوالى ٣٠ ألف سنة ضوئية، كما تبعد عن حافة المجرة بمقدار ٢٠ ألف سنة ضوئية.

ترتبط الأرض ككوكب من تسعة كواكب بالمجموعة الشمسية بقوة الجاذبية

التى تجعلها تدور فى مدارات مختلفة الأطوال حول الشمس. يسمى زمن الدورة الكاملة للكوكب حول الشمس بالسنة. يأخذ المدار الشكل البيضوى والذى يقع على خط الاستواء الشمسى. تدور الكواكب أيضا حول محورها. وتسمى الدورة الكاملة باليوم. تعتبر الأرض الكوكب الثالث بعدًا عن الشمس، كما تعتبر الخامس حجمًا بين الكواكب التسع، ولكنها مقارنة بالشمس تعتبر الأرض صغيرة جدا، فكتلة الشمس تبلغ حوالى ٣٣٠ ألف مرة قدر كتلة الأرض أما حجمها فيبلغ حوالى مليون ضعف حجم الأرض، ويبلغ متوسط كثافتها نحو ثلث كثافة الأرض، تزيد درجة حرارة مركز الشمس على عدة ملايين من الدرجات المئوية، أما السطح الخارجى لها فيبلغ درجة حرارته عدة آلاف فقط. فى هذا المناخ المرتفع الحرارة لا تتماسك الذرات وتنشطر إلى إليكترونات ذات شحنة سالبة ونوى ذات شحنة موجبة، وتخلق هذه الجسيمات المشحونة كهربيا مجالات مغناطيسية شديدة.

كوكب الأرض:

تتكون الكواكب بصفة عامة إما بانفصال كتلة من نجم قائم، أو تجمع أعداد لا تحصى من حباب الغبار الواقع بين النجوم لتشكل تربة ذات خصوبة مثل كوكب الأرض. يتم هذا التكوين والتشكيل بالرغم من ظروف الفضاء الكونى الصعبة؛ من أشعة كونية، وضوء فوق بنفسجى، وعوامل أخرى تقاوم عملية التجميع وتكوين الكواكب. توجد الكواكب بالقرب من نجم يدور حوله كنتيجة لعلاقة الجاذبية، كما يوفر النجم للكوكب الطاقة والضوء. تكونت الأرض من انسلاخ بعض الأجزاء الملتهبة من الشمس، ثم انقسمت الكتلة الملتهبة التى حوت مادة كوكب الأرض أثناء دورانها إلى كتلتين كانت إحداهما الكبرى هى الأرض، وكانت الثانية الصغرى هى القمر الذى يتبع الأرض ويدور حوله.

تتحرك الأرض من خلال أربع أشكال من الحركات المختلفة، أولا: هى تدور حول الشمس مرة كل ٣٦٥ يومًا و ٦ ساعات و ١٠ دقائق. تبلغ سرعة

دوران الأرض ١,٦٢٠٠ كيلو متر/ الساعة. أما الحركة الثانية للأرض فهى تلف حول محورها عند خط الاستواء بسرعة ١٦٧٠ كيلو متر/الساعة، وتتناقص هذه السرعة فى اتجاه القطبين. مثل الكواكب الأخرى يميل محور الأرض بحوالى ٢٣,٥ درجة من الخط العمودى لمساره حول الشمس. بالإضافة إلى الحركتين السابقتين فإن الأرض مع باقى الكواكب تتحرك حول مجرة الطريق اللبنى بسرعة ٦٩٢٠٠ كيلو متر/الساعة أما الحركة الرابعة فتأتى من التمدد المستمر للكون.

يكسو كوكب الأرض غلافٌ جوى كثيف، تتكثف فيه المياه لتنزل الأمطار وتغمر المياه معظم أجزاء الكوكب. لقد وجدت الظروف المناسبة لبعد كوكب الأرض من الشمس بحيث لا تتجمد جميع المياه الموجودة أو تتبخر بالإضافة إلى الغلاف الجوى الذى يحمى الأرض من الأشعة الكونية، لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل ديناميكية الكون وهى ظهور المادة الحية (الخلية)، التى تعتبر اللبنة الرئيسية للكائنات الحية جميعًا من نباتات وحيوانات وطيور وأسماك، ثم ظهور الإنسان. تشترك الخلايا فى عدد معين من العناصر، توجد النواة أولا وفيها تخزن الجينات، ويسجل فيها (الرمز الجينى)، أى كل المعلومات الضرورية لاستمرار الحياة والتكاثر. توجد تركيبات أخرى للخلية وهى الريبوزمات، التى تتولى تجميع البروتينات اللازمة للحياة الحيوانية، كما نجد فى الخلايا النباتية تركيبة ملونة تسمى كلوروبلاست وهى مسئولة عن التمثيل الضوئى (تمتص النباتات الماء من التربة عن طريق الجذور. كما تمتص بأوراقها غاز الكربون من الهواء، وتتغلغل هاتان المادتان فى غشاء الخلية وتنضمان إلى الكلوروبلاستات، وتتجمع بمساعدة ضوء الشمس لتكوين السكريات)، تخزن السكريات المتكونة من عملية التمثيل الضوئى فى صورة نشويات، وينتج الأكسجين كأحد مخلفات عملية التمثيل الضوئى (لا يتواجد الأكسجين فى أى كوكب من المجموعة الشمسية إلا فى كوكب الأرض).

الأرض كوكب قلق، يغلي باطنه الحمم، وينتاب الأرض نحو مليون هزة زلزال فى السنة، تعرف المواقع التى تتركز فيها الزلازل على سطح الأرض باسم الأحزمة الزلزالية وهى مناطق لها صفات جيولوجية خاصة. إن الإجهاد الذى يقع فى صخور باطن الأرض، يختزن لفترة معينة، بعدها تنهار الصخور فجأة، وينطلق الإجهاد المختزن على هيئة موجات ذبذبية، حركية، تهز الأرض. من أسباب حدوث الزلازل والبراكين فى كوكب الأرض انفلاق الكتلة الواحدة، (القارة العملاقة) فى الماضى السحيق، وتباعد الأجزاء المنفلقة عن بعضها، لتكون بعد ذلك القارات الحالية. لا تزال عملية زحف القارات فى الاستمرار ولكن ببطء شديد لا يمكن الإحساس به إلا على مدى ملايين السنين. تحدث أغلب الزلازل فى الصخور الهشة فى نطاق الليثوسفير، فتنهار الصخور عندما تزيد طاقة الإجهاد التى تتعرض لها الصخور عن طاقة احتمالها. يتسم كوكب الأرض أيضًا بحدوث البراكين التى تنتج من خروج المادة الصخرية المنصهرة فى باطن الأرض إلى سطح الأرض مصحوبة بالغازات وبخار الماء مكونة الحمم البركانية التى تلقى من باطن الأرض إلى الخارج وذلك نتيجة حدوث مخرج للضغط الهائل للصخور المنصهرة مع الغازات المرتفعة الحرارة.

كانت الأرض فى بدء تكوينها أصغر حجمًا وأقل كتلة مما هى الآن، ولذلك لم تحتفظ بالغازات المتكونة حولها، ثم مع مرور الزمن زادت كتلة الأرض، وأصبح لها قوة جذب تستطيع بها الاحتفاظ بالغازات حولها وذلك عندما وصل قطرها نصف قطرها الحالى، فبدأت سلسلة تكوين الغشاء الجوى الذى سيحمى الكائنات الحية التى ستظهر بعد ذلك، وظهور الجاذبية الأرضية التى مكنت هذه الكائنات فى السير على سطح الأرض، لقد بدأ ميلاد نظام جديد تمهيدًا لظهور الكائنات الحية، وظهور الإنسان بعد ذلك، لتبدأ مرحلة جديدة وحديثة من منظومة الكون.

حديثا جدا بالنسبة لعمر الكون تكونت المحيطات والقارات فى كوكب

الأرض فى صورة غير هندسية، وغير متوازنة، فاليابس فى نصف الكوكب الشرقى أكثر منه فى نصفه الغربى، كما يتصل اليابس فى النصف الشرقى بعضه ببعض فى شكل كتلة كبرى مكونا قارتى آسيا وأوروبا، ولا تفصل هذه الكتلة عن قارة أفريقيا إلا بحران تكونا حديثا نسبيا، وهما البحر المتوسط والبحر الأحمر، كما لا تفصل هذه الكتلة الكبرى عن قارة أمريكا إلا مضيق بهرنج. لقد ذهبت بعض النظريات إلى أن القارات الحالية كانت فى أول الأمر كتلة واحدة، ثم تكسرت بعض الكتل وانفصلت وأخذت فى التزحزح والتباعد عن بعضها بفعل قوة الطرد المركزية، فتحركت الأمريكتان نحو الغرب، وشبه جزيرة الهند وأستراليا نحو الشرق. توجد حفريات نباتية وصخور متشابهة فى كل من غرب إفريقيا وشرق أمريكا الجنوبية، كما تتطابق بعض سواحل القارات بين هاتين القارتين.

يعتبر سطح كوكب الأرض غير متماثل، مختلف التضاريس والارتفاعات، أبرز أجزائه هى الجبال، وعلى الأجزاء المجوفة من سطحها غشاء من الماء يكون المحيطات والبحار والبحيرات.

تنتج مظاهر سطح الأرض مثل الجبال والهضاب والتلال، أو الأنهار والخلجان من تضافر قوى عديدة، بعضها باطنى داخل الأرض، تحت القشرة الأرضية، وبعضها الآخر مناخى أو حيوى، وذلك خلال حقب وعصور طويلة. يستمد العامل الأول قوته من التغيرات التى تحدث فى باطن الأرض من عمليات التسخين بالإشعاع الناتج من المواد المعدنية الموجودة فى باطن الأرض. أما العوامل الأخرى مثل المناخ والعامل الحيوى فتستمد قوتها من أشعة الشمس، وتتمثل هذه العوامل فى قوى عديدة مثل الرياح والمياه الجارية والمد والجزر، وأمواج البحار والمحيطات والجليد المتحرك، تتفاعل هذه العوامل مع قوى الجاذبية لتقلل من التباين فى مظاهر سطح الأرض من مكان وآخر، فقد تنخفض المرتفعات بسقوط بعض قممها، وقد تردم المنخفضات بترسيب بعض المواد فيها.

تأخذ الأرض الشكل الكروى وهى ذات تركيب غير متجانس ومحاطة بعدد من الأغلفة، يسمى الجزء الداخلى أو باطن الأرض باسم بارى سفير وهو محاط بالغلاف الصخرى والذى يمثل قشرة الأرض الصخرية القليلة السمك، ثم الغلاف المائى وهو غطاء متقطع من الماء المالح والعذب والثلج مكونا البحار والمحيطات والخلجان والبحيرات والأنهار والجداول المائية والمياه الجوفية. كما يحيط بكوكب الأرض غلاف غازى يتكون من خليط من الغازات والأبخرة، وأخيراً يوجد الغلاف الحياتى والذى يتضمن الكائنات العضوية فى كل من الغلاف الصخرى والمائى والغازى.

عندما ينظر أى رحالة كونى من الفضاء الخارجى إلى كوكب الأرض سوف يطلق عليه كوكب الماء فالحياة على كوكب الأرض ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالماء، فأول الكائنات الحية الدقيقة نشأت وتطورت فى الماء. والحجم الهائل للمياه على هذا الكوكب يجعله كوكبًا فريدًا من نوعه فى المجموعة الشمسية، حيث تغطى المياه حوالى ٧٠,٨٪ من سطح الأرض متمثلة فى خمسة محيطات متصلة بعضها البعض وهى: المحيط الباسيفيكى، والمحيط الأطلنطى، والمحيط الهندى، ومحيطى القطبين الشمالى والجنوبى بالإضافة إلى البحار والبحيرات المالحة والعذبة والأنهار وروافدها. وترجع أهمية المحيطات إلى عملها كمنظم للحرارة، فهى ترفع درجات حرارة بعض المناطق الباردة، وتخفض درجات حرارة بعض المناطق الحارة، تحتل اليابسة حوالى ٢٩,٢٪ من سطح كوكب الأرض، يعيش الإنسان فى مساحة قدرها ١٠٪ فقط منها. يتميز كوكب الأرض بالتباين فى درجات الحرارة، فقد ترتفع إلى ٥٠ درجة مئوية فى بعض المناطق وتنخفض إلى ما دون الثلاثين درجة تحت الصفر فى مناطق أخرى، وترتفع معدلات الرطوبة فى المناطق الساحلية والقريبة من المياه وتنخفض فى المناطق الصحراوية الجافة. تغطى الغابات الخضراء مساحات من اليابسة بينما مساحات أخرى لا يوجد فيها إلا صحراء

جرداء صفراء، تنوعت أنواع وأشكال وأحجام الحيوانات والطيور والنباتات، والإنسان أيضًا اختلف فى الشكل، والطول، والحجم، ولون البشرة، ولون العينين، وفى الذكاء الفطرى.

تعتبر الشمس المصدر الرئيسى للطاقة على الأرض، بالرغم من أن الأرض تستقبل كمية هائلة من طاقة الشمس، فإن مجموع نصيب الأرض من هذه الطاقة على مدى ستين سنة لا يتعدى ما تشعه الشمس فى ثانية واحدة. منذ ٣٥٠ مليون سنة تقريبًا، تمت عملية الخروج من الماء بفضل تكون الغلاف الجوى وطبقة الأوزون وتمتع كوكب الأرض بالحماية من الأشعة الضارة التى تهيم فى الفضاء.

يتميز كوكب الأرض بوجود الكائنات الحية التى لم تكتشف حتى الآن خارج الكوكب. يكمن سر الحياة فى البروتوبلازما وهى المادة الحية التى تتكون منها خلايا الكائنات الحية. يتكون البروتوبلازما من مركبات عضوية أهمها الأحماض النووية والبروتينات، والكربوهيدات وهى مادة مكونة من كربون وهيدروجين وأكسجين مثل السكر والنشا، وكذلك الدهون. لهذه المركبات العضوية صفة الحياة، بخلاف مركبات عضوية أخرى لها نفس التركيب والصفات ولكنها ليست حية. تتسم الكائنات الحية بقدرتها على القيام بعمليات حيوية مثل: التغذية، والتنفس، والقدرة على النمو والتكاثر، والحركة، والقدرة على الاستجابة للمؤثرات الخارجية.

تتجمع الخلايا المتماثلة لتكون الأنسجة، وتكون مجموعة الأنسجة أعضاء الكائن الحى، وتتركب الأعضاء لتكون أجهزة الكائن المختلفة. تحتوى كل خلية على نواة (ما عدا كرات الدم الحمراء)، وتكمن فى هذه النواة الجينات المشفرة التى تعتبر بنك المعلومات الأساسى للحياة، تحتفظ بجميع سجلات جسم الكائن الحى والتى تتوارث عبر الأجيال. يحوى كوكب الأرض أنواع كثيرة من الكائنات الحية منها البدائيات والتى تضم البكتريا، والطحالب، والفطريات، والنباتات، والحيوانات (الفقرية واللافقرية) ومنها الرخويات

والأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثديات، ويتربع على قائمة الكائنات الحية الإنسان، الكائن الحى المتوج - بعقله وذكائه - على باقى كائنات كوكب الأرض حتى الآن.

كانت وما زالت معركة الإنسان الأزلية مع المجهول أو كما قال إسماعيل مظهر مترجم كتاب "نشوء الكون" فى مقدمته: (بدأ الإنسان معركة فكرية سوف لا يكون لها نهاية، معركة لا نهائية أشبه بفراغ الكون. فإن من طبع الإنسان، أو من الطبائع التى غرستها فيه الطبيعة، أنه إذا وقف أمام مجهول حار فيه عقله وعجز عن تعليل سببه، نسب وجوده إلى إرادة خفية تشابه إرادته).

الإنســـان

التطور المرحلي للإنسان:

يمر الإنسان من لحظة الميلاد إلى النهاية بالوفاة بعدة مراحل متصلة، ويمكن دراستها وتفسير أسباب نموها وتغيراتها، بالرغم من الظروف العديدة والمختلفة التي تؤثر في عمليات النمو والتغير. بتحليل المراحل المختلفة التي يمر بها الإنسان يمكن الوصول - إلى حد كبير - للكثير من المعايير والقيم العامة التي يشترك فيها البشر والتي تختلف طبقًا لعوامل شتى: من جينات مولود بها، وبيئة مفروض عليه أن يحيا فيها، وخبرات وتجارب مكتسبة من التعامل مع البيئة ومع الآخرين، بالإضافة إلى التغير الناتج من المرور على مراحل العمر المختلفة، وتأثير البيئة، قد تختلف المعايير والقيم والسلوك النفسي وفقًا للجنس Gender، أي إذا كان الإنسان ذكرًا أو أنثى. إن التغير التسلسلي في الجوانب العضوية والنفسية للإنسان تتعرض للتعديل مع عامل الزمن، فالطفرات قد تحدث في الجينات على مدى زمني طويل، والثقافات والحضارات التي تتطور وتتغير تؤثر أيضا في عمليات التغير وفي المعايير والقيم السائدة، فثقافة الأوروبي قد تفرض قيمًا مختلفة عن قيم الإنسان الذي يعيش في الغابات والأدغال أو ثقافة البدوي الذي يعيش حياته هائمًا في الصحراء يرعى غنمه وإبله.

تعني عملية التطور التغيرات التي تحدث في هيكل الإنسان الجسدي، وفي أفكاره، وفي سلوكه نتيجة للظروف البيئية، والعوامل البيولوجية/ الأحيائية Biological. في العادة تتم هذه التغيرات من خلال عملية تراكمية وتقدمية Progressive، ينتج عنها زيادة في طول الإنسان ووزنه، وزيادة في النشاط والعمليات المعقدة التي يمكن أن يقوم بها، وتكامل في العملية التنظيمية للمعيشة ولوظائف الأعضاء. قد يبدأ الطفل المولود نشاطه بالصراخ وتحريك أطرافه، ثم تتطور وظائفه العضوية ليتمكن الطفل من عملية الإمساك، ثم الحبي والمشي، مع اكتساب القدرات التعليمية ليبدأ في التفكير

والتحليل مع نمو ذكائه. يحمل الإنسان فى جيناته برامج عديدة ومختلفة تقوم بعمليات النمو والتطور عبر مراحل حياته المختلفة: من التكوين والنمو، حتى الضمور والهدم والاضمحلال، مرورًا بأوقات قد يكون فيها عليلاً أو سليمًا، سعيدًا أو تعيسًا ليتهى الإنسان كمادة تاركًا ذكرى قد تفيد أو تسى.

تفرز البيئة فى كل لحظة وكل يوم عوامل وضغوطًا نفسية تؤثر على راحة الإنسان، وتُسير - إلى حد كبير - سلوكه وتعاملاته. التغير فى درجة حرارة الجو، الضوء، الضجيج، الطعام، الشراب، العواصف والزعابيب، الداء، الأمان،... إلخ كلها عوامل تشارك فى مدخلات الإنسان الحسية، تتفاعل مع البرامج الكامنة فى جيناته، وخبراته المتراكمة عبر سنوات حياته، لإخراج عملية الفعل/رد الفعل أو كما يسميه علماء النفس والاجتماع بالسلوك. يلبى المشرب والمأكل والملبس الاحتياجات الأساسية، وبدونها يشعر الإنسان بالجوع والظمأ والقلق ثم المرض العضوى والنفسى، وبها قد يشعر البشر بالراحة، ولكن ليس بالضرورى الإحساس بالسعادة فالسعادة هى حالة نفسية من الرضا العام على الحالة التى يكون عليها الإنسان.

عند دراسة طبيعة الإنسان، يتبادر إلى الذهن أسئلة عديدة عن إذا كان الإنسان بطبيعته عقلانيًا وتوجهه الأهداف والغايات، أم هو بالغريزة عاطفى تحركه أهوائه. كيف يكتسب الإنسان خبراته؟... هل عن طريق اكتشافاته، أو من خلال بصيرته وحسه العام، أو بواسطة تطور تدريجى متعاقب ومتراكم، يزداد تعقيدًا مع مرور الوقت. ما الذى يحفز الإنسان؟ ... هل هو انتظار العائد والمكافأة، أو الألم، أم هى دوافع داخلية غريزية؟ إن دراسة وتحليل التطور السيكولوجى للإنسان تمدنا بالإجابة على هذه الأسئلة من أجل اكتساب فهم أكثر للسلوك الإنسانى عبر مراحل تطوره الزمنى. تحاول النظريات المختصة بهذا المجال تجميع بيانات ومعلومات، ثم ترتيبها وتصنيفها، ووضع الفروض التى تؤدى إلى تفسير السلوك الإنسانى، ثم اختيارها والتحقق من صحتها، وأخيرًا التنبؤ بالأفعال المنتظرة مستقبلا كرد فعل الإنسان للمواقف المختلفة التى قد يتعرض لها.

يمر الإنسان - فى الظروف الطبيعية - عبر رحلة حياته بدءاً من لحظة التكوين قبل الولادة حتى نهايته بالوفاة، بمراحل عديدة وهى:

١- مرحلة التكوين قبل الولادة - Prenatal

وهى مرحلة تلقيح البويضة الأنثوية Ovum بواسطة الحيوان المنوى الذكرى Sperm، وبداية التشكيل الجينى لبداية خلق الكائن الحى. وتستغرق هذه المرحلة فى العادة حوالى ٩ شهور.

٢- مرحلة الولادة، وفترة الشهر الأول بعد الولادة - Childbirth and Neonate

يبدأ الوليد فور الولادة فى التحول من كونه كجنين مرتبط بالأم فى دورته الدموية والتنفسية إلى كائن حى مستقل بذاته فى أعضائه. لا تكتمل هذه المرحلة إلا بعد انتهاء عدة أيام من الولادة.

٣- مرحلة الطفولة الأولى- Infant Stage

تبدأ من استلقاء المولود على البطن أو الظهر، ثم الجلوس، ثم محاولة الطفل فى أن يحبو، ومحاولات الوقوف ثم محاولة المشى... وتستغرق هذه المرحلة من عام إلى عامين.

٤- مرحلة الطفولة وبداية تكوين الشخصية

Childrearing and Personality Development -

ويبدأ الطفل فى هذه المرحلة اكتساب التجارب البسيطة من المجتمع المحيط وتبدأ عملية التعليم فى مرحلته الأولى.

٥- مرحلتى الطفولة المتوسطة والمتقدمة - Childhood

وهى مرحلة دخول الطفل المدرسة، والقيام بالعمليات الحسابية والمنطقية.

٦- مرحلة المراهقة والشباب - Adolescence

فى هذه المرحلة تبدأ عمليات التغيرات الجسمية/البيولوجية

Biological Changes وتكتمل فيها الأعضاء التناسلية، ويصل الإنسان فى هذه المرحلة إلى أعلى درجات الذكاء العقلى/الفطرى.

٧- مرحلة سن الرشد والنضوج - Adulthood

يصل الإنسان السوى فى هذه المرحلة إلى التكامل والتناسق الجسدى والعقلى والعاطفى.

٨- مرحلة الكهولة والشيخوخة - Aging

يبدأ تأثير تقدم السن من أمراض تقدم السن والشيخوخة، ونقص الخلايا، وضمور الأعضاء، وانخفاض النشاط، والانحدار والتدهور الجسدى والعقلى حتى الوصول إلى نقطة النهاية بالوفاة.

مراكز التفكير عند الإنسان:

العقل هو الكلمة المعنوية للمخ المادى، أى أن المخ هو الجزء المادى الذى يقوم العقل بعمله، وفيه تتحدد شخصية الفرد المنفردة عن غيره. يعتبر المخ مركز القيادة الرئيسية الذى يتم فيه تجميع المعلومات من العالم الخارجى عن طريق الأعضاء المتصلة بالبيئة الخارجية مثل العينين والأذنين والجلد واللسان والأنف، ثم تجرى فيه عمليات التفاعلات المختلفة مثل العمليات الحسابية فى الحاسب الآلى ليتم اتخاذ القرارات اللازمة ليتمكن الجسم من القيام بعمليات مناسبة للموقف، تأخذ هذه العمليات الشكل الحركى أو الشكل التفكيرى (والأخير ما نسميه دارجًا بالعقل). فى الشكل الحركى تقوم الأجزاء المختلفة من جهاز التوصيل بنقل قرارات المخ إلى الأعضاء المختصة فى الجسم لتنفيذ هذه القرارات. بالنسبة للعمليات الخاصة التى تؤدى داخل جسم الإنسان، مثل: التنفس والدورة الدموية وهضم الطعام وإخراج النفايات، فتتولاها أجزاء معينة من الجهاز العصبى لها مستوى مختلف يسمى المستوى الانعكاسى.

يحتوى المخ البشرى على شبكة اتصالات فائقة التعقيد بالنسبة لقدرات

الإنسان فى هذا المجال، حيث يحتوى على حوالى مائة بليون خلية عصبية يربط بينها ما يقرب من البلايين من الألياف العصبية، تنساب منها الإشارات الحسية المختلفة فى نظام فائق الدقة. يوجد أيضاً بلايين من محطات التقوية المتراصة بنظام دقيق للخلايا العصبية التى تقوم بتوصيل النبضات الحسية بين مختلف خلايا المخ. إن الحواس المختلفة، مثل: الرؤية والسمع والشم والتذوق والإحساس بعوامل الطبيعة من درجة حرارة وضغط وخلافه، لها مسارات ثابتة داخل المخ، فتنتقل هذه الأحاسيس عبر ألياف عصبية، ثم محطات ربط وتوصيل من خلال الكثير من الخلايا العصبية حتى تصل الأحاسيس إلى المراكز الخاصة بها داخل المخ، مثل: مراكز الإبصار والسمع والشم والتذوق. إن انتقال الإشارات النفسية والعصبية تؤدى فى النهاية إلى إفراز العديد من المواد الكيميائية فى نهاية الألياف العصبية، وينتج من نشاط الخلايا العصبية توليد تيارات كهربية إيقاعية فى صورة موجات كهربية وهى: ألفا وبيتا وثيتا ودلتا.

تعتبر مراكز الكلام والتفكير والكتابة من أكثر الملكات النفسية غموضاً وتعقيداً كما جاء فى كتاب "علم النفس الفسيولوجى" للدكتور أحمد عكاشة. تكمن فى هذه المراكز شخصية الإنسان من مهارات وتخيل وتفكير وإدراك نفسى، وعليه فهى مراكز تقدير وتقييم للأمور للتصرف المناسب الذى يقتضيه الموقف من خلال معلومات تم الحصول عليها عن طريق الحواس الخمس، تكمن هذه المراكز فى الفص الجبهى، فى الجانب الأيسر للمخ حيث مركز بروكا ومركز ورنيكا. يقتصر وجود هذه المراكز على الإنسان الذى يعتبر هو المخلوق الوحيد - المعروف حتى الآن - الذى يتفاهم مع بنى جنسه باللغة والكلام.

تتعاون مراكز البصر التى تنقل صور الحروف والكلمات وتحدد مسمياتها، والمناطق السمعية التي تنقل موجات الصوت لتصيغها كلمات، والمراكز اللمسية التي تنقل نوع الحس للشكل، تتعاون هذه المراكز مع مركزى ورنيكا

وبروكا لتكونا فى قشرة المخ عدداً من الصور المختلفة. بالتنسيق والربط بين هذه المراكز جميعها يستطيع الإنسان أن يفكر ويعبر عن أفكاره وآرائه، وينطق، ويكتب، ويقوم مركز بروكا بتنسيق حركات العضلات اللازمة للكتابة والكلام، وضبطها بمقاييس دقيقة ومحددة. يرسل مركز بروكا تعليماته إلى المناطق الحركية فى القشرة المخية التى تمررها بدورها كسيالات عصبية إلى عضلات الحنجرة والشفة واللسان واليد، فتتحرك هذه الأجهزة حسب الإشارات الواردة من المخ.

يبحث علم النفس فى سلوك الإنسان الناتج من محصلة تفاعل الوراثة والبيئة المحيطة. يكتسب الفرد موروثاته عن طريق الجينات الموروثة من الأبوين والأجداد. قاد العالم الإنجليزى تشارلز داروين والعالم النمساوى جريجور مندل فى منتصف القرن التاسع عشر أبحاث علم جديد ينظر فى طلاسم التوارث واكتساب صفات من الوالدين والأجداد، وتطورت الأبحاث لتشمل الخلية الحية التى تعتبر الوحدة البنائية للكائن الحى. يوجد داخل الخلية نواة تتكون من شبكة كروماتينية ملتفة ومتداخلة، تتحول إلى كروموسومات عند الانقسام. تحتوى الكروموسومات الجينات التى تحمل عوامل الوراثة. انكب علماء الوراثة على دراسة الجين فتوصلوا بالتحليل الكيميائى أنه يتكون من بروتين ومادة حمض نووى تسمى بالدنا (DNA) التى تعتبر المادة الوراثية لجميع صور الحياة تقريبا، مع وجود مادة وراثية أخرى لا تمثل إلا جزءاً ضئيلاً جدا تسمى الرنا (RNA) توجد فى بعض الكائنات مثل الفيروسات. ظهر فى العقود الأخيرة من القرن الماضى علم حديث يسمى بالهندسة الوراثية يختص بتكنولوجيا الجينات. تطورت أبحاث الهندسة الوراثية فى العقود الأخيرة كنتيجة للتطور السريع فى تكنولوجيا الحاسبات الآلية، وأمكن لعلماء الهندسة الوراثية وضع خرائط وراثية Genetic Maps تيسر عملية التعرف على الجينات ومعرفة قوة الترابط بينها، فبعض الجينات تميل للارتباط الكامل مع بعضها مما يؤدى إلى ظهور بعض الصفات الوراثية أو عدم الارتباط فلا تظهر السلوك الجينى بالبيئة، فبعض خلايا الكائن الحى يمكنها تحمل تغير الظروف البيئية

وتستمر فاعليتها، بينما لا تستطيع بعض الخلايا التلائم مع التغيرات الجوهرية العنيفة فى البيئة المحيطة مثل التغير فى درجات الحرارة أو أشعة الشمس الحارقة.

تسابقت الدول المتقدمة فى إنشاء مراكز للأبحاث فى مجال الهندسة الوراثية لما له من أهمية كبرى فى مجالات كثيرة تخص الكائن الحى والزراعة. ويسير التقدم العلمى فى هذه التكنولوجيا بقفزات ملموسة حتى إنه فى العقد الأخير من الألفية الثانية استطاع الإنسان القيام بعملية الاستنساخ وتطبيقها على الحيوان كما استطاع اكتشاف معظم جينات الجنس البشرى، وتجرى الأبحاث حاليا لاكتشاف جميع الجينات المسئولة عن أداء وسلوك الإنسان، ورسم خريطة كاملة لكل جينات الإنسان مما يساعد فى عملية الجراحة الجينية، وإدخال الجينات الموجهة لتكوين مواد تجلط الدم عند حدوث جرح بأنسجة الجسم، كما تجرى حاليا فى مراكز الأبحاث زيادة كفاءة الجهاز المناعى بواسطة المنشطات الجينية، وإدخال جينات مناعية جديدة داخل جسم الإنسان.

تتلخص العوامل البيئية المؤثرة على تكوين الجهاز العصبى والسلوك على أربع عوامل هى: الإجهاد أو الشدة، عطب أو تلف المخ، الحرمان الحسى، وأخيراً إثراء أو افتقار البيئة. إن التعب والإرهاق والحرمان تحول عقل الإنسان إلى جهاز قابل للإيحاء وتغيير المعتقدات. لافتقار البيئة دوراً مهما فى التأثير السلبى على عمل المخ، فالمجتمع الفقير اقتصاديا وثقافيا ينتج أفراداً ذوى كفاءة عقلية محدودة وذكاء عام منخفض. إنها حلقة شبه مفرغة فالاستبداد والطغيان، والاقتصاد المتدنى والثقافة المختلفة كلها عوامل تؤدى إلى تدنى الذكاء العام للمجتمع وبالتالى مزيد من الفقر والتدهور والخضوع، والعكس صحيح، فالاقتصاد المرتفع، والحرية، والثقافة المتحضرة تؤدى إلى التطور والازدهار.

يعرف الذكاء بأنه القدرة على حل عملية عقلية بشكل صحيح - قد

تكون العملية منطقية أو رياضية أو فلسفية أو فى أى مجال آخر يتطلب التفكير والتصرف واتخاذ قرار. الذكاء أيضًا هو القدرة على الاستجابة الصحيحة، للحقائق القائمة فى الحياة بصفة عامة وفى المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان بصفة خاصة. لقد كثرت تعريفات ومقاييس الذكاء ويمكن تلخيص هذه التعريفات فى النقاط التالية:

- القدرة على التفكير المجرد والقدرة على الاستجابة لأى مؤثر بشكل صحيح.
- القدرة على كبت الغرائز تحت ظروف معينة.
- القدرة على اكتساب المعلومات والقدرات والتعلم والاستفادة من التجربة والتكيف مع المجتمع المحيط والتكيف مع بيئة دائمة التغير، فإن أكثر الناس نجاحًا فى الحياة هم الأكثرهم مرونة.
- القدرة على التميز بين القضايا المختلفة والتوصل إلى العموميات من الجزئيات.
- القدرة على الاستجابة بمرونة وسرعة لمختلف المواقف مع عدم الانحياز الخاطئ، أى عدم التقيد باتباع سلوك معين عند التعرض لنفس الموقف بطريقة تكرارية مشابهة وإلا سيتحول سلوك الإنسان إلى سلوك نمطى وليس سلوكا بشريا ذكيا.
- القدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة بناء على الإدراك الحسى والعقلى لجوانب المشكلة والاحتمالات الواردة ونتائج جميع الاحتمالات واتخاذ أفضل القرارات التى تؤدى إلى تحقيق أفضل النتائج.
- القدرة على استنباط القوانين العامة من الأمثلة المحدودة ومعرفة جوهر الأشياء بالتميز بين أنواع المعلومات المختلفة.
- نقل التجربة والخبرة الذاتية إلى مواقف ومجالات جديدة للتعرف على أوجه التشابه فى هذه المواقف والتعامل معها.

- القدرة على اكتشاف الأخطاء وتصحيحها وصولا إلى تحسين الأداء.
- القدرة على فهم وتحليل المواقف الغامضة وغير التقليدية باستخدام أسلوب الاستنتاج المنطقى وكذلك القدرة على ربطها بالمواقف المشابهة.

دلت الدراسات التى أجريت على ارتباط الذكاء بمراحل العمر على زيادة القدرات العقلية للشخص الطبيعى بتقدم العمر حتى حول سن السابعة عشر، ويصل معدل الذكاء إلى ذروته من سن الثامنة عشر حتى حول سن الثلاثين ثم يبدأ مستوى الذكاء في الانخفاض التدريجي. إن جزءاً من الذكاء وراثى والجزء الآخر مكتسب من البيئة، ويختلف العلماء على النسبة السنوية لكل من الجزأين فالبعض يعتقد أن الجزء المكتسب يصل إلى الثلث والجزء الوراثى ثلثين والبعض الآخر يعكس النسبة إلى ثلثين للجزء المكتسب وثلث للوراثة.

يختلف نمط التفكير من شخص لآخر، وعلى وجه العموم يوجد أربعة أنواع من أنواع التفكير وهو التفكير المرتبط بالعوامل الخارجية، والتفكير المستقل النابع من الوحى الداخلى، والتفكير المتجمع الذى يركز على حل وحيد لمسائل معينة، والتفكير المنفرج الذى يتميز بالقدرة على خلق عديد من الأفكار الجديدة. ويميل التفكير المتجمع إلى العلوم الفيزيائية والرياضيات وأصحاب التفكير المتجمع لهم آراء وميول تقليدية كما يميلون للكبت العاطفى، أما أصحاب التفكير المنفرج فهم المتخصصون فى الفنون وعلم الأحياء ولهم ميول غير تقليدية ونشاط اجتماعى متميز ومنطلقون عاطفيا.

يعرف الدكتور محمد قاسم عبد الله فى كتابه "سيكولوجية الذاكرة":
(إن الذاكرة هى القدرة على التمثل الانتقائى Selectively Represent - فى واحدة أو أكثر من منظومات الذاكرة - للمعلومات التى تميز بشكل فريد خبرة معينة، والاحتفاظ بتلك المعلومات بطريقة منظمة فى بنية الذاكرة الحالية، وإعادة إنتاج بعض أو كل هذه المعلومات فى زمن معين بالمستقبل، وذلك تحت ظروف أو شروط محددة).

تتضمن الذاكرة البشرية كنظام لمعالجة المعلومات Information Processing System ثلاث مراحل وهى:

* **مرحلة الترميز Encoding Stage**

يرتبط الترميز بعملية التعليم الذى يجب أن تتوافر فيها التكرار، والتنظيم، وتقسيم وتلخيص وتنقية المادة التى تم تعلمها. أيضًا يجب أن تكون المادة ذات معنى، وأن يتضمن محتوى المادة على الأفكار العامة والمبادئ الأساسية وترابطها فيما بينها.

* **مرحلة الاحتفاظ والتخزين Storage Stage**

تعتبر هذه المرحلة هى محور الذاكرة، حيث يوجد أكثر من نوع للذاكرة ولكن أهمها نوعان هما: الذاكرة قصيرة المدى، والذاكرة طويلة المدى، وذلك لاختلاف تذكر الحوادث والمثيرات حسب الفترة الزمنية التى تقع فيها الحوادث. وأهم العوامل التى تؤثر فى عملية التخزين هى تداخل المادة المتعلمة، وعدم تشابهها، وفترات الراحة بين المواد المتعلمة، وكذلك النعاس والخمول والتعب والعقاقير التى قد يتناولها المرء.

* **مرحلة الاسترجاع أو التذكر Retrieval Stage**

ساعد ترابط الأحداث - العاطفى والتلقائى - على عملية التذكر والاسترجاع، كما يساعد الترابط فى سهولة استدعاء جميع تفاصيل المادة المخزنة.

التطور الحضارى للإنسان:

كان إنسان العصر الحجرى يعيش على صيد الحيوانات وجمع الحبوب، ثم بدأ فى ترويض الحيوانات واستخدامها، كما بدأ الفن البنائى فى الظهور من خلال نقوشه ورسوماته التى تركها على جدران الكهوف، مستخدمًا الأصباغ النباتية ذات الألوان المختلفة. اكتشف إنسان الكهوف المصابيح الأولية

باستعمال الشحم كوقود لإنارة بيوته الكهفية. تميزت مرحلة العصر الحجرى الحديث، أى منذ حوالى خمسة عشر ألف سنة بالآلات الحجرية المصقولة، كما امتاز هذا العصر ببدء الزراعة بجانب الصيد، والاستقرار فى أماكن معينة لحصد محصول المزروعات، وأصبح الإنسان يطهو طعامه، ويستأنس الحيوانات الأليفة، وينسج سراويله. فى هذا العصر أيضًا، ومنذ حوالى سبعة آلاف سنة استخدم الإنسان المعادن بدءًا من الذهب ثم النحاس، وأصبح يشكل أدواته من النحاس المصبوب فى قوالب بعد صهره، ثم عرف الإنسان القصدير وخلطه بالنحاس، ثم استخدم البرونز فى قفزة جديدة إلى الأمام حتى إن بعض المؤرخين سمى هذا العصر بالعصر البرونزى. حدث تطور مهم فى استخدام المعادن عندما بدأ الإنسان فى صهر الحديد بالنفخ فى نار خشب الأشجار وصنع منه أسلحته وأدواته.

حدث أهم تطور فى تاريخ المنظومة البشرية، وهو اختراع اللغة كوسيلة للاتصال وإدارة التفكير، وتأريخ الحوادث. كان الإنسان الأول ينقل أفكاره بالإشارة والحركة، ومن المعتقد أن تكون اللغة التى استعملها الإنسان الأول كانت أصواتًا متباينة النغمة والقوة وكذلك أصوات تقلد الحيوانات فى حالة انفعالاته المختلفة للدلالة على حدث ما. بدأت اللغة الصوتية بأعداد قليلة من الكلمات، وبدأت اللغة المكتوبة بأشكال من الطبيعة مثل الخط المستقيم أو الدائرة أو أشكال حيوانات وزواحف وخلافه. ذهب علماء اللغات أنه لا يوجد أصل واحد أو ظواهر مشتركة بين كل لغات الجنس البشرى، قد تشتق عدد من اللغات الحديثة من لغة واحدة قديمة، ولكن لم يتم التعرف على منبع واحد لجميع اللغات.

عندما عرف الإنسان الزراعة واطمئن إلى حد ما على إشباع احتياجاته الأولية من شراب وطعام، ومسكن آمن، ولباس يستره فى الأيام الباردة... جنح الإنسان إلى السكينة والراحة النسبية ثم بدأ الإنسان فى التفكير والتحليل بمنطق أولى بسيط، أخذ يتطور ويتعقد بمرور الزمان عندما سجل

أفكاره ليجيء آخر ليبدأ من حيث انتهى الأول. عرف الإنسان الأديان والتوحيد قبل نزول الأديان السماوية، ومارس التضحية بالقرابين الرمزية والبشرية للتطهر وإزالة اللعنة، وظهر الكاهن والساحر مع ظهور الطغيان والاستبداد والاستعباد. إذا كان إنسان العصر الحجرى قد عاش دهرًا من الزمان فى فردية وحرية، فإن النزعة الاجتماعية التى بدأت مع بداية عهد الإنسان بالزراعة - وإن كانت قد خففت عنه عبء العمل الفردى والوحدة الموحشة - إلا أن هذا النظام قد فرض عليه نظمًا فرعية من وجود الطبقات المتباينة، وتقييد لطبيعته الفطرية، ومعتقدات وتقاليد قد تسيره فى اتجاه محتوم.

ذهب علماء التاريخ إلى أن أول استيطان واستقرار حدثا فى منطقة الشرق الأوسط خاصة حول أنهار النيل ودجلة والفرات، ومن هذا الاستقرار حدث تطوير فى الزراعة والرعى. وجد الإنسان وقت الفراغ اللازم لتطوير أدواته وأسلوب معيشته، ساعيًا للاستمتاع بلذات الحياة، مفكرًا فى أشياء لم تتطرق إلى ذهنه من قبل، مثل: سبب الظواهر الطبيعية، ومواضيع فلسفية بسيطة عن أصل الإنسان والحكمة من وجوده، ولغز الموت، فقد بدأت حضارة الإنسان ليعيش حقبة جديدة ومنعطفًا رئيسيًا فى منظومته البشرية. إذا كان أصل مصطلح الحضارة Civilization يعنى فى لغة الرومان القدامى التهذيب والتأديب والصفات الحسنة والسلوك الطيب، فإنه كمصطلح علمى يستخدم حديثًا بمعنى التطور والتقدم فى استخدام عقل الإنسان لتحسين معيشته ورفع مستوى المجتمع أو الشعب إلى مستوى أكثر تعقيدًا وأعلى رقيًا. إن الحضارة كما وضح العالم الألمانى ألفريد فيبر هى عملية تطور تاريخية ترتبط بالنظم الاجتماعية والسياسية والحربية والاقتصادية والفن، أى أن الحضارة هى عملية تطور ثقافى بصفة عامة.

واكب التطور الحضارى والثقافى التقدم فى القانون والنظم الاجتماعية، والمجالات المختلفة للعلوم. يعود التاريخ المكتوب للحضارات الأولى إلى

مصر الفرعونية وبلاد بين النهرين (الحضارات السومرية والبابلية والأشورية)، والهند والصين. حدثت طفرة فى التقدم العلمى من خلال الحضارة الإغريقية التى جاءت بعد حضارات الشرق الأوسط والشرق الأقصى. تزامن العهد الذهبى للعلوم مع العهد الذهبى للفلسفة الإغريقية التى احتلت مكانة مميزة فى أثينا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. انتقلت مراكز الثقافة، والمدارس العلمية والأدبية فى القرن الثالث قبل الميلاد من أثينا إلى بعض المدن الهلينية/اليونانية خارج حدود أوروبا، مثل الإسكندرية وبعض مدن الساحل الشرقى لحوض البحر الأبيض المتوسط وذلك بعد أن غزاها الإسكندر الاكبر.

خلدت مآثر عظام الرياضيين والفلكيين، مثل: إقليدس وأرشميدس، وارستاركس وأبولونيوس، الحضارة الهلينية الحديثة فى القرن الثالث الميلادى. مع ظهور عصر المسيحية فى روما فى القرون الثلاث الأولى الميلادية، بدأ تدريجيا امتزاج الحضارة الهيلينية مع حضارة روما لتحولا إلى حضارة أوربية يعتبرها الغرب بذرة أو جنين الحضارة الغربية الحديثة التى بدأت فى القرن السابع عشر فى أوروبا.

ظهرت الحضارة العربية فى القرن السابع الميلادى، لتفوق - بجانب الشعر والأدب والفلسفة - فى العلوم والطب والكيمياء. بلغت الحضارة الثقافية العربية ذروتها من القرن الثامن إلى القرن الحادى عشر، فترجم العلماء العرب كتب الفلسفة اليونانية، وذخرت مكتبات المدن العربية، مثل: بغداد والقاهرة ودمشق بنفائس الكتب فى التاريخ والفلسفة والطب والصيدلة والجبر والكيمياء. برع علماء الحضارة العربية فى العلوم الرياضية، فعرف العالم علم الجبر من محمد بن موسى المعروف بالخوارزمى فى القرن التاسع الميلادى، وبزغ علماء، مثل: ابن سينا، وابن الهيثم وأبو بكر الرازى، فى علوم الطب والصيدلة والكيمياء والفلك والرياضة.

كتب الرازى كتابه الشهير فى مجال الطب فى عشر مجلدات، وكتب ابن سينا موسوعته فى ثمانية عشر مجلداً، تشمل العلوم الرياضية والطبيعية، وما وراء الطبيعة، وعلوم الدين والاقتصاد وعلم الصحة وطرق العلاج من الأمراض، بزغ فى علوم الفلسفة ابن رشد والكندى والفارابى، وامتزجت من خلالهم الفلسفة الهندية والفارسية بالفلسفة اليونانية.

بدأت حضارة جديدة فى أوروبا فى القرن السابع عشر بعد أن تحررت العقول من نير الأساطير والقيود العقائدية. نبعت الحضارة الأوروبية من العلم والتفكير المنطقى بعد أن تغلبت على المقاومة التى واجهتها من أباطرة عهود الظلام الرافضين للتجديد والتحديث، وحرية الفكر والرأى الحر. ساعد التطور فى عملية الطباعة والنمو المتصاعد فى صناعة الورق فى انتشار الكتب والدوريات العلمية، فتسارعت الاكتشافات والاختراعات. لم يكتف الإنسان بالعربات التى يجرها الحصان، أو المراكب التى تسير بالمجداف فقد ظهرت السفن ذات الأشرعة القوية لتعبر البحار والمحيطات مستخدمة البوصلة البحرية. اكتشف الإنسان الصلب وطاقة البخار، فأنشأ السكك الحديدية والكبارى لتضيق المسافة بين الشعوب وتزيد من معدل الارتحال وتبادل المعرفة والثقافة والالتقاء الدورى فى ندوات ومؤتمرات.

إذا كان علم الفلك الحديث قد بدأ مع الفلكى البولندى كوبرنكس فى القرن الخامس عشر فإن عالم الفلك الإيطالى جاليليو كان أول من نادى بنظرية دوران الأرض حول الشمس فى القرن السابع عشر. فى نفس القرن وضع عالم الفيزياء الإنجليزى إسحق نيوتن قوانين الحركة وقانون الجاذبية العامة وكذلك قوانين التفاضل والتكامل وظهر أيضاً الرياضى ديكارت، وهارفى مكتشف الدورة الدموية، وليوينهوك مكتشف العالم الميكروسكوبى، والكيميائى بويل وغيرهم من العلماء والمكتشفين. وفى القرن التاسع عشر ظهر عالم الطبيعة وأصل الأنواع تشارلز داروين. وعالم الوراثة جيمس مندل، وفى عالم العلم والصناعة ظهر العالم الفرنسى أمبير بأبحاثه عن

المغناطيسية، والإسكتلندى جيمس وات مخترع الآلة البخارية ورائد الثورة الصناعية، والعالم الألمانى نيكول أوتو مخترع آلة الاحتراق الداخلى والتى استخدمت بعد ذلك فى المصانع وفى وسائل النقل وفى محطات القوى الكهربية، والإيطالى مايكل فارادای صانع أول موتور كهربى، وعالم الفيزياء جيمس ماكسويل بأبحاثه فى مجال الكهرومغناطيسية، والفيزيائى الفرنسى بيير لابلاس، والرياضى الفيزيائى الألمانى كارل جاوس. فى القرن العشرين ظهر العالم الفيزيائى ماكس بلانك مبتكر نظرية الكم Quantum Theory والتى تنص على أن الإشعاع لا ينطلق من المادة على شكل تيار متصل، بل ينطلق على هيئة مقادير منفصلة تسمى بالكمات Quanta، كما ظهر فى نفس العصر عالم الذرة البريطانى ايرنست روز فورد، والمخترع الأمريكى توماس أديسون بأبحاثه فى التلغراف والفونوغراف واللمبات الكهربية. فى بدايات القرن العشرين أعلن العالم الألمانى ألبرت أينشتين عن نظريته النسبية الخاصة ثم نظرية النسبية العامة، كما ظهر المهندس الميكانيكى الألمانى رودلف ديزل باختراعه ماكينة الاحتراق الداخلى التى سميت باسمه بعد ذلك. كان الأخوان أورفيل رايت ويلبور رايت هما صاحبا أول رحلة طيران عام ١٩٠٣ ليبدأ عصر الخروج من نطاق كوكب الأرض. فى النصف الأول من القرن العشرين اخترع العالم الإيطالى ماركونى اللاسلكى، واكتشفت مارى كورى أشعة الراديوم، واخترع جراهام بل التليفون. فى هذه الفترة أيضًا طور العالم الإيطالى انريكو فرمى أبحاث علم الذرة ونظرية الكم، وهو يعتبر راعى أول مفاعل ذرى وتصنيع القنبلة الذرية. ظهر أيضًا عالم الفلك الأمريكى أدوين هوبل صاحب نظرية تمدد الكون، وعالم الفلك الأمريكى هالو شبلى. والألمانى فون براون مخترع الصاروخ، والعالم البريطانى الكسندر فيلمنج مكتشف البنسلين. وفى مجال علم النفس ظهر سيجموند فرويد رائد نظرية

التحليل النفسى. لقد أغنى العلماء البشرية بوافر من الاختراعات والاكتشافات التى وفرت الراحة للإنسان. كان الإنسان يكد ويتعب ويتحمل الكثير من أجل إشباع احتياجاته الأولية من طعام وشراب وكساء، ومع تطور الصناعة عمل الإنسان بمجهود يده أكثر من ثُلث ساعات يومه ليوفر لنفسه ولأسرته مستلزمات الحياة، وإبتدأ الإنسان الحديث فى استعمال عقله على حساب عضلاته البدنية، وانتشر الحاسب الآلى، وبدأ استخدام الإنسان الآلى، وتطورت بسرعة غير متوقعة وسائل الاتصالات ليعيش الإنسان فى قرية صغيرة تسمى كوكب الأرض، متطلعًا إلى غزو الكواكب الأخرى، أو متجاوزًا منظومته الشمسية، سائحًا فى الكون الفسيح.

الفكـــر

الفكر بمعناه الشامل والعام هو عملية عقلية وكل ناتج العقل، ولكن من المنظور الفلسفي يختص الفكر بنظرية المعرفة Epistemology والدراية والفهم والإدراك، فالفكرة تعنى معرفة ويمكن دراسة مضمونها من خلال الأهداف والمقاصد التى تجعل الإنسان يهتم بها، أو بمعنى آخر: منظورنا الشخصى لها. أما الفكرة Idea فى منظور علم النفس فتعنى حدث عقلى له طابع خاص به من حيث تواردہ دون الفعل المادى المتزامن معه. كمثال على ذلك قد يفكر الإنسان فى فكرة السفر قبل حدوث السفر، فالفكرة غالبًا تتوارد قبل حدوث الفعل، وهى غالبًا لا ترتبط بالفعل الفورى المتزامن معها. أخرجت الدراسات الفلسفية والنفسية للفكرة نظريات عديدة متوافقة ومتعارضة أحيانًا. إحدى هذه النظريات تذهب إلى أن الأفكار تأتى كمرحلة متأخرة من مراحل تطور الإنسان بعد مرحلة الإحساس والإدراك Sensation، وبعد مرحلة القدرة على الفهم Perception. فى المرحلة الأولى من الإحساس يتعامل الإنسان مع الأشياء المادية كنوع وصفة (مثال ذلك: السماء لونها أزرق)، أما فى المرحلة التالية الخاصة بالإدراك والفهم، فإن السماء تعنى فضاءً كبيرًا (قد يحوى سحبًا وطيورًا)، أما الفكرة فتختلف عن الإدراك فى كونها أقل دخولاً فى التفاصيل، وأقل اعتماداً على الحواس، ولكنها عمل عقلى بحت نابع من تجارب سابقة وصور وأشكال مخزنة فى المخ البشرى. قد تظهر الفكرة فى حالة الشعور الكامل، أو حالة النوم، فالعقل يعمل بإمكانياته الهائلة فى كلتا الحالتين.

تدرس الأفكار عادة من خلال الاستبطان Introspection، أى فحص المرء لأفكاره ودوافعه ومشاعره. اعتقد الفيلسوف دافيد هيوم أن الفكرة ما هى إلا صورة ذهنية تخيلية، أو نسخة باهتة من الأحاسيس، ولكن لم يتطرق هيوم إلى كيفية استخدام الأفكار المجردة التى لا تتشكل بالصور الذهنية، مثل: الأرقام، أو تعريف العدالة وتقييم الأخلاق. اعتقد بعض كُتاب القرن التاسع عشر مثل هكلى فى أن الفكرة المجردة تتكون من صور فوتوغرافية

مركبة. وضع روبرت وودورث وبعض من علماء النفس فى القرن العشرين مفهومًا للفكرة اللاذهنية Imageless Thought بكونها استدعاء وتذكرًا للشىء الغائب بدون الاستخدام الفورى للكلمات أو التخيل. فى منتصف القرن العشرين عرف جلبرت رايلى الفكرة بكونها إدراكًا ذهنيًا ينتج عنه طرق معينة من الاستجابة من خلال الكلام أو الفعل.

كانت دراسة الأفكار من خلال الهدف منها، هى محل اهتمام الفلاسفة على مر العصور، حيث إن نتيجة هذه الأفكار سوف تنعكس على البيئة أو العالم المحيط. كانت نظرية أفلاطون هى أن الفكرة ليست حالة ذهنية، ولكنها نوع مميز من الأشياء الهادفة، وأن على الفيلسوف أن يحس بالفكرة ويعيش فيها بكامل جوانحه، وينظر إليها بإمعان، ويتفحصها كشىء مجرد وغير مرتبط بأى شىء آخر. هذا الفيلسوف سيشكل منظومة خاصة به بحيث يكون فيها العالم المرئى ما هو إلا انعكاس باهت Pale Reflection، حيث سينصب التركيز كله على الفكرة.

كانت وجهة نظر جون لوك أن الفكرة هى ببساطة: مفهومنا للأشياء التى نفكر فيها، فما دمنا فى حالة من الشعور فنحن دائمًا تشغلنا أمور الأشياء وهى الأفكار، إن السماء بلونها الأزرق، والمنضدة التى نتناول عليها الطعام، والسيارة التى تحملنا فى تنقلاتنا، كلها أشياء هى فى الحقيقة أفكار أو لها شكل "مشروع فكرة"، حيث إن جميع هذه الأشياء لها مكان فى عقولنا، ويمكن تناولها من خلال تجاربنا وشخصياتنا. كانت وجهة نظر الفيلسوف الألمانى هيجل أقرب إلى فلسفة أفلاطون أكثر من منظور لوك من حيث إن حقيقة الأشياء تكمن فى حقيقة وجودها كفكرة وإدراك سبب وجودها، وليس فى الانطباع الذى نستوعبه أو الإحساس الذى نشعر به. والمرء لا يستطيع فهم الشىء إلا بعد إدراك ارتباطه بالأشياء الأخرى التى من الممكن أن ترتبط بها، فالرقم خمسة مثلا - كرقم مجرد - لا يعنى شيئًا إلا بعد أن نكون فى الذهن علاقة بين هذا الرقم وأرقام أخرى مثل ثلاثة الذى يقل عنه بمقدار اثنين، أو

برقم تسعة الذى يزيد عن خمسة بمقدار أربع وحدات. فى هذه الحالة سنجد أن جميع الحقائق سيرتبط بعضها بالبعض الآخر بواسطة علاقات منطقية مكونة المنظومة الكاملة Complete System، أو الفكرة المطلقة Absolute Idea، ولكن إذا فصلنا جزءًا من هذه المنظومة لتكوين منظومة فرعية فسوف تتشكل الفكرة كمجموعة من العناصر المرتبطة بعلاقات منطقية.

فى بدايات القرن العشرين ظهرت نظريات أخرى عن مفهوم الفكرة، من أهمها نظرية اليقين المنطقى Logical Positivists. انتقد معتنقى هذه النظرية الفلاسفة السابقين، باتهامهم بأن معظم أفكارهم ما هى إلا أفكار زائفة بدون أى معنى محدد. كان من السهولة على معتنقى هذا المذهب أن يطالبوا الآخرين باختبار يقين أفكارهم، وإثبات حقيقة معناها ومغزاها. أدت الدعوة إلى اختبار حقيقة ويقين الأفكار إلى ما يسمى بنظرية (الإثبات والتحقق من معنى الفكرة) Verifiability Theory of Meaning، لم يقتنع أصحاب هذه النظرية إلا بالإحساس بالتجربة التى تنتج عن الفكرة، وذلك لمعرفة معناها واختبار حقيقتها ودرجة يقينها، وعليه إذا لم ينتج عن الفكرة تجربة عملية وواقعية فالفكرة من وجهة نظر هذه النظرية ليست لها معنى، وتعتبر فكرة ليست حقيقية ولا تصل إلى مستوى اليقين. من هذا المنطق تكون جميع الأفكار الخاصة بما وراء الكون - ميتافيزيقيا - والروح، والأفكار الخاصة بالخالق، وخلافه من الأفكار المماثلة، كلها أفكار ليست لها معنى، حيث إن جميع هذه الأفكار غير خاضعة للتجربة العملية والإحساس المادى. انتقد علماء الفيزياء، وكثير من الفلاسفة هذه النظرية من منظور أن كثير من الظواهر الطبيعية/الفيزيائية، هى حقيقة قائمة بالرغم من صعوبة إجراء التجارب العلمية عليها. حاول بعض الفلاسفة إعادة تشكيل هذه النظرية لتتماشى مع العلم الحديث والنظريات العلمية الجديدة، وإسقاط التناقض بينها وبين الكشوفات العلمية التى ظهرت فى القرنين الماضيين.

التفكيـــر Thinking

ورد فى "موسوعة علم النفس والتحليل النفسى" تعريف للتفكير فى العبارات التالية: (نظام معرفى يقوم على استخدام الرموز التى تعكس العمليات العقلية الداخلية إما بالتعبير المباشر منها، أو بالتعبير الرمزى، ومادة التفكير الأساسية هى المعانى والمفاهيم والمدركات. . والتفكير أنواع، فهناك ما يسمى بالتفكير الحسى أو العيانى، وهو الذى يستخدم الوقائع والخبرات الحسية المباشرة كمادة له، والتفكير المجرد وهو الذى يسمى بالتفكير الشكلى حيث محتوى المادة هو الرموز والصور والمعانى المجردة. . . وهناك التفكير الخرافى فى مقابل التفكير العلمى، وفى الأول يوجه تفكير الفرد مجموعة من المعتقدات والتصورات القبلية. وغير القابلة للتصديق الفعلى أو التجربة، أما فى التفكير العلمى فالفرد يفكر فى نطاق مقولات ومسلمات عقلية وواقعية، ويجرى على مادة الفكر عمليات تجريب ومناقشة. وهناك التفكير التقاربى فى مقابل التفكير التباعدى، والأول ينتظمه النمط التقليدى الذى يستخرج مصداقية النتائج من المقدمات، ومن ثم يتخلص بطريقة غير تقليدية ويسمح لنفسه بأكبر قدر من الخيال، ومن ثم لا يتقيد بقوانين الواقع).

أما التفكير الابتكارى Creative Thinking فهو تفكير غير عادى وغير مألوف، ويتبع نمطًا جديدًا فى المناولة، والتوظيف، والمعالجة، فهو كما جاء فى الموسوعة السابق ذكرها: (نوع من التفكير التباعدى، والذى يتم من خلال نسق مفتوح، ويتميز الإنتاج فيه بخاصية التنوع فى الأفكار، والتى لا تتحدد مباشرة بالمعلومات المعطاة سلفًا، . . . ويعرفه "تورانس" بأنه عملية إدراك الثغرات، أو الاختلاف فى المعلومات والعناصر المفقودة أو عدم الاتساق، ومن ثم تبدأ عملية الوعى الذاتى للبحث عن دلائل ومؤشرات فى الموقف، واستعمال ما لدى الفرد من معلومات، وتبدأ عملية فرض الفروض واستخلاص القرائن والربط بين النتائج، وإجراء التعديلات، وإعادة اختبار

الفروض. . . إن القدرة الابتكارية قدرة مركبة ويمكن تحليلها إلى مجموعة من قدرات فرعية، ومن أهمها: الطلاقة Fluency وهى القدرة على إعطاء أكبر عدد ممكن من الأفكار إزاء موقف أو مثير معين، بصرف النظر عن طبيعة تلك الأفكار، والمرونة Flexibility وهى قدرة الفرد على إعطاء أفكار متنوعة، والأصالة Originality وهى القدرة على إعطاء أفكار نادرة وجديدة). ينبع التفكير التباعدى Divergent Thinking من التفكير الابتكارى، ويتميز باتجاهاته الواسعة، وانطلاقه إلى آفاق جديدة لم تتناول من قبل، والتفكير التباعدى لا يتقيد بحل واحد صحيح بخلاف الحلول الحسابية، فإن السؤال أو المشكلة فى التفكير التباعدى تقبل حلولا كثيرة صحيحة، مختلفة ومتباعدة بعكس التفكير التقاربى Covergent Thinking الذى يركز على حل واحد للمسألة أو المشكلة المعنية.

يملك بعض من البشر موهبة التفكير التنبؤى Predictive Thinking والذى يمكن صاحبه من التنبوء المسبق لما يمكن حدوثه، أى توقعه من أحداث ووقائع. كتب الدكتور شاكر قنديل فى "موسوعة علم النفس والتحليل النفسى" عن التنبؤ: (وعملية التنبؤ تتطلب توافر مجموعة من الشروط والمتغيرات منها الوقائع القائمة، والظروف والملابسات القائمة حول الوقائع، ثم ما يحتمل حدوثه فى ضوء الظروف والوقائع. ولأن التنبؤ حكم مبنى على ربط العلاقات بين عناصر المواقف والوقائع القائمة، فمن الممكن إذا توافرت دراسة استقصائية للوقائع أن يكون الحكم التنبؤى صادقًا أو أقرب إلى الصدق. أى أن التنبؤ القائم على دراسة وتجربة وتمحيص يكون أقرب للصدق واليقين من التنبؤ النظرى البحت). إن التفكير التنبؤى هو مزيج من عناصر هذا التفكير فى التفكير العلمى/الرياضى/الإحصائى Scientific / Mathematical / Statistical Thinking والتفكير الحدسى Intuitive Thinking، والتفكير/الإحساس الفطرى Common Sense. أصبحت الحاسبات الآلية Computers أداة طيعة ومفيدة فى عمليات التنبؤ،

واستخدام النماذج الرياضية Mathematical Models الصعب استخدامها بالطرق التقليدية.

يتميز التفكير الذاتوى Autistic Thinking بالاتجاه إلى داخل الإنسان والتركيز على الأفكار الذاتية، والبعد عن الواقع القائم، لذا فهو تفكير فردى/ شخصى يحول الإنسان إلى أسير لذاته، ويعتبر علماء النفس أن أحلام اليقظة Day Dreams ما هى إلا ضربًا من التفكير الذاتوى يستسلم الفرد فى أحلام اليقظة لتخيلات يرى فيها نفسه وهو يحقق آماله ويشبع دوافعه، ويتخطى العقبات التى تحول دون إشباع احتياجاته وتحقيق أهدافه. تختلف أحلام اليقظة عن الحلم الليلى - أثناء النوم - التى قد تبدو ممسوخة وخالية من المعنى والمنطق بعكس أحلام اليقظة التى قد يدخلها التفكير المنطقى والعقلانى إلى حد ما. يرجع ذلك إلى أن حالة النوم تعطى فرصة أكبر للاشعور حتى يعبر عن نفسه ويشبع دوافعه ويخرج مكنوناته حيث تخف حدة المقاومة التى تفرضها الشخصية على اللاشعور.

عرف الدكتور فرج عبد القادر فى المرجع السابق التفكير العيانى Concrete Thinking: (نوع من التفكير يستعين فيه العقل بالصور الحسية وتكون مادته وتركيزه فى الخبرة المباشرة والتجارب الشخصية والأشياء والأحداث الخاصة والمعينة. وهو نوع أقل رقيًا من التفكير. ولذا فهو يسود لدى الأطفال والبدائيين والأميين. كما أنه يميز بعض المرضى العقليين، على نحو ما يكثر فى حالات الفصام والإصابات العقلية العضوية. ولا يكاد يتخلص هذا النوع من التفكير من وقع المحسوسات على الحواس وإدراكها حسيا... والتفكير العيانى يقابله النوع المعروف بالتفكير المجرد). يعرف نفس المرجع التفكير المجرد Abstract Thinking: (نوع أرقى من التفكير... يعتمد على المعانى والأفكار المجردة والرموز والمفاهيم. لا على الخبرة المباشرة أو المحسوسات والمجسمات والماديات، أو الصور الذهنية لها. كما أنه يتخطى كل ذلك إلى ما وراءه من معان ورموز ومفاهيم وأفكار مجردة. ولذا يتميز

بالتعميمات وباستخدام الرموز كما فى المعادلات الرياضية واللغة. وهكذا، فإن التفكير فى المسئولية والعدل والحق والخير والشر والمبادئ الأخلاقية والنظريات الفلسفية، ووضع تصور لما سوف يكون عليه المستقبل بالنسبة لأمر ما أو ظاهرة ما..... كل هذا ومثله مما يقع ضمن نوع التفكير المجرد ويشير إليه).

يعتبر التفكير الناقد Critical Thinking هى عملية عقلية لاختبار الحقائق والآراء فى ضوء مجموعة من المبادئ العقلية والنقدية، وذلك لمعرفة الأدلة والتعرف على القرائن دون القفز إلى النتائج، التفكير الناقد هو نوع من السلوك الذى يسلكه الفرد عندما يذهب إلى الحكم على قضية ما، أو مناقشة موضوع معين، أو تقديم رأى فى مشكلة. من أساسيات التفكير النقدى أن يتوافر للفرد القدرة على التحليل والتقيم، والاستنباط، وفهم العلاقات بين جميع عناصر الموضوع، والقدرة على الاستنتاج والتمييز بين الصواب والخطأ، وكذلك القدرة على التفسير واستخلاص الأحكام العامة. يستخدم مصطلح النقد الأدبى Literary Criticism لتحليل، وتقيم، وتبرير، ووصف، والحكم على الأعمال الأدبية، ينقسم النقد الأدبى إلى نوعين، الأول خاص بالنقد النظرى الذى يحاول الوصول إلى القواعد والمبادئ العامة وتشكيل الإحساس والمذهب الجمالى Aesthetic Tenets، أما النوع الثانى فهو النقد العملى الذى يختص بالعمل وحده كعمل مجرد.

قامت موسوعة "علم النفس والتحليل النفسى" بعمل تعريفات لأنواع أخرى مختلفة من التفكير التى تنحرف عن وسط منحنى التوزيع الطبيعى للتفكير الإنسانى. لا يمكن اعتبار مصطلح "تفكير غير طبيعى" تعبير صحيح، لأن أى تفكير نابع من أى إنسان هو تفكير طبيعى فى منظومة بشرية شاملة وجامعة، وقائمة على التباين والاختلاف، ولكن قد يتبع عدد قليل من البشر هذه النماذج من التفكير، لذا نستطيع أن نطلق عليه تعبير: تفكير منحرف عن التفكير السائد والرائج. تعرف الموسوعة التفكير الفصامى

فى: Schnizophrenic Thinking (وصف للتفكير الذى يميز المرضى الفصاميين من حيث عدم التماسك، والخلط وعدم ارتباط الأفكار بعضها ببعض فى تسلسل منطقى، أو عدم ارتباط الكلمات داخل الجملة الواحدة بحيث تؤدى إلى معنى مفهوم). أما التفكير الذاتوى Autistic Thinking فقد عرفته الموسوعة كما يلى: (تفكير يميز الفصامى أو شبه الفصامى وهو تفكير يشاهد أيضًا لدى الانطوائيين مع اختلاف فى الدرجة. وفى التفكير الذاتوى يصعب الانتقال من عالم التخيل والأفكار الذاتية والانشغال الدائم بالذات إلى مجال الواقع بل هو تفكير أسير عالمه الخاص دون اهتمام بالواقع). والفصام مرض عقلى يصيب الشخصية بالتصدع فتفقد التكامل والتناسق الذى يوائم ويناغم بين جوانبها الفكرية والانفعالية والحركية والإدراكية، وكأن كل جانب منها أصبح فى واد منفصل ومستقل عن بقية الجوانب الأخرى.

الإدراك وما بعد الإدراك Perception & Apperception

يشير مصطلح الإدراك فى علم النفس إلى الفهم المباشر للأشياء، وعلاقاتها بالمواقف والحوادث، والتى تتواجد فى الطبيعة مثل الإحساس بالأشجار والمنشآت، والألم الذى يشعر به الإنسان، والرتم الموسيقى Musical Rhythm، والعلاقات الهندسية من أبعاد وتشكيلات، ومعنى الكلمات المطبوعة، . . . إلى آخره من جميع الأشياء التى يراها أو يسمعها أو يتذوقها الإنسان ويحس بمضمونها، ويشعر بها ويتفهم معناها ومغزاها عن طريق المخ. إن عملية الإدراك هى نوع من الاستجابة للأشكال والأشياء الخارجية، ليس من المنظور المجرد بل كرموز ومعان. تمر عملية الإدراك عادة بثلاث مراحل هى: النظرة الكلية الشاملة أى النظرة الإجمالية للشىء المدرك، ثم النظرة التحليلية والكشف عن العلاقات بين الأجزاء، ثم إعادة التأليف بين الأجزاء والعودة إلى النظرة الكلية وهى المرحلة التوليفية، وتتم كل هذه العمليات من خلال القدرات الشخصية للفرد ومن خلال خبراته وتجاربه.

ليس من الضرورى أن تتم عملية الإدراك بوضوح وفاعلية، فكثير من العمليات الحسية تتم دون بدايات الشعور، مثل الاستماع إلى موسيقى خافتة بحيث لا يستطيع المرء تكوين صورة كاملة عنها، أو من يقرأ فى عجالة عن موضوع غير متكامل، لا يستطيع تفهمه أو إدراك أبعاده كاملا.

يأتى الإدراك من الطرف النقيض من التخيل Ideation، والذى يكون فيه الشيء مجرد فكرة أو تخيل أو صورة ذهنية طرأت على العقل دون عمل حواس الإنسان. يعتبر الوهم Illusion صورة خادعة ومضللة للإدراك، فقد يظن المرء أنه رأى شيئًا أو سمع صوتًا غير موجود فى الحقيقة، فالوهم صورة ذهنية بحتة قد يظنها البعض حقيقة قائمة. يعانى أحيانًا بعض البشر - تحت ظروف معينة أو مرض نفسى - من الوهم البصرى Optical Illusion بالإحساس برؤية أشياء وهمية، قد يبنى عليها الكثير من توابع الأفكار، وتندرج رؤية الأشباح أيضًا تحت الوهم البصرى. يختلف الوهم عن الهلوسة Hallucination، فى أن الوهم ما هو إلا تفسير مضلل لمثير إحساس حقيقى، أما الهلوسة فليس لها أساس إحساسى من الأصل، أما الخداع والتضليل Delusion فهو خطأ فى الحكم الإدراكى، وخطأ فى الاعتقاد، ولكنه ليس ناتجًا من خطأ فى الإحساس والإدراك.

كتب الدكتور حسين عبد القادر عن معنى التفهم Apperception فى "موسوعة علم النفس والتحليل النفسى": (إنه المرحلة القصيوية فى الإدراك والتى بها تتضح معالم الأشياء، ذلك أن الصدر Ap يعنى فى اليونانية ما بعد، وكأن المقصود بالمصطلح هو ما بعد الإدراك... التفهم يقوم على تلك العملية التى يفك بها عقال الموضوعات التى تتشابه مع غيرها أو تتصل بها - وقد تتصل بالإدراك الداخلى - ... إن المصطلح قد يستخدم أحيانا ليشير لذلك الفهم الذى يرى أن التعلم على سبيل المثال إنما يعتمد على اكتشاف تلك العلاقة بين الوقائع الحالية وتلك الخبرات الخافية والتى تشكل الأساس الذى تقوم عليه الصيغة الإجمالية Schema للتربية. ولقد استخدم المصطلح

لدى كل من مورى ومورجان فى الاختبار الإسقاطى الشهير المعروف باسم اختبار تفهم الموضوع Thematic Apperception، حيث الإدراك إنما هو نتاج لتفاعل دينامى بين الشخص والموقف، الأمر الذى يعنى أن الإدراك هنا يتجاوز المظهر إلى أبعاد خفية مما يستند إلى ديناميات المجال بقدر ما يتصل بديناميات الفرد ودلالات المدرك لديه). أما اختبار تفهم الموضوع فهو نوع من الاختبارات لكشف الدوافع، والانفعالات، والميول، وصراعات الشخصية الفردية، عن طريق عرض مجموعات من الصور، كل منها تصف حوادث إنسانية درامية غامضة، ويطلب من الذى يجرى عليه الاختبار بناء قصة خيالية نابعة من تفاعله من الصور المعروضة.

يعتقد الكثير من البشر - فى العصور القديمة والحديثة - فى قدرة البعض فى عملية الإدراك خارج نطاق الحس العادى، أو ما يسمى إدراك فوق الحواس Extrasensory Perception. تتمثل هذه القدرة فى الاستجابة المباشرة لبعض الأشياء أو الحوادث أو الأفكار التى تقع خارج نطاق الإحساس العادى، أو خارج نطاق التخمين والاستدلال والفكر المنطقى. يوجد ثلاث أنواع من الإدراك الفوق الحسى وهم:

- **التخاطر** Telepathy، بمعنى اتصال مباشر من عقل إلى آخر للأفكار بطريقة ما خارجة عن نطاق الاتصال العادى.
- **الاستبصار** Clairvoyance، بمعنى القدرة على رؤية كل ما هو واقع وراء نطاق البصر.
- **بعد النظر** Precognition، بمعنى القدرة على معرفة الأحداث المستقبلية قبل وقوعها.

ويمكن أن يقع تحت هذا النوع القدرة على رؤية أحداث الماضى البعيد Retrocognition، والرجوع إلى حوادث تاريخية قديمة.

المفهـــوم Concept

يمكن أن يعرف المفهوم كفكرة Idea، أو صورة ذهنية Image، أو فكر Thought، وكمصطلح فلسفى يعرف المفهوم كفكرة تحوى جميع الأشياء المتعلقة بالاقتراحات التى تأخذ الشكل المنطقى. عرفت "موسوعة النفس والتحليل النفسى" المفهوم: (الفكرة المجردة أو المعممة، أو المعنى العام الذى يعبر عن مجموعة من الخصائص والصفات التى يمكن انطباقها على عدد لا متناه من أفراد جنس معين، أى الأفراد الذين تنطبق عليهم صفات مشتركة). إن مفهوم (الشجرة) مثلا يشير إلى أى شجرة باعتبارها ممثلا للأشجار كنوع، أى يشير إلى الشجرة بصفة عامة، وعليه يوجد مفهوما عاما يمكن التعبير عنه (بالشجرية Treeness)، وهو مفهوم يشير إلى أى شجرة وكل الأشجار، لذا فإن المفهوم هو معنى عام ومجرد، وعموميته تعنى انطباقه على كل أفراد النوع، والتجريد مشتق من عملية استقراء واستقصاء واسعة لكل الخصائص المشتركة بين أفراد جنس معين، فهى عمليات تجريد وتجميع، ثم تفريد وتميز.

جاء فى نفس المرجع تعريف ثان للمفهوم: (مجموعة من المثيرات التى تجمعها خصائص مشتركة، وقد تكون تلك المثيرات أشياءً أو أحداثًا أو أشخاصًا. ونحن نعبر عن تلك المفاهيم باللغة سواء فى شكل مفردات وكلمات، أو فى شكل صياغات لفظية تجمع عدة كلمات، وهى التركيبات اللغوية المعقدة، وهناك اختلاف بين المفهوم "مستقلا" فى شكل كلمة، وبين المفهوم "مشتبكًا" فى شكل جملة، ذلك أن تركيب الكلمات يترتب عليه مزج المفاهيم، ومن ثم تكتسب تلك المفاهيم التى تعبر عنها الكلمات وظائف جديدة، فدخول المفهوم فى تركيب لغوى يجعله أكثر محدودية وتعينًا، بمعنى أن حدود المفهوم القديم يمكن أن تضيق لأن عملية الامتزاج بين المفاهيم، يترتب عليه امتزاج الخصائص التى يحملها كل مفهوم على حدة. ومن ثم

فإن تكون مفهوم جديد مشترك، يجعل حدوده مختلفة، فمثلا مفهوم "منزل" مستقلا، ومفهوم "جديد" مستقلا يمكن مزجها فى مفهوم مشترك هو "منزل جديد" وهذا المفهوم المشترك ينطبق على ماصدقات أقل فى العالم الخارجى فهو عدد يقل كثيراً عن كل مفهوم منهما على حدة... وهكذا نجد أن العلاقة بين المفهوم كمعنى ذهنى مجرد، وبين الأشياء التى ينطبق عليها فى الواقع (ماصدقات) علاقة عكسية، بمعنى أنه كلما زاد المفهوم قل الماصدق، وكلما قل المفهوم زاد الماصدق. ولا شك أن المفاهيم تمثل أهمية قصوى لحدوث التعلم، وتحقيق التواصل الفكرى بين الأفراد، ولتحدى أشياء العالم الخارجى، ولتوجيه النشاط الإنسانى، لخلق تفاهم مشترك بين الناس جميعًا). بذلك يكون "المفهوم" من وجهة نظر علم النفس هو "معرفة"، قد لا تدرك مباشرة بالحواس، ولكن تتشكل نتائجه من معالجة Manipulation الانطباع الإحساسى.

تواردالمعانى والخواطر والأفكار Association of Ideas

هى نظرية تشرح كيف ترتبط الأفكار بالعقل. كان أول من استخدم هذا المصطلح هو الفيلسوف الإنجليزى جون لوك فى القرن السابع عشر. بالرجوع إلى الفلسفة الإغريقية، فإن أفلاطون كان أول من تطرق إلى طرق الارتباط الذهنى للأفكار وكذلك إعادة تحصيلها وتفحيصها فى العقل. سرد أرسطو طاليس قواعد ومبادئ توارد الأفكار فى: التواصل Contiguity، والتماثل Similarity، والتقابل بين شيئين مختلفين Contrast. أما فى العصر الحديث فقد أدخل الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز فى القرن السابع عشر فكرة توارد الخواطر والأفكار فى منظوره لعلم النفس. تأكدت هذه الفكرة بواسطة كتابات دافيد هيوم فى القرن الثامن عن القوة الرقيقة Gentle Force التى تربط بين الأفكار بعضها البعض من خلال تداعى المعانى البسيطة والتى تعزز تدريجيا حتى تصبح أفكاراً مركبة ومعقدة.

تخلى علم النفس الحديث عن نظرية توارد الأفكار بالرغم من ظهوره فى صورة معدلة فى المذهب السلوكى Behaviorism وفى نظرية العالم الفسيولوجى بتروفتش عن الفعل المنعكس الشرطى Conditioned Reflex، كاستجابة فسيولوجية لا إرادية للمثير، لا يستطيع الفرد التحكم فيها حتى لو أراد ذلك.

ظهر المذهب الترابطى Associationism بواسطة جون لوك فى القرن السابع عشر، واعتنقه كثير من الفلاسفة والمفكرين، مثل: ديفيد هيوم، ودافيد هارتلى، وتوماس ريد وغيرهم. حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت الترابطية ترى أن كافة العمليات العقلية يمكن أن ترد إلى عملية الترابط وحدها، وأن ثبات الذكريات يتم من خلال ربط العمليات العقلية، أو ربط كل فكرة مع الأخرى، حتى إن العمليات الإبداعية، والاستدلالية والعقائدية ما هى إلا عمليات ترابطية. قوض صرح المذهب الترابطى بواسطة هنرى بيرجسون فى فرنسا، ووليم جيمس فى الولايات المتحدة فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

الاستنتاج Reasoning

الاستنتاج هو عملية فكرية توجه نحو استنباط شىء واستخراج المعنى من الوقائع أو المقدمات وإيجاد الحجج والبراهين لإثبات صحة الاستدلال والاستنباط. ميز الفيلسوف أرسطو ما بين الاستنتاج النظرى Theoritical Reasoning والذى يختص بما نعتقده ونعتنقه، وبين الاستنتاج العملى Practical Reasoning والذى يتعلق بما نفعله، وما نخطط إليه أو نعزم فى تحقيقه. قام بعض الفلاسفة الآخرين بالتمييز بين الفكرة الاستنتاجية/ الاستدلالية Deductive Reasoning وبين الفكرة التخليقية المؤثرة Inductive Reasoning أن الفكرة الاستنتاجية بصفة عامة هى ما تخلص إلى نتيجة من موضوع معين أو من مقدمة منطقية ثابتة

Fixed Premises، أى الاستدلال إلى العلاقة بين قضية وأخرى، أو بين قضايا متعددة، أو بين جزئيات وعموميات وتنتهى إلى الحكم بالخطأ أو الصواب، أو بالضرورة أو بالاحتمال. يعتبر التفكير استنتاجى صحيح، فى حالة إذا كانت حقيقة المقدمة المنطقية تضمن حقيقة النتائج المترتبة عليها. فى واقع الحياة لا يوجد مقدمات منطقية محددة وثابتة، فدائمًا يوجد اختيارات يمكن إهمالها أو التخلى عنها. ليس من الضرورى أن يقودنا التفكير الاستنتاجى إلى نتائج جديدة، فقد يقودنا إلى قرارات نكون قد اتخذناها أو أهملناها واستبعدناها بالإحساس الفطرى Common Sense وبالإضافة إلى ذلك. ومن خلال الإحساس الفطرى المشبع بمعتقداتنا الشخصية وتجاربنا السابقة، يمكن القول بأن التفكير الاستنتاجى النمطى يتضمن الحكم بالمقبول والمعقول ظاهريا Plausible بحيث يمكن تحديد الأساس الذى تعتمد عليها هذه المقومات المنطقية. لا يعتمد التفكير والإحساس الفطرى على الحواس الخمس، أو إلى إثباتات عملية أو إلى براهين علمية ومنطقية، ولكن يعتمد أساسًا على التفكير الفطرى/الذاتى/الداخلى الذى ينبع من تفاعل/تراكم التجارب الشخصية مع الغرائز الإنسانية الموروثة بحيث يمكن - من خلال عملية عقلية سريعة، لا يمثل الوقت فيها عاملاً مؤثرًا - الوصول إلى استنتاج ما، أو أخذ قرار ما، أو الوصول إلى نتيجة ما.

تذهب نظرية الاستنتاج الاستدلالى إلى أنه يجب على المنطق أن ينصب على القواعد الاستنتاجية/الاستدلالية. يتأثر الفكر الاستنتاجى بثلاث محاور رئيسية وهى:

- تحسين الترابط المنطقى لوجهة النظر الشخصية، بحذف وإزالة أى تضارب وتناقض وتنافر وعدم تناغم فى الأفكار، وذلك من خلال إضافة التبعيات المنطقية، وعن طريق التفسير والشرح الوافر للعناصر المنطقية، وتجاهل جميع العناصر غير المنطقية.
- إشباع الرغبة العقائدية والفكرية، وتعزيز الأهداف والقيم الشخصية والجماعية.

- بناء الفكر الاستنتاجي بأقل تغييرات وتعديلات ممكنة، يمكن أن تضاف أو تحذف من المعتقدات والأفكار التي يعتنقها الفرد والمجتمع.

وفي العصر الحديث وبعد تقدم العلوم وتطور التكنولوجيا، ذهب الفلاسفة والعلماء إلى أنه لا يمكن الجزم بدقة الاستنتاج والاستدلال، وأن كل فكر وأي نتيجة يمكن أن يطبق عليها القوانين الاحتمالية والإحصائية، فالحقيقة المطلقة لم تتحقق ولن تتحقق بالنسبة للبشر.

التخيل Imagination

يعرف التخيل بأنه عملية عقلية لتكوين صورة ذهنية بدون وجود منبه خارجي أو مثير للمستقبل الحسي. تكون الصورة في العادة فكرية، أو صورة مرئية خيالية ونابعة من فكرة تكون وتتشكل في العقل. يستخدم مصطلح الخيال في اتجاهين يختلفان اختلافًا طفيفًا في تناولهما، الأول تقليدي وهو قائم على المحاكاة والتقليد Imitative، والثاني إبداعي Creative وهو قائم على الأفكار الجديدة التي لم تتناول من قبل، أو لم يسبق لأحد التفكير فيها وإظهارها. إذا كان أفلاطون هو أول من نوه بهذين الاتجاهين، فإن الشاعر الفيلسوف الإنجليزي صامويل تيلور كولريدج هو الذي أعطى لهما التميز الواضح والمحدد في أوائل القرن التاسع عشر. عرف كولريدج الخيال التقليدي بأنه صورة ذهنية نابعة من الخيال Fancy، وقريبة في معناها من معنى الذاكرة، وتنطبق على عمليات الإنشاء والإخراج الذهني للحوادث الماضية التي تتم في العقل. وعندما تتم عملية إعادة الإنشاء والتكوين بطريقة صحيحة، حينئذ يمكن القول بأن المرء صاحب هذا النوع من الخيال - يملك موهبة الخيال، أو التمثيل الذهني Eidetic Imagery. قام العالم النفسي الألماني إيريك جينش في القرن العشرين بالدراسة والبحث في موضوع التخيل، ووجد أنه سائد ومنتشر بين الأطفال كنقطة انعطاف وتحول Turning Point في تكوين الشخصية. ذهب الباحثون في العقود الماضية إلى

أنه بالرغم من أن نصف الأطفال يملكون هذا الحس الخيالي، إلا أن قليلاً من البشر تتوافر لديهم هذه الموهبة عند الوصول إلى مرحلة الرشد والنضوج.

قد يثير حدث ما (مثل سماع أغنية أو رؤية منظر ما أو خلافه) خيال الإنسان مما يؤدى إلى استرجاع كامل لحوادث ماضيه. أو إنشاء فكرة أو تشكيل صورة أو مجموعة صور جديدة. يطلق علماء النفس على هذه العملية باسترجاع الحوادث الماضية **Redintegration**، ويستخدمها علماء النفس فى استرجاع الحوادث الماضية، بحيث يشعر المرء بأنه فى مكان معين أو يواجه موقفًا معينًا قد واجهه من قبل، وبذلك يمكن الوصول إلى أسباب العقدة النفسية. وفى حالات التطرف قد يؤدى الخيال المرضى إلى الوهم أو الهلوسة.

أما بالنسبة للخيال الإبداعى، فهو نوع من الخيال يتعلق بالفكر الإبداعى غير المألوف. يعتقد بعض المفكرين وعلماء النفس بأن الأفكار لا بد أن تحوى شيئًا من الخيال العقلى المنطقى، خاصة فى مجال الفنون والآداب، يأخذ الخيال الإبداعى صوراً عديدة مثل أحلام اليقظة والتى تعتبر ظاهرة صحية، حتى تبدأ فى التداخل مع الأنشطة الحياتية الأخرى، وبحيث لا يستطيع المرء التميز بين الواقع والخيال، فى هذه الحالة يجد المرء صعوبة فى توظيف قدراته للتعامل مع العالم الواقعى. فى الوقت نفسه، إذا كان الفرد لا يملك موهبة الخيال، فيتحول إلى إنسان ممل، متبلد الحس، وكئيب، أو يتحول إلى إنسان يعيش بدون الأحاسيس العاطفية والشاعرية التى يغذيها الخيال. يحاول علماء النفس فى العصر الحديث التميز أو الربط بين الإبداع والذكاء، فهما متقاربان فى الاتجاه، وكلاهما يؤديان إلى خلق أفكار جديدة، وإبداع غير مسبق.

الفكر الفلسفى

الفلسفة:

ما هي الفلسفة.....؟

الفلسفة هى موضوع فلسفى لم يحسمه الفلاسفة حتى الآن، أو فى قول آخر: هى مجموعة تساؤلات لم تحسم الإجابة عليها. تعددت المدارس الفلسفية، واختلف الفكر فى كل مذهب، وتطورت النظريات الفلسفية عبر التاريخ مع تطور الأفرع الأخرى فى العلوم الطبيعية وفى مفهوم القيم والأخلاق. فى بداية التعريف، فإن الفلسفة متضمنة فى كل مجالات التعليم المتقدم الذى يتجاوز المراحل الأولية من قراءة وكتابة وعمليات حسابية، لذا يطلق على الفلسفة تعبير "أم العلوم" باكتساب المرء معلومة محسنة ومؤكدة ومصنفة، ومرتبة منهجيا لظاهرة ما، فإن فرع خاص من التعليم يكون قد تبلور وانفصل من الفكر العام ليتحول الى موضوع فلسفى.

يخطئ من يظن أن الفلسفة مرتبطة بالماضى الطويل وبتاريخ الإنسان عبر العصور، وأن قدر الفلسفة أن تختفى فى المستقبل حين يحدث تشبع واستكفاء فى بحوث العلوم الطبيعية والإنسانية. إن التشبع والاستكفاء لن يحدثا إلا بنهاية المنظومة البشرية، وعليه فسوف تنتهى الفلسفة بنهاية منظومتنا التى يحويها عدم التأكد Uncertainty فى كيف، ومتى، وأين ستكون النهاية. لقد نفذت وتشعبت الفلسفة فى: جميع أنواع العلوم من: منطق، وأخلاق، وقيم، وأديان، وقانون، وسياسية، وعلوم طبيعية،... إلخ، وارتبطت بها وامتزجت معها، لذا أصبحت الفلسفة جزءاً لا يتجزأ من منظومة الإنسان الحياتية التى يتعايش معها فى رحلته. من ماضى لا يعرفه ومستقبل يجهله.

ظهرت كلمة فلسفة Philosophy فى العصر الذهبى للحضارة اليونانية القديمة بمعنى "محبى الحكمة" Lovers of Wisdom، وارتبط منشأ هذه الكلمة ببداية ظهور التعليم الأكاديمى. أطلق سقراط على نفسه وعلى أتباعه

كلمة فلاسفة من أجل التأكيد على حبهم للعلم والحكمة أو من أجل التميز بين مذهبهم ومذهب السوفسطائين Sophists. عاش سقراط Socrate فى الفترة ٤٧٠ - ٣٩٩ ق. م، لم يكتب فيها الفلسفة بنفسه ولكن جاءت فلسفته نتيجة مناقشاته مع تلاميذه الشبان الذين تجمعوا حوله فى حلقات بحث ومحاورات طورت الفلسفة الإغريقية فيما بعد.

كانت السوفسطائية جزءاً من المرحلة الانتقالية بين الفلسفة البدائية التى لم تنظر إلا للطبيعة وللكون ككل، وبين فلسفة الفلاسفة الإغريق العظام، مثل: سقراط، وأفلاطون Plato فى الفترة ٤٢٨ - ٣٢٢ ق. م، وأرسطوطاليس Aristotle فى الفترة ٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م، والذين بنوا فلسفتهم على النظم الراقية من علوم إنسانية، وسياسية، وعلمية، ودراسة العقل البشرى كوعى وإدراك، وطرق التفكير المنطقى، وتحليل السببية، وطرق المعرفة الموضوعية. ظهر السوفسطائين فى عصر الانحدار السياسى، والفساد الاجتماعى كمنتقدين لاضمحلال الفلسفة دون الرقى بها أو تطويرها.

كان القرن الخامس قبل الميلاد هو قرن نهضة أثينا، معلنة بدء حضارة انتقلت بعد ذلك إلى روما، مُشكلة تكوين جنين الحضارة الغربية التى بزغت فى القرن السابع عشر الميلادى والتى استمرت حتى وقتنا الحالى. فى القرن الخامس قبل الميلاد ظهر سقراط محبًا للجدل، دارسًا للفلسفة، معجبًا فى وقت ما بالسوفسطائين الذين غزوا الفكر الأثينى فى أيام شبابه. كانت كلمة (سفسطة) تعنى فى بدايتها "تعليم الحكمة"، حتى قام أفلاطون بالهجوم عليهم لنزعة بعض السفسطائيين إلى الأعمال التجارية بغية المكسب من جراء ما كانوا يتقاضونه من أجر باهظ نظير تدريس المنطق والبلاغة. كان سقراط يتفاعل مع الناس بأن يطلب من محدثه أن يقوم بتعريف فكرة عامة شاملة، ثم يبحث فى هذا التعريف ليكشف عما فيه من نقص وتناقض، ومن سخف وبطلان، ثم يستدرج محدثه بأسئلته المتعاقبة للوصول إلى تعريف كامل وصحيح. بالرغم من أن سقراط لم يكن يؤمن بالدين، إلا أنه كان يعبد آلهة

مجتمعة بلسانه فقط، لذا لم تكن الفلسفة عند سقراط هى الدين أو أمور ما وراء الطبيعة، أو حتى الطبيعة نفسها، بل كان علم الأخلاق والسياسة مدخلها والوسيلة إليها هو المنطق. إذا كانت المعرفة عند سقراط هى أسمى الفضائل، فإن الأورستقراطية هى خير أشكال الحكم، والديموقراطية فى مذهبه سخفًا وعبثًا، أو كما جاء على لسانه: (من السخف أن نختار الحكم بالقرعة على حين أن أحدًا لا يفكر قط فى أن يختار بالقرعة مرشد السفن أو البناء أو النافخ فى الناى، أو أى صانع على الإطلاق، مع أن عيوب هؤلاء أقل ضررًا من عيوب أولئك الذين يفسدون حكوماتنا).

شهد القرن الخامس قبل الميلاد محاكمة سقراط بتهمة ازدراء الأديان ثم موته، وشهد أيضًا ميلاد أفلاطون المكنى "بالمعلم" فى عام ٤٢٧ق.م. كان أفلاطون أول من كتب - فى المقالة الثانية من الجمهورية - عن مدينة تحيا فى مناخ فطرى وشيوعى، وذلك قبل أن يكتب توماس مور عن مدينته الفاضلة "يوتوبيا" بحوالى ألفى عام. بحث أفلاطون فى مواضيع مختلفة، مثل: المنطق، وما وراء الطبيعة، والأخلاق، وعلم الجمال، والسياسة. كان حدس أفلاطون دليله فى الذهاب إلى أن كثيرين من قرائه سيكونون من المتشككين، فحاول وضع مبادئ ونظم وقوانين أخلاقية طبيعية تبعث فى نفوس البشر الرغبة فى الاستقامة والصلاح بدون الاعتماد على السماء، وما تحتويها من المطهر والجحيم. تحولت محاوراته فى حياته الوسطى من الميتافيزيقا إلى الأخلاق والسياسة، فمن أقواله: (إن أعظم أنواع الحكمة وأجملها هى الحكمة المتصلة بتنظيم الدول والأسر). كانت المشكلة الرئيسية فى علم الأخلاق تدور حول النزاع الظاهر بين أنانية الفرد فى إشباع احتياجاته ورغباته وملذاته، وبين الخير الاجتماعى الذى يعود بالفائدة على المجتمع ككل. كان أفلاطون يعترف بأن الرغبة فى اللذة لا عيب فيها ولا إثم، ولكن الإنسان فى حاجة دائمًا للذكاء للتمييز بين اللذات الطيبة واللذات الضارة، وأن من الواجب تربية الطفل على عادة الاعتدال.

كان ثالث الفلاسفة اليونانيين العظام أرسطوطاليس، ناهلا من علم أفلاطون بالفلسفة التى امتزجت بميوله الداخلية فى مجال العلم والطبيعة، عرَّف أرسطو النفس Psyche بأنها الدافع الداخلى الأول فى الكائن العضوى، أى الصورة الفطرية المقدرة لهذا الكائن والتى تدفع نموه وتحدد اتجاهه. ليست النفس شيئا يأتى إلى الجسم من خارجه أو يسكن فيه بل هى موجودة معه فى كل جزء من أجزائه، أى أنها هى الجسم نفسه من حيث قدرته على تغذية نفسه وتنميته وانحلاله. فالنفس بصفة عامة هى جماع وظائف الكائن الحى. النفس فى فكر أرسطو لها ثلاث درجات: نامية، وحاسة، وناطقة. فالنبات يشترك مع الإنسان والحيوان فى النفس النامية، أى قدرته على تغذية نفسه، ويتميز الحيوان مع الإنسان بالنفس الحاسة، أى قدرة الإحساس، ثم يأتى الإنسان وحده بميزة النفس الفاعلة والعاقلة، أى القدرة على التصميم والابتكار والتنفيذ. إن النفس الأخيرة - فى فكر أرسطو - هى جزء من قوة الكون الخالقة وهى الله، وهى بهذا الوصف لا تموت، ولكن هذا الخلود غير شخصى، أى الذى يبقى ويخلد هو القوة لا الشخصية، جاء فى موسوعة "قصة الحضارة" عن أرسطو الفيلسوف: (الله هو صورة العالم أو حقيقته الفعلية... والعلل كلها ترتد آخر الأمر إلى العلة الأولى والتى لا علة لها، كما ترد كل الحركات إلى المحرك الأول الذى لا محرك له، ولا بد لنا أن نفترض وجود أصل أو مبدأ لما فى العالم من حركة أو قوة، وهذا الأصل هو الله. وكما أن الله هو جماع الحركة كلها ومصدرها، فهو كذلك جماع كل غايات الطبيعة وهدفها، فهو العلة الآخرة والأولى).

وأخيراً يمكن بلورة الفلسفة اليونانية القديمة بامتزاج ثلاث نزعات رئيسية وهى: النزعة الطبيعية/الفيزيائية. ونزعة ما وراء الطبيعة/ميتافيزيقية، والنزعة الأخلاقية، وصلت النزعة الطبيعية إلى أقصى مداها - فى ذلك الوقت - فى فلسفة أرسطو، والميتافيزيقية فى فلسفة أفلاطون، أما النزعة الإنسانية

الأخلاقية فكانت من خلال الفيلسوف زينون فى القرن الثالث قبل الميلاد. انتهى تطور النزعة الطبيعية بفصل العلم عن الفلسفة بواسطة أركميديز، وهبارخوس، وانتهت النزعة الميتافيزيقية فى الفلسفة اليونانية بتشكك الفيلسوف بيرو Pyrrho الذى كان أول من اتبع المذهب الشكوكى Skeptic فى القرن الرابع قبل الميلاد، والذى تبع الإسكندر الأكبر فى غزواته لبلاد فارس والهند، لم تنته النزعة الأخلاقية فى الفلسفة اليونانية، وظلت قائمة حتى غلبت العقيدة المسيحية على الأبيقورية والرواقية أو اندمجتا فيها.

انصب البحث الرئيسى فى فلسفة الكون على طريقة تتابع الأحداث، وكيفية تغيير الأشياء عبر الزمان، وفى إذا كان أى شىء يحدث أو سيحدث مرتبط بما سبقه من أحداث وله سبب يحدد حدوثه بالطريقة التى حدثت أو ستحدث ولا يمكن تغيير الحدث إلا بتغيير الماضى السابق على حدوثه. إن الطرق الأخرى لتصور حدوث الحدث تتلخص فى اثنين: أولهما الصدفة البحتة، وثانيهما من خلال صفة وطبيعة الشىء المرسوم له نهايته، أو هدف معين يحويه هذا الشىء ويحدد مساره وتغيراته. يطلق على طبيعة الحدث المحددة نهايته سلفًا بالأسباب النهائية Final Cause، أو بالمسار المحدد سلفًا للوصول إلى نتيجة نهائية معروفة سلفًا. كما تسمى الأحداث فى هذه الحالة بالعمليات الطبيعية التلقائية أو الأحداث الآلية Mechanism.

إن مفهوم الأحداث القائمة على عدم وجود سبب للتأثير، لم ينتشر إلا من خلال أصحاب مذهب الشك مثل الفيلسوف الاسكتلندى دافيد هيوم فى القرن الثامن عشر الميلادى. خلصت فلسفة هيوم فى: (أنه من المستحيل الدفاع من فوق أرضية صلبة على وجود عالم مأهول بأشياء تملك زمام نفسها، ومحكوم بالقوانين الطبيعية والعلمية، ومخلوق من الرب). إن هذه التركية فى فكر هيوم تشكل مجموعة من المتناقضات اللاعقلانية - على الأقل بالنسبة لنا نحن البشر. يوجد ثلاث قضايا مهمة مرتبطة بالتساؤل فى موضوع السببية وهى:

أولا:

السؤال الخاص بحقيقة وجود حرية الإرادة. إن حرية الإرادة تتطلب سببًا غير مسبب فى عملية اتخاذ القرار بتأنى وبروية، بمعنى أن الإرادة هى سبب للفعل، وأن مبادرة الفعل من خلال الإرادة لا تحدد بسبب سالف. ينقسم الذين يتفقون على حرية الإرادة إلى: حتميين Determinists يعتقدون فى التحديد غير المقصود وغير المعنى. تعتقد هذه الفئة فى حرية الإرادة وحرية الفعل، ولكن الأحداث المحددة ما هى إلا عمليات عرضية غير مقصودة Casual Determination. يوجد فئة أخرى تعتقد فى حرية الإرادة المتماشية والمتوافقة مع الأحداث العرضية الحتمية أى الأحداث غير المقصودة، وأن اختيارنا للفعل ناتج من تأثير الشخصية الفردية للإنسان، والتى تكونت على مدى مسيرته الحياتية من سلسلة التجارب التى مر بها وتفاعل معها.

ثانيا:

تتناول القضية الثانية عمليات وتفاعلات الحياة المختلفة، وهل يمكن تفسيرها من خلال القوانين الكونية (من طبيعة وكيمياء)، أو أن الخواص العضوية للحياة تميز وتحدد الظواهر والأمور الحياتية بصفة عامة بما لا يمكن تفسيرها. تشمل هذه العقيدة المذهب الحيوى Vitalism الذى يعتقد فى أن الحياة تستمد كينونتها من المبدأ الحيوى/ البيولوجى ولا تعتمد اعتمادًا كليًا على العمليات الفيزيائية والكيميائية، فالتميز واضح بين الكائنات الحية والجماد، فالنشاط والحيوية والعمل هو التميز ذاته فى المنظومة الكونية. من أصحاب المذهب الحيوى الفيلسوف البيولوجى الألمانى هانزدريش فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

ثالثا:

تنحصر القضية الثالثة فى السؤال المطروح بين أصحاب نظريات الطبيعة، فى إذا كانت قوانين الطبيعة، والتنبؤ بالظواهر الطبيعية تعتمد على مسببات

كونية، أو أن الظواهر الكونية الكبرى قد تكون ببساطة هى ناتج تجميع احتمالات الصدفة البحتة للحوادث الصغيرة التى تحدث فى الكون الفسيح والزمان اللامتناهى. يسمى هذا الرأى أحيانا بالنظرية الإحصائية فى القانون الطبيعى Statistical Theory of Natural low، والتى ترجع جميع الأحداث إلى الاحتمالات التى يمكن أن تحدث فى الكون.

وفى التاريخ الحديث، وبعد أن أصبحت الفلسفة علما أكاديميا يدرس فى الجامعات والمعاهد العلمية، فقد اتفق الأكاديميون على تحديد الفروع الرئيسية للمناهج الدراسية للفلسفة فى خمسة أفرع:

١- ما وراء الطبيعة / الغيبيات	Metaphysics
٢- نظريات المعرفة	Epistemology
٣- المنطق	Logic
٤- علم الأخلاق / الأخلاقيات	Ethics
٥- الفن الجمالى	Aesthetics

جرى جدل حول تصنيف الفن الجمالى كفرع من فروع الفلسفة، حيث ذهب بعض الفنانين إلى وضع الفن كجزء من علم النفس بدلا من تصنيفه فى مجال الفلسفة، التى تتعامل معه كانعكاس للقيم. جرى خلاف أيضاً بين الفلاسفة فيما بينهم، وجدل داخلى بين العلماء، لربط الفلسفة بالعلوم، ولكن اتفق الجميع على أنه يمكن اعتبار الفلسفة هى الإطار الذى يتحرك داخله مختلف العلوم بعمومية وليس بتفصيل أو بنظريات، أو معادلات رياضية.

١- ما وراء الطبيعة:

يمكن تقسيم موضوع ما وراء الطبيعة إلى علم الوجود Ontology الذى يختص بنظرية الطبيعة ذاتها، وطبيعة الحقائق والواقع، وإلى علم الكون Cosmology الذى يختص بالنظرية العامة لبناء الكون وتكوينه. اشتقت هذه

الكلمة فى اللغة الإنجليزية من الكلمة اليونانية Kosmos بمعنى "جمال السماء". أما علم الوجود فيتعامل مع الحقيقة بذاتها بصرف النظر عن الانطباع الشخصى، ومنظور الفرد الناتج من التجربة. أدخل هذا المصطلح فى الفلسفة فون وولف فى القرن الثامن عشر للتمييز بين الفلسفة الطبيعية التى تتعامل مع أصل وهيكل بناء العالم وطبيعة الأشياء، والفلسفة العقلية - أى علم النفس - والتى تتعامل مع العقل كمسئول على الفكر والسلوك. أما عن طبيعة الأشياء، فيختلف الشعور والإحساس بالشيء عن (ذات الشيء نفسه) الذى ينبه عن كونه ويشير إلى صفته وباحتمال توصيل الحقيقة إلى العقل، أو يظهر - الشيء - بصورة لا يستطيع العقل أن يتبين كنهه وحقيقته. كمثال لذلك: لون الشيء الظاهر للعين والذى لا يدل على أن هذا الشيء الذى نراه له ذات اللون، فالأشياء كلها ليس لها لون ولكن المادة لها خاصية امتصاص بعض ألوان الطيف وتعكس البعض الآخر الذى تراه العين، فيعطى إحساسًا خاطئًا بلون المادة - التى هى فى الواقع عديمة اللون. إن علم الوجود هو تساؤل تأملى عن ما إذا كانت الحقيقة هى كيان واحد مع تنويع ظاهرى وباد لنا، أو أنها كيانات متعددة ومختلفة.

إن السؤال الرئيسى فى علم الوجود ينصب على ما إذا كانت الأشياء الموجودة هى أساسيا شيء واحد، ونهائيا تعود إلى هذا الأساس. إذا كان الجواب بالإيجاب فما كنه هذا الشيء، أو هل يكون العقل كحقيقة Mental Reality، والطبيعة كحقيقة Physical Reality شيئين مختلفين، أو هما شيء واحد من منظور أن العقل هو الذى يخلق صورة الطبيعة.

يتعامل علم الوجود مع نظريات فلسفية عديدة ولكن أهمها ثلاث نظريات رئيسية وهى:

المادية Materialism

تعنى هذه النظرية فى الفلسفة أن الأشياء المادية التى تملأ فضاء الكون هى فقط الحقيقة المطلقة، أى أن أى شيء وكل شيء يتكون من المادة، أو ناتج من

المادة، وأن التشكيل المختلف للأشياء يحدث وفقًا لكون أصل المادة أو المواد، والتفاعلات أو المزج الذى قد يحدث لهذه المواد. وحيث إن كل شيء أصله مادى، فإن المادة هى السبب والمصدر الوحيد للأحداث وهى التى منها ومن خلالها يحدث التغيير. والإنسان فى المذهب المادى - مثل أى شيء آخر فى الكون - هو كيان فيزيائى بحت، وإن الزعم بأن الإنسان له روح وعقل ليس إلا خرافة صدقها الإنسان. تنسب حقيقة إمكان قيام الإنسان بأفعال مثل الكلام أو الاستدلال إلى مخه وجهازه العصبى العالى الارتقاء، ويحدث الموت عندما يتوقف الجسم - شاملا المخ - عن أداء وظائفه. لا توجد حياة أخرى بعد الموت - فى هذا المذهب - فيما يستمر فى البقاء هو الجزئيات المادية التى يتكون منها الجسم، والتى هى جزء من دورة عضوية فى منظومة كونية أساسها وطبيعتها المادة فقط.

المثالية Idealism

وتعنى أن العقل/ الروح هو الحقيقة المطلقة، وأن الأشياء الأخرى ما هى إلا أفكار تتشكل وتفسر فى العقل، أى أن الكينونة الموجودة هى فقط التى ترتبط بالعقل. فالمثالية هى مذهب تصور العالم المادى كخاضع إلى، أو متصل بالعقل والروح.

الثنائية Dualism

تذهب هذه النظرية إلى أن العقل والمادة هما فقط اللذان يكونان الحقيقة المطلقة، وأن أى منهما لا ينقص أو يجرد الآخر. إن الكون - فى هذه النظرية - قائم على الثنائيات مثل العقل والمادة، العالم الظاهر وعالم الحقيقة. برزت النظرية الثنائية من الفكر الشرقى القديم الذى كان يؤمن بوجود الخير/الشر، الأنانية/الإيثار، الشيطان/الملاك، باعتبار أن كل زوج منهما حقيقتان متلازمتان. كانت الثنائية شائعة فى تاريخ الأديان القديم، والفكر الفلسفى الأول. ربما تكون البداية هى التساؤل عن منبع الخير والشر.

هل الخير والشر أصليان؟.. إذا كان الشر ليس أصليًا ولا نهائيًا، ولكن هو فرع من الخير فهذه الحالة لا تعتبر ثنائية، لأن الثنائية تعترف فقط بوجود شيئين أصليين ولا تؤثر أحدهما على الآخر. خرجت من الثنائية مذهب التفاعلية Interactionism، الذى يرى أن العقل والجسم قادران على تبادل التأثير العلى، فإن ما يحدث فى العقل يؤثر فى حركة الجسم، وأن الحركة الجسدية، تحدث إحداثًا ذهنيًا.

يبرز سؤال رئيسى فى قضايا ما وراء الطبيعة خاص بطبيعة الفضاء والزمان، والعلاقة ما بين الزمان والمكان والذى بلورها أخيرًا العالم ألبرت أينشتين فى نظرية النسبية باعتبار الزمن بُعدًا رابعًا مع الأحداث الثلاثة الرئيسية (الطول/ العرض/ الارتفاع). كانت توجد ثلاث نظريات فلسفية تتعامل مع هذه العلاقة، منها أن الزمان والمكان هما كيانان مجردان فيهما توجد الأشياء وتجرى الأحداث، وكل القياسات تنسب إلى الامتداد المطلق للفضاء وأن الحدث ما هو إلا سريان للوقت. ثم جاءت النظرية النسبية لتغير المفاهيم بالنسبة لعلاقة الزمان بالمكان، فإذا تم اعتبار الزمن بُعدًا رابعًا ففى هذه الحالة يضيع مفهوم التسلسل الزمنى للأحداث، حيث يمكن من خلال نظرة شاملة - بزمن صفر - التعرف على جميع أحداث الكون من بدايته وحتى نهايته. يمكن تقريب هذا المفهوم، بتمثيل قوة من خارج الكون تأخذ صورًا متعاقبة ولا نهائية لأحداث الكون من بداية الخلق إلى النهاية، ثم ترصيص هذه الصور - الصورة بجوار الأخرى - مع بداية الأحداث / الخلق، إلى النهاية. فمن خلال نظرة لا وقتية - تؤول إلى الصفر - إلى هذه الصور يمكن معرفة جميع أحداث الكون دون أن يكون للزمن مدلول فعلى.

٢- نظرية المعرفة:

تتكون كلمة Epistemology من جزأين، الأول Episteme وهى كلمة يونانية الأصل بمعنى المعرفة، ثم Logia وتعنى المبحث أو النظرية، وعليه فنظرية المعرفة تتناول المعرفة من حيث تكوينها ومصادرها وأساليب

تحصيلها ثم التأكد من صدقها. فى هذا المضمار يظهر التساؤل الأول: هل من الممكن التسليم بوجود معرفة صحيحة لأى شىء/كل شىء؟

آثار أصحاب مذهب الشك هذه القضية، مشككين فى إمكانية الوصول إلى الحقيقة من خلال البحث والمعرفة.... وبفرض صحة السؤال الأول... وبفرض تجاوبنا مع أصحاب مذهب الشك - يتبادر إلى الذهن السؤال الثانى الأكثر تعقيداً: هل هذه المعرفة - كما يدعى البشر - تمتد لأشياء حقيقية و"قائمة بنفسها"، أو قاصرة على ظواهر تظهر لنا فى حدود الإدراك الحسى للبشر، وفى حدود معرفته؟

فى نظرية المعرفة، يُعرف الواقعيون Realists بهؤلاء الذين يذهبون إلى أن "الأشياء" كما نعرفها هى كما توجد فى الحقيقة، ولا تعتمد على عقولنا. أما أصحاب المذهب الظاهرى Phenomenalism فهم الذين يعتقدون فى أنه ليس بإمكاننا اكتساب المعرفة للواقع المطلق، ولكننا ما نعرفه هو فقط من خلال الإحساس الظاهر والبادى لنا، والمتمثل فى العقل، والمنقول إليه من خلال حواسنا، أو صورة ذهنية بحتة مثل الأحلام. كان السفسطائيون الإغريق هم أول من اعتنق مذهب الشك، أما فى العصور الحديثة فقد ظهر الفيلسوف الإسكتلندى دافيد هيوم فى القرن الثامن عشر واصفًا العالم بأنه صور ذهنية منتظمة ومتعاقبة، حتى عقلنا ما هو إلا مجموعة من الخيالات التى تتعاقب بسرعة فى حركة مستمرة حتى نهاية الجنس البشرى. شارك الفيلسوف الإنجليزى هوبرت سبنسر فى القرن التاسع عشر، الفيلسوف الألمانى إيمانويل كانط فى اعتناق المذهب الظاهرى.

كان كانط يعتقد أن "نقد العقل الخالص" Critique of Pure Reason يهدم كل النظريات الميتافيزيقية وكذلك النظريات اللاهوتية، بشرط أن يبنى النقد على أساس علمى. أما سبنسر فقد طور نظام فلسفى يتماشى مع "مبدأ المنفعة كهدف للإنسان للوصول إلى السعادة" والذى تبناه الفيلسوف الإنجليزى جيرمى بيتام فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، ومتماشيًا أيضًا مع

نظرية النشوء والتطور للعالم الإنجليزى تشالز داروين. كان سبنسر أول من صاغ تعبير "البقاء للأصلح" The Survival of the Fittest.

اتفق الواقعيون مع الظاهريين على وجود واقع مطلق Absolute Reality واختلفا فقط فى إمكان معرفة الطبيعة المطلقة. إذا كان المذهب المثالى يذهب إلى عدم وجود حقيقة خارج نطاق حدود العقل فإنه ينقسم إلى قسمين، الأول يرجع وظيفة المعرفة الحقة إلى العقل والأسباب، والثانى يعتقد فى أن الإدراك الحسى هو فقط أساس المعرفة وأن المعرفة كلها مستمدة من التجربة. اعتنق الاتجاه الأول الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت. والفيلسوف الهولندى باروخ اسبينوزا، أما الاتجاه الثانى فقد آمن به الفلاسفة البريطانيون جون لوك، وجورج بيركلى، وديفيد هيوم، أما كانط فقد كان يعتقد فى صواب الاتجاهين للوصول إلى المعرفة الحقة.

كان الاتجاه الفكرى فى القرن العشرين - خاصة عند البريطانيين والأمريكان - نحو تغطيته لجميع الأمور المتعلقة بنظريات المعرفة، وتلخيصها فى النقاط التالية:

- يوجد نوعين من المعرفة، الأول المعرفة التى تأتى من غير مرجع لحوادث معينة أو خبرات مسبقة أو ملاحظات حسية، والثانى المعرفة التجريبية القائمة على الملاحظة والإثبات.
- كل معارف العلوم الطبيعية تعتمد على الملاحظات الحسية لتأكيد صحتها، ولكن فى بعض العمليات الرياضية والمنطقية يمكن اكتساب المعرفة بدون الملاحظات الحسية.
- إن التأكيد النظرى للمعرفة لا يأتى إلا فى مجال العمليات الرياضية والمنطقية. ويمكن الوصول إلى درجة ثقة مقبولة وكافية - فى حالات الأغراض العامة - من خلال المعرفة العامة Common Knowledge للعالم الخارجى، وكذلك من خلال العلم الطبيعى بصفة عامة. أما التأكيد فلا يأتى إلا عن طريق التجربة العملية.

المنطـــق:

اشتق كلمة المنطق من النطق، وهو نوعان، الأول: نطق خارجى وهو اللفظ، والثانى: نطق داخلى وهو الفهم والإدراك. أصبحت كلمة "المنطق" فى الاستعمال الشائع مرادفة لعلم المنطق والتفكير العقلانى، أو الحدس والاستدلال. يعتبر الفيلسوف اليونانى أرسطو مؤسس علم المنطق، وأرسطو هو تلميذ الفيلسوف أفلاطون، ومعلم الفاتح المقدونى الإسكندر الأكبر. يختص علم المنطق بالعمليات الفكرية، والقوانين والشروط الضرورية للوصول إلى حكم سليم يقبله كل مفكر عادى. المنطق أيضًا فن يعلمنا كيفية التفكير لكى نميز ما بين خطأ الفكر وصوابه، وإلى محاولة الوصول إلى الحقيقة. المنطق ليس جزءًا من علم، وإنما هو علم مستقل بقوانينه ومبادئه، ومعيار ومنهج لكل العلوم.

كانت الفلسفة قديمًا تقوم فقط على التفكير المنطقى والتخمينات حول الأشياء المعنية بالبحث والمشكلات العامة والمواضيع الأخلاقية. لم يكن الفيلسوف يعتمد على الخبرة والمشاهدة، بل على التفكير المجرد والتأمل الباطنى دون أن يستند تحليله واستنتاجاته على الاختبار والقياس. أما فى الفلسفة الحديثة فإن الفكرة تتفاعل مع المشاهدة والقياس. إن تطور الحضارات عبر تاريخ الإنسان أدى إلى زيادة قدرات العقل، وتطور طرق تفكيره وتحليله للأمور وللمشكلات، فأصبح العقل الحر - المنطلق خارج قيود الأساطير والخرافات - يعتمد على التحليل الموضوعى والمنهجى دون أى تقيد بآراء السابقين. قامت ثورة العقل فى أوروبا فى القرن السابع عشر على مقولة الفيلسوف الهولندى باروخ اسبينوزا: (إذا غاب العقل ظهرت الخرافة، وإذا سادت الخرافة ضاع العقل).

يتعامل منهج المنطق مع قواعد الاستنتاج الصحيح والمواضيع المتعلقة به. يستخدم العقل البشرى عملية الاستنتاج/الاستدلال Inference لينتقل من قضية عامة يفترض صحتها إلى عملية أخرى جزئية مترتبة عليها. وينقسم منهج المنطق بصفة عامة إلى موضوعين رئيسين:

• المنطق الاستنباطى Detuctive Logic

يعرف المعجم الفلسفى الذى أصدره مجمع اللغة العربية المنطق الإستنباطى فى الفقرة التالية: (انتقال الذهن من قضية أو عدة قضايا هى المقدمات إلى قضية أخرى هى النتيجة وفق قواعد المنطق. وليس بلازم أن يكون انتقالا من العام إلى الخاص أو من الكلى إلى الجزئى - ومن أوضح صوره البرهنة الرياضية، وفيها انتقال من الشىء إلى مساويه، بل من الأخص إلى الأعم). تشير الموسوعة الفلسفية المختصرة إلى المضمون نفسه: (أحد مصطلحات المنطق، ويستخدم ليشير إلى البراهين التى إذا صدقت مقدماتها، فلا بد أن تصدق نتائجها بدورها من الوجهة المنطقية).

يتعامل المنطق الاستنباطى مع المجادلات التى يكون الغرض منها الشرح والإيضاح، وبحيث تكون المقدمة الأولية مطلوبة للوصول إلى النتيجة. فمثلا إذا كان الماس - فقط - هو الذى يستطيع أن يخدش الزجاج، فإذا كان حجر الخاتم الذى مع السيدة لا يخدش الزجاج، فإن هذا الحجر ليس مصنوعًا من الماس.

• المنطق الاستقرائى Inductive Logic

تعرف موسوعة علم النفس والتحليل النفسى المنطق الاستقرائى فى: (هو حكم على الكل أو العام من الحكم على مجموع الأجزاء المتضمنة فيه، وذلك التام باعتبار هذا الحكم قائمًا فى كل جزء من الأجزاء، وهذا يسمى الاستقراء التام، أو باعتبار الحكم منسحبًا على معظم الأجزاء ويسمى الاستقراء المشهور

أو الناقص. وهو أسلوب البحث العلمى فى الوصـول إلى الحقيقة، فهو يبدأ باستقصـاء الجزئيات مـتدلا منهـا على الحكم الكلى الذى نـتخلـصه بطريقة علمية ومنهجية خاصة، ذلك أنه من المستحيل واقعيا أن نـتقصى كليا جميع مـفردات الـكل فـى جمـيع الأحـوال، وتحت كـل الظـروف، ولذلك فـإن الاسـتـقصـاء الكلى أو الـتام أمر صعب، إن لـم يكن فى بعض الحالات غـير ممكن، ولذلك يـسـمى بالاستقراء الصـورى. . . وهكذا فإن الاسـتقـراء بصفة عامة هو عمـلـية منطقية تمكننا مـن استخراج مبادئ عامـة أو أحكام عامة من فحص أو قراءة حالات جزئية).

لا تتأكد النتيـجة فى المنطق الاستقرائى من المقدمـات أو الحقائق الأولية. فمثلا قد تجد الشـرطة أداة القتل مع المشتبه فيه، وأن المشـتبـه فيه قد يكون قد تعارك من قبل مع المجنى عليه، ولكن ما زال يـوجد احتمال ألا يكون المشتبه فيه هو الجانى. يؤكـد الشكل الاسـتنباطى للاسـتنتاج علـى أن درجة المصداقية العقلانيـة تضـاهى درجـة المقدمـات المنطقيـــة، وبالتالى تتأكـد النتيجة كيقين لا شك فيه، إذا كانت المقـدمة المنطقية مؤكدة فيهـا ولا تدعو للشك. تعرف المقدمة المنطقية Premise كما جاء فى موسوعة علم النفس والتحليل النفـسى: (افتراض عقلى تبنى على أساسه استنتاجات منطقية تلزم عنه. وقد يكون هذا الافتراض قولا موجـبا مثل إسناد حكم إلى شىء أو فرد أو قـولا سالبًا لحكم عن شىء أو فرد، كما قد يكون حكمًا كليًا على جميع أفراد النوع، أو جزئيًا على عدد منهم، سـواء بالإيجاب أو بالسـلـب).

بدأ التطور الـتنظيمى والتصـنيفى Systematic Development للمنطق الاسـتـنباطى بـواسطة الفـيلـسوف الإغـريقى أرسطو، ثـم بعد ذلك بـواسطة الرواقيـن Stoics وعلى رأسهـم الفيلـسوف الإغريقى زينون عام ٣٠٠ ق.م. ذهب الرواقيون إلى أن الإنسان الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال، ولا يتأثر بالفرح أو الترح وأن يخضع بدون تذمر لحكم الضرورة القاهرة. اشـتقت كلمة

رزين Stoical من المعنى السابق شرحه للإنسان المتوازن نفسيا فى كل من حالات السعادة أو التعاسة، فالظروف/ الصدفة قد تحتم موقفًا قد لا يستطيع الإنسان أن يغيره، ومن ثم يجب على الإنسان أن يرضى ويقنع بالواقع القائم، بدأ فلاسفة العصور الوسطى - ثم انتشر فى العصور الحديثة - تقديم وتطبيق المنطق الاستنباطى/ الاستنتاجى/ الاستدلالى فى العلوم بصفة عامة، خاصة العلوم الرياضية والإحصائية.

علم الأخلاق

يرتبط علم الأخلاق - بصفة عامة - بمعايير السلوك البشرى التى يتحدد من خلالها الرضا والقبول عن موقف معين أو رفضه، احترامه أو إدانته. ترى هذه المعايير على المجتمع لتشكل ميثاقًا شرفيًا يحاول الجميع الالتزام به، ويعتبر من يشذ عليه خارجًا عن العرف السائد فى المجتمع. ربما أيضا تنطبق بعض من هذه المعايير على بعض الممارسات المهنية لمجموعة معينة من المجتمع. وتعتبر كلمة Moralis هى الأصل اللاتينى لكلمة "أخلاق"، وقد صاغ السياسى والخطيب الرومانى القديم شيشرون ترجمة للكلمة اليونانية mores بمعنى عادات.

تتلخص القضية الأولى للأخلاق فى التساؤل التالى: هل توجد أرضية صلدة لتأكيد توصيل معنى الصواب والخطأ، أو هل توجد أساسيات وقيم مطلقة للسلوك السليم؟

ذهب الكلبيون Cynics أتباع الفيلسوف الإغريقى سقراط فى القرن الرابع قبل الميلاد إلى أن الفضيلة Virtue هى الخير الأوحد، وهى أقصى درجات السلوك، وأن جوهرها ضبط النفس، وأنه من السخرية والتشائم أن يعتقد البعض أن المصالح الفردية/ الشخصية هى وحدها التى تهيمن وتوجه السلوك الإنسانى.

فى نظرية الأخلاق يتساءل الفلاسفة أولا عن كيفية تحديد الفعل الصحيح، ثانيا عن نهاية هذا الفعل أو بأكثر تحديدا: ما هو الخير الأسمى Summum Bonum الذى ينسب اليه، أو يحدد طبيعة الفعل، وإذا كان صواب أو خطأ. أيضًا تتناول النظريات الأخلاقية قضية: الإيثار وحب الآخر والتضحية فى سبيل المجتمع Altruism، مقابل الأنانية وحب الذات Egoism وإشباع الشهوات والسعى وراء الحصول على الاحتياجات الفردية وتحقيق السعادة الشخصية واللذة الجسدية. دافع عن مبدأ أنانية الجنس البشرى المفكر الإنجليزى جيرمى بيتام - فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - الذى كان يعتقد فى أن البشر بطبيعتهم النفسية وتكوينهم الجينى/الغريزى يسعون دائمًا لتحقيق مصالحهم الشخصية.

يمكن تقسيم النظريات الأخلاقية طبقًا للدافع أو السبب الذى يفرض السلوك الأخلاقى ويفرق بين الصواب والخطأ إلى:

* العقيدة الدينية / الخضوع لإرادة الرب Authoritarian Theory

وفيها يلتزم الفرد بالشرائع السماوية والقوانين المنصوص عليها فى الكتب المقدسة، فما أباحه الكتاب المقدس المنزل من السماء هو الصواب، وما حرم علينا فهو الإثم والخطيئة.

* المذهب العقلانى / المنطقى Rationalistic Theory

تقر هذه النظرية أن العقل هو فقط الحكم والفيصل فى تعريف الصواب والخطأ، وهو الموجه لسلوك الفرد والمحرك لأفعاله والدافع لأعماله.

* المذهب الحدسى Intuitionism

تذهب هذه النظرية إلى أن القيم والواجبات الأخلاقية يمكن إدراكها بالبداهة والحس العام Common Sense، "فالصواب بيِّن والخطأ بيِّن" دون إجهاد النفس أو العقل فى الرجوع إلى الكتب السماوية أو إلى احتكام العقل والمنطق. أيضا يؤمن هذا المذهب بالأخلاق الفطرية، وأن القيم والواجبات الأخلاقية يمكن إدراكها بالبداهة.

* النظرية الانفعالية / العاطفية Emotive Theory

هو تملك الشعور (فقط دون العقل) بأن السلوك الأخلاقى هو سلوك مستحسن من الفرد ذاته - لإشباع رغبة داخلية، أو مستحسن من المجتمع، مما يعود على الفرد بعائد أو فائدة على المدى القريب أو المدى البعيد، حتى لو كانت هذه الفائدة لا تتعدى الإرضاء والارتياح الذاتى.

توجد مذاهب أخرى من الصعب تصنيفها فى النظريات السابقة مثل ما ذهب إليه المفكر البريطانى جون ستيوارت مل فى أن إدراك المفاهيم الأخلاقية ينبع من مبدأ الألم/اللذة، ولكن أيضًا يتجه الفرد نحو السلوك الأخلاقى مع الآخرين كنتيجة للتفكير العقلانى الرشيد الذى يقنع صاحبه باتخاذ المسلك الأخلاقى الذى من خلاله يستطيع أن يتعايش مع المجتمع ويستفيد منه. أما إذا نسبنا النظريات الأخلاقية إلى معيار الخير الأسمى، فإن التصنيف يأخذ مجرى آخر فى اتجاه التقسيمين التاليين:

* مذهب المتعة Hedonism

الذى يذهب إلى أن اللذة هى الخير الأوحد والأسمى، كما أنها هى الهدف الرئيسى للحياة. تحت هذا التصنيف أيضًا يقع مذهب السعى نحو تحقيق السعادة Eudaemonism الذى يذهب إلى أن التماس السعادة هى أساس السلوك الأخلاقى ومحكا لها. فى كثير من الأحيان يترادف المذهبان: اللذة / السعادة، ولكن أيضًا قد لا تعنى السعادة الحصول على اللذة.

* مذهب الكمال Perfectionism

الذى يذهب إلى أن الارتفاع بالخلق إلى مرتبة الكمال هو أسمى الغايات الأخلاقية، وأنه فى الإمكان التحرر من الآثام والخطايا التى يقترفها الإنسان فى الحياة الدنيا برفض كل ما دون مرتبة الكمال فى السلوك الأخلاقى. اعتنق الفيلسوف الألمانى كانط فكرة اندماج السعادة مع الكمال، فمن أجل الوصول إلى نهاية الخير أو ما يسمى بالخير الأسمى والأعلى يجب أن يغمر الإنسان

الشعور بالسعادة خلال رحلته للوصول إلى الكمال ليعيش الإنسان حياته بالسعادة مع الكمال. يعنى الكمال فى الأخلاق، المبادئ العامة التى تعتبر أساساً للأخلاق كغاية فى ذاتها والتى ينبغى أن يكون السلوك الإنسانى نابعًا منها ومستهديًا بمعاييرها. أما فى الفن فالكمال يعنى ذاتية الفن النائى عن المحاكاة والتقليد، والهادف إلى النزعة الجمالية والتعبيرية، والجامع للمضمون مع الإبداع.

كانت أكثر النظريات الأخلاقية تأثيرًا فى النصف الأول من القرن العشرين هى نظرية الحدسية Intuitionism المرتبطة باسم جى مور، وبريشارد، والنظرية العاطفية/الانفعالية Emotivism التى كان المتحدث الرسمى عنها هو ستيفنسون، ونظرية الفرضيات المسبقة Prescriptivism والتى كان المدافع الرئيسى عنها هو آهار. على الرغم من وجود فروق كثيرة بين هذه المذاهب، إلا أنها تنطلق من المبحث الأخلاقى، ولها طابع أخلاقى ميتافيزيقى Meta-Ethical. إن الهدف الأساسى من هذه النظريات هو إجراء الأبحاث بغرض التوصل إلى مجمل القواعد المنطقية التى تحكم استخدام التعبيرات الأخلاقية فى أى مذهب أخلاقى. أما نظريات الأخلاق المعيارية Normative Ethics فهى تبحث فى مضمون الأخلاقيات، وغاياتها وفضائلها ورذائلها ومبادئها، وتبحث فى الكيفية التى يمكن أن تتآلف بها المتطلبات الأخلاقية أو تتصارع، كما تبحث فى كيفية توضيح الصراع الأخلاقى وأسلوب الوصول إلى حل هذا الصراع.

انطلق فى النصف الثانى من القرن العشرين مذهب المنفعة Utilitarianism الذى كان مصدرًا للتأملات الأخلاقية. لم تتمكن الفلسفة، مع النظريات الاقتصادية أن تحدد بدقة عالية معنى القيمة Value. لم يغن تحليل وتحديد "القيمة" الأخذ بفلسفة تحليل التكلفة/العائد Cost /Benefit Analysis التى مهما كانت أوجه القصور التى تشوبها، إلا أنها تطرح طريقة لتحويل القيم الغير كمية إلى قيم كمية.

صدر فى الربع الأخير من القرن العشرين بحث للفيلسوف سيدجويك عن مناهج الأخلاق The Methods of Fthics، كمحاولة للمزج ما بين مذهب المنفعة والمذهب الحدسى Intuitionism الذى يؤمن بالأخلاق الفطرية. خلص البحث إلى فقدان الثقة فى الأحكام القائمة على الفطرة أو الحس العام الفطرى Common Sense، مع إعطاء قدر أعظم من التقدير لأخلاقيات نهاية الألفية الثانية القائمة فى معظمها على التعددية الأخلاقية.

٥- علم الفن الجمالى

جرى الكثير من الجدل حول المدى الذى يعتبر فيه علم الفن الجمالى فرع من أفرع الفلسفة، ولكن يمكن للفلسفة تناول الموضوع من منظور تقدير قيمة الشيء من حيث جماله أو سوئه، أو إلى أى مدى يتأهل الموضوع للمكافأة والتقدير والاستحسان، أو للشجب والنقد والاستنكار. تنوعت وتعقدت نظريات تناول علم الجمال فى الفلسفة، ولم تأخذ النظريات شكلاً ملموساً وراسخًا على مدى القرون الطويلة لملعب الفلسفة. يذهب الفلاسفة إلى أن الجمال هو: رضاء/ إعجاب/ قبول/ جاذبية شخصية تختلف من فرد لآخر وفقًا للحالة الشخصية الفردية، وللحالة النفسية للفرد وقت تقييم الموضوع. تشترك الثقافة العامة للمجتمع أيضًا مع الشخصية الفردية فى وضع معايير ومقاييس للشكل الجمالى.

إن المصطلحات التى تستخدم فى إيجاد معنى للقيمة الجمالية والأخلاقية يصعب تفسير معناها بخلاف المجالات الأخرى التى تفهم فيها معنى القيمة بشكل صحيح ودقيق، مثل الاقتصاد، والتكنولوجيا، والقانون، والمنطق. شرح أوليفرليمان فى كتابه "مستقبل الفلسفة فى القرن الواحد والعشرين" غموض استخدام مصطلح القيمة فى النواحى الجمالية: (مصطلح قيمة Value فى حد ذاته هو أحد المصطلحات الذى يمكن أن نوظفه بشكل مختلف. فربما ينقل قيمة شيء أساسى أو ترتيب قيمى. فالقيمة الاقتصادية عادة ما نفكر فيها بهذه الطريقة الكمية، وربما تنسب القيمة. فنحن نصف

فعل شخص ما على أنه فعل "شجاع" أو قطعة موسيقية على أنها "شجية". ومن ناحية الفلسفة القيمية Axiologically - الإكسيولوجى هو فرع الفلسفة الذى يتعامل مع القيم مثل القيم الأخلاقية والجمالية والمنطقية -، ويمكن أن يقال أن قيمة "الإجازة" (العطلة) تكمن فى "التحرر من الروتين"، أو إن قيمة الزواج فى "الصحبة" وجدير بالذكر أنه على الرغم من الاتفاق بشكل عام على أن الشيء إذا انفصل عن سماته الجمالية لا يكون له قيمة عملية، إلا أن بعض ردود الأفعال (العاطفية) التى تتجمع من خبرتنا من الكثير من "الفنون التمثيلية" قد تشكل نوعًا من التعليم الأخلاقى، والحقيقة هى أن العمل الفنى الذى يمتلك هذه القوة، يصدق أو يشهد على المهارة الموظفة فى تصميمه، فتصوير شخصية ما أو تمثيلها يمكن أن يصنع نوعًا من الوهم يكون نجاحه مسجلا فى المقابل بين رد فعلنا تجاهه والحقيقة التى يمثلها. وهكذا، فمع التأثير التحذيرى الذى تبذله فلسفة العقل، فإن المقارنات بين الخبرة الأخلاقية والخبرة التقديرية للفن، يمكن أن تكشف عن مصدر التنوير المتبادل).

كان مفهوم الفيلسوف الإسكتلندى دافيد هيوم للجمال من منظور اللذة: (لو تأملنا جميع الفروض التى وضعت لتفسير الفرق بين الجمال والقبح، لوجدناها كلها تنحل إلى أن الجمال نظام تركيب للأجزاء، مهيأ لإعطاء اللذة والرضى النفسى، أما بسبب التكوين الفطرى لطبائعنا، أو بسبب العرف، أو بسبب النزوة العارضة... فاللذة والألم إذًا ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح، ولكنهما يكونان جوهرهما ذاته؟ ... وما الجمال إلا شكل يحدث اللذة، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم).

من منظور آخر ومن أجل التوفيق بين الفن والأخلاق، كتب الفيلسوف الأمريكى جون ديوى: (لو أن الفن نظر إليه كقوة معترف بها فى الجماعة الإنسانية، بدلا من أن يعامل كوسيلة للترفيه والإمتاع فى بعض اللحظات، وكوسيلة للعروض المظهرية، ولو أن الأخلاق قد فهمت على أنها متماثلة هى

وأى جانب من جوانب القيمة التى تشارك فى التجربة، لما وجدت مشكلة خاصة بالعلاقة بين الفن والأخلاق). إن الفن جزء من ثقافة أى حضارة، لا يعرف التنبؤ والتخطيط والإحصائيات، ولا يتبع القواعد والمواعظ والتعليمات، هو فقط نبض إحساس ومشاعر المجتمع نحو البيئة، ونتيجة لتفاعلات عناصر المجتمع: الفردية والجماعية.

المذاهب والنظريات الفلسفية

حرية الإرادة والحتمية Free Well and Determinism

فكران مختلفان ومتضادان فى الفلسفة، معنيان بأصل الأحداث والسلوك البشرى. بالنسبة للحتميين أو الجبريين Necessitarian فإن أى حدث هو حادث وأى شىء قائم هو موجود بالضرورة وليس فى الإمكان تجنبه Inevitable أو منع حدوثه، فالحدث ناتج من أسباب/علل، أو ناتج من أصل مجرد Abstract Principle، ولا يمكن أن يكون غير ما هو عليه، ولا يمكن أن يحدث غير ما يحدث. أما بالنسبة لليبراليين Libertarian أصحاب مذهب حرية الإرادة، فإن الفعل الإنسانى هو فعل مستقل بذاته، وناتج من أسباب أو عوامل داخلية تخص الذات الفردية، ويحدث هذا الفعل نتيجة اختيار إرادى بحت من عدة اختيارات تتشكل أمام الفرد من تفاعل شخصيته والخبرات المكتسبة من البيئة والمجتمع الذى يحيا فيه.

إن الجبرية التى تحدد مصير العالم وتسير أحداثه - فى كثير من الفكر الشرقى القديم والحديث وفى الفكر الإغريقى القديم، وفى المعتقدات اللاهوتية الغربية - هى قدر مبهم وغامض بالنسبة للبشر، أو هى إرادة الإله الخالق. وعليه فليس فى قدرة الإنسان فهم وإدراك عناصر ومظاهر الكون أو التحكم فيه وإدارته، فالقدر وحده (القدرية Fatalism) هو الذى يسير الكون ويشكل أحداثه. تقوم قواعد الحتمية فى الفلسفة الغربية على أسباب وعلل

وافية وكافية، يمكن أن تفسر سبب حدوث الحدث، وعليه فإنه يوجد فى هذا العالم إدارة عقلانية، وإلى حد ما يستطيع الإنسان بتفكيره العقلانى المشاركة فى هذه الإدارة. وبذلك تكون الفلسفة الحتمية فى الثقافة الغربية قد طورت نظرية الحتمية القدرية من المفهوم الشرقى إلى حتمية راجعة إلى مصدرين: الأول من أسباب خارجية Extrinsic نابعة من الظروف المحيطة، والثانى أسباب ذاتية Intrinsic من داخل ذات الإنسان.

من منظور الاتفاق والاختلاف بين الحتمية والجبرية، كتبت الدكتورة يمنى الخولى فى كتاب "العلم والاغتراب والحرية": (إن الحتمية تطوير للجبرية، غير أنه تطوير جوهرى يجعلها تفترق عنها افتراقًا بيّنًا. . .، فالجبرية تعنى أن ما يحدث قد قدر أزلا وكان حدوثه محتومًا، غير أنها نتيجة للقول بقدرة الله على كل شيء، وإحاطته علمًا بالأشياء كلها، ومعنى هذا أن ما يحدث إنما يحدث وفقًا لإرادة الله، وأن المستقبل إذا كان داخلا فى علمه تعالى، كان حدوثه بحسب علمه واجبًا. الجبرية إذًا تعلق ضرورة حدوث الأشياء على مبدأ أعلى منها يسيرها. إنها ضرورة متعالية، والكون نظام مفتوح عليها، على الله، أما الضرورة فى الحتمية العلمية، فكامنة فى قلب الأشياء السارية فيها، وهى الطبيعة ذاتها، فالكون نظام مغلق على نفسه مستكف بعلله الداخلية. لذلك فأحداثه حتمية، لا بالنسبة لأمر خارق للطبيعة، بل بالنسبة للطبيعة ذاتها ولقوانينها الفيزيائية، وهذه القوانين وإن كانت لا تقل فى صرامتها عن المصير الجبرى، فإنها عمياء لا تستجيب لدعاء ولا تحابى الناس أو تكرههم. . . وبينما تجعل الجبرية المستقبل هو الذى يحتم الماضى عن طريق الغاية، تجعل الحتمية الماضى هو الذى يحتم المستقبل عن طريق العلة، . . . إن الحتمية مبدأ عقلانى أولا وأخيرا، ولن تتفق معه أية محاولة لشرح الظواهر الفيزيقية بردها إلى العناية الإلهية والأرواح المبرأة من الأجسام، لأن طبيعة هذه الكيانات - التى قد تتسع للجبرية - ليست محددة بما يكفى لاستنباط نتائج تجريبية منها. هذا التحديد المطلق الذى تشترطه الحتمية ينتفى مع

الجبرية، فالإرادة الإلهية مثلا يمكن أن تفسر كل شيء سواء حدث بهذه الطريقة أو تلك، بحتمية أو بلا حتمية. الحتمية العلمية بهذا تستبعد الأشباح والقوى السحرية والتأثيرات الفائقة للطبيعة، لتعنى أن كل الظواهر الطبيعية تعتمد فقط على شروط مادية، وأنها أيضًا لتنكر على هذا الكون العواطف والخيالات والأفكار، وكل الأحداث العقلية البحتة وكل ما هو لا مادى، وجميعها كيانات يسهل استنباطها من الجبرية).

تشكل العلية Causality محور الخلاف بين الجبرية والحتمية، والعلية، كما عرفتها د. يمنى الخولى فى المرجع السابق: (يعنى أن كل حادثة أو ظاهرة فى الكون لها علة أحدثتها، ولكل علة معلول ينشأ عنها. حوادث هذا الكون تسير فى تسلسل علِّى. كل ظاهرة علة للظاهرة التى تليها، ومعلول للظاهرة التى سبقتها والعلة توجب معلولها، أى أن حدوث العلل ذاتها يوجب حدوث المعلولات والنتائج ذاتها وبهذا تكون الضرورة محيطة بالأشياء كلها، والأحداث تحدث فى أنماط منتظمة. يمكن صياغتها فى قوانين. وعلى أساس من هذه القوانين ومن العلل الفعلية، يمكن وضع تنبؤاتنا، هو فقط نقص معرفتنا بالعلل والقوانين). إذا كانت العلية هى عملية تسلسل من الماضى إلى الحاضر، ثم إلى المستقبل، فهى ترفض النظرية الغائية التى تذهب إلى أن الغاية المستقبلية هى التى تحتم الماضى، ولكن كل من المذهبين - الغائى والحتمى - يتوصلا إلى نفس النتيجة بتحديد الحدث ورفض احتمالية الأحداث.

ذهب الحتميون إلى وجود نوعين للحتمية الداخلية وهما الحتمية المنطقية العقلانية، وحتمية علم الوجود ونشوء الكون وهو خاص - فقط - بالرب الخالق. يتشكل النوع الأول من أصحاب الفلسفة الرواقية معتنقى مذهب قبول حكم الضرورة القاهرة، والحقيقة البديهية Truism، وبأن (ما سيكون سوف يكون) (What will be will be)، يضيف الفلاسفة المتدينون إلى الجملة السابقة: (الخالق دائمًا يعلم ما سيكون). يعتبر النوع الآخر من الحتمية

الداخلية خاص بعلم الوجود، وتأكيد وجود الخالق كما يؤكد على أن الخالق هو الكمال المطلق، وهو السبب الأصل فى حتمية جميع الأحداث. أما بالنسبة للحتمية العارضة / غير الجوهرية فهى تقوم على قاعدة: إن كل شىء أو أى حدث، له سبب مختلف عن ذاته. وحيث إن الأسباب المتشابهة لها تأثيرات متشابهة فإنها تؤدى إلى انتظام وتناسق فى الطبيعة، كما تؤدى إلى نشوء القوانين الطبيعية (Lows of Nature).

غالبًا ما يسلم الفلاسفة بمذهب الأسباب الغائية Final/Teleogical والتى ترجع الأسباب الى الوصول إلى غاية نهائية من أجلها هى قائمة وموجودة. عادة ما يسمى النوع الثانى من الحتمية بالحتمية السببية، والتى تفسر فى صورتها المثالية تنظيمات لعناصر مختلفة تشكل بها القوانين الطبيعية، أى أنها شكل من أشكال الآلية الطبيعية Natural Mechanism. فى المذهب الآلى يتشبه الإنسان بالآلة التى تتحرك بآلية من خلال نظام حتمى، محدد بدايته ونهايته، أو كما قال الفيلسوف الرياضى لبلاس: إذا وجد إنسان له عقلية رياضية مذهلة وتعرف على مكونات الكون والحدث الأول فى الخلق فإنه يستطيع معرفة جميع الأحداث اللاحقة حتى النهاية.

لم يتأثر إيمان أصحاب مذهب الحتمية الصرفية بوجهة نظر الفيلسوف دافيد هيوم عن طبيعة السببية، أى أن لكل سبب مسببًا ولكل مسبب سببًا، بينما وافق معظم فلاسفة العلوم على مقولة هيوم بأن القانون العام لطبيعة المنظومة الكونية غير قابل للتطبيق فى جميع الظروف أو لكل الحالات، وأنه غير حاسم وخاضع للاختيارية من خلال التجربة. بالإضافة على ذلك، فقد دافع هيوم بحماس عن وجهة نظره مجادلا بأن الحتمية السببية يمكن تطبيقها أيضًا على المنظومة البشرية كسلوك. ذهب علماء الفيزياء، معتنقى نظريات اللاحتمية، بأنه لا يوجد فى الكون أى منظومة تتبع التناسق التام أو الانتظام الكامل، ولكن كل شىء خاضع للتقريب أو إلى قوانين الإحصاء الاحتمالية. زاد هذا الاعتقاد بعد ظهور نظرية الكم Quantum Theory فى الفيزياء

النووية فى بدايات القرن العشرين، والتى تنص على أن انبعاثات الطاقة أو امتصاصها من قبل الذرات أو الجزيئات لا تتم على نحو متواصل ولا على نحو متماثل، ولكن على مراحل وعلى شكل كمات Quanta غير متماثلة زمنيا، يشوبها العشوائية Randomness وتخضع للنظريات الاحتمالية Probabilistic Theories.

ينبع اقتناع كثير من البشر بحرية الفعل والإرادة والاستقلال الذاتى من مصادر عديدة ومختلفة، يعتبر الدين واحدًا من أهم المصادر الرئيسية للتحرر من أغلال الحتمية المقيدة لحرية الإنسان فى الاختيار. فإذا لم يكن الإنسان حرًا فى اختياره، وإرادته، فليس من المنطقى أن يحاسب فى الآخرة.

تنادى الفلسفة الوجودية أيضًا بالحجة البديهية والرئيسية لفلسفة الإرادة الحرة فى أن: إذا لم يكن للإنسان حرية الاختيار الحقيقى والفعلى، فإنه لن يكون له حرية الفعل/ رد الفعل المختلف والمتنوع فى الظروف المشابهة والمتماثلة، وبذلك يجب الا يخضع الإنسان للتأنيب، أو المديح والإطراء، أو أن يقاسى من تأنيب الضمير والندم Remorse، أو اتهامه بالخف والحمق. لن نستطيع فى هذه الحالة اتهام أحد بأنه وغد Scoundrel أو غير أخلاقى، أو معاقبة أى انسان عن فعل خارج أو عمل غير رشيد، أو الاتهام بالإجرام والعدوانية.

أثار الليراليون سؤالين أساسين فى الأطروحة السابقة:

* هل الحتمية حقًا تتعارض مع المسئولية الأخلاقية؟

إذا كان الجواب بنعم يظهر السؤال الثانى:

* أليس من الأجدى أن نتخلى عن الحتمية بدلا من عدم الاقتناع بالمبادئ الأخلاقية؟

تنكر الحتمية الصارمة Hard Determinism مسئولية البشر على تطبيق أو عدم تطبيق المبادئ الأخلاقية، وأن المجتمع جدير باللوم إن اعتبر

المجرمين ملومين. ولكن من وجهة نظر أخرى، إذا كان الخطأ حتمى فعقاب المخطئ يجب أن يكون أيضًا حتميًا. من جهة أخرى نادى بعض الفلاسفة والمفكرين بما يسمى بالحتمية اللينة Soft Determinism، أى بتخفيف جمود الحتمية الصارمة فيما يتعلق بعدم مسئولية البشر عن المبادئ الأخلاقية والوجدان العاطفى، فالحتمية قائمة ولكن يتحمل البشر جزءاً من المسئولية تجاه العواطف والقيم الأخلاقية. كان ما تنادى به الحتمية اللينة هى بديهيات الفلسفة الرواقية والتى اعتنقها بعد ذلك بعض مفكرى وفلاسفة النهضة الأوربية مثل الفيلسوف الهولندى باروخ اسبينوزا، وأصحاب الهيجلية المثالية الجديدة، ومفكرين آخرين أمثال: لوك، وهوبز، وهيوم، وستيورات مل، وشبنهاور. أكدت الحتمية اللينة على حتمية احتياج الإنسان إلى المبادئ الأخلاقية، حتى يحتم على البشر تطبيق التعليمات التى فيها صالح البشر، وانتهاج السلوك الأخلاقى، وحتى يمكن تفعيل العقوبات المؤثرة لما فيه صالح المجتمع.

من أجل تضييق الهوة بين الحتمية وحرية الإرادة، حاول الفيلسوف الألمانى كانط التوفيق بينهما باقتراح فكر جديد وهو أن الإنسان مرتبط بـ، ويتعرض إلى كلا من:

* نوع ما من الظواهر الطبيعية التى لها صفة الحتمية.
* نوع ما من الأخلاقيات يكون للإنسان فيها خالص الحرية فى الاختيار والفعل.

يذهب بعض آخر من المفكرين إلى أن هذا الجدل فى الوصول إلى أحقية الحتمية أو الإرادة الحرة، أو معرفة أيهما على صواب أو على خطأ، هو خلاف لا معنى له وغير قابل للحل أو التوفيق. إن المنظومة البشرية قائمة على الاختلاف والتباين فى كل شىء مما يحتم وجود آراء مختلفة، ونظريات متعددة، ومذاهب شتى حتى تتوالد الإثارة، فيقضى الإنسان على بعض من الملل الذى يعيش فيه.

القدرية Fatalism

تختص القدرية بأمور تعاملات البشر مع المواقف وتقبلها للأحداث، كما ترتبط بفلسفة تسوغ موقف الإنسان مع هذه الأحداث وتحاول تبريرها وإثباتها من مفهوم أن جميع الأحداث الحادثة، وجميع الظواهر الطبيعية والكونية، وجميع سلوك الإنسان وأفكاره، وجميع أفعال باقى الكائنات، نابعة من قوة خارجية، خارقة القوة إلى درجة اللانهائية بالنسبة لمفهومنا نحن البشر. تذهب القدرية إلى فكرة أن الإنسان ما كان يستطيع أن يمنع حدوث ما حدث ولا يستطيع منع ما سوف يحدث وليس فى إمكانه أن يغير ما سيكون، وليس على الإنسان إلا أن يرضى بما حدث وبما سيكون. إنه القدر، أو القسمة والنصيب فى اللغة العربية/المصرية الذى يحدد مسيرة الإنسان وباقى المخلوقات الحية وغير الحية. مجازيا يمكن أن نعزو القدرية - إلى حد ما - إلى الصدفة، أو حدوث حدث بدون سبب، أو حدوث اضطراب مجهول سببه وغير منتظر وقوعه، ولكن لا تزال هذه القوة اللانهائية وراء الصدفة أيضًا.

تنتشر القدرية بكثرة فى الفلسفات الشرقية القديمة، وفى ثقافتها القديمة منها والحديثة. لم ينقطع قبول فكرة القدرية فى المنظومة البشرية - بصفة عامة - لأنها تخفف من الضغوط النفسية التى يتعرض لها الإنسان فى مسيرته الحياتية، فما سيكون سوف يكون دون أن يستطيع الإنسان منعه أو تغييره، لذا لا داعى للقلق ما دام قدر الإنسان أن يعيش مع أمور محتومة وأحداث معينة.

تتضمن الأديان الكثير من الفكر القدرى، فالإله عالم بكل شيء، وفى يده حكم كل الأمور، وهو القوة العظمى التى تستطيع أن تسير الأحداث حسب مشيئته ووفقًا لإرادته فهو الخالق الذى بيده كل شيء، والقادر على فعل أى شيء، هو الذى يحيى ويميت، يحاسب ويعفو. أيضًا يشجع المنجمون الاتجاه القدرى (فالقدر منقوش فى الفنجان وظاهر فى خطوط الكف

وواضح فى ترتيبات النجوم)، ولكنهم أيضًا ينكرونه ويراوغون فى صحته عندما لا يتحقق ما يتنبئون به. إن الإنسان بغريزته الأنانية يتقبل الأفكار التى تتماشى مع مصلحته وفائدته الشخصية، ويعتنق المذهب الذى يتوافق مع شخصيته وتكوينه الجسدى والنفسى.

الوجودية Existentialism

تعتبر الوجودية فلسفة، وحركة ثقافية تعود إلى السقراطية القديمة، ولكنها برزت مرة ثانية وتطورت فى القرنين التاسع عشر والعشرين. يعتبر الفيلسوف الدنماركى كيركجور فى القرن التاسع عشر هو مؤسس الوجودية الحديثة التى تأثرت بالانفتاح الفكرى ومناخ الحرية الذى ساد أوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. هاجم كيركجور النظام اللاهوتى كمصدر للسلطة العقائدية التى تبرر هروب الإنسان من المسئولية الذاتية. رجع جان فال فى كتاب "نصوص مختارة من التراث الوجودى" بالتاريخ قليلا إلى ما قبل كيركجور: (نستطيع أن نرجع تاريخ فلسفة الوجود إلى فيلسوف عرفه كيركجور هو شلنج، وإلى الصراع الذى أخذه شلنج على عاتقه فى أخريات حياته ضد هيجل، حينما وضع فى مقابل التاريخ الهيجلى ما سماه بفلسفة الوضعية.. وإننا لنستطيع أن نرجع فلسفة الوجود إلى كانط حينما يثبت أننا لا نستطيع أن ننتقل من الماهية إلى الوجود، وهو بهذا يفند البرهان الوجودى - الأنطولوجى - على وجود الله. فالوجود ليس كمالا Perfection، وإنما هو وضع Position).

جاء القرن التاسع عشر أيضًا بثلاثة من كبار الفلاسفة والمفكرين الذين شكلوا الحركة الوجودية، بالرغم من عدم إطلاق على أى منهم لقب وجودى. أول هؤلاء كان الكاتب الروسى فيدور دستويفسكى الذى نادى بخلاص الإنسان من الإيمان الدينى الذى يقيد حريته الذاتية، كان ثانيهم هو مؤسس المذهب الشيوعى كارل موكس الذى اعتمد فى تحليله الاقتصادى على

المضمون التاريخى للإنسان، بالرغم من هجومه على الحرية الاقتصادية. يجيء ثالثهم الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه الذى اعتنق مذهب "قيمة الإنسان فى القوة والمخاطرة"، ومعلنا إلحاده وتمرده على الكنيسة. فى القرن العشرين اعتنق الوجودية الفيلسوفان الألمانيان مارتن هيدجر، وكارل جاسبر، والكاتبان الفرنسيان ألبرت كامى، وبول سارتر الذى ساعد على نشر المذهب الوجودى فى بدايات النصف الثانى من القرن العشرين، وأدخله فى مضمار الفلسفة.

تقوم الفلسفة الوجودية الحديثة التى ظهرت فى القرن العشرين على فكرة أن الوجود سابق على الماهية، أو أن الذاتية تبدأ أولا. شرح الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر معنى الوجودية: (إننا نعنى أن الإنسان يوجد أولا، ثم يتعرف على نفسه، ويحتك بالعالم الخارجى، فتكون له صفاته، ويختار لنفسه أشياء هى التى تحدده، فإذا لم يكن للإنسان فى بداية حياته صفات محددة، فذلك لأنه قد بدأ من الصفر. بدأ ولم يكن شيئًا، وهو لن يكون شيئًا إلا بعد ذلك، ولن يكون سوى ما قدر لنفسه.... وهكذا لا يكون للإنسانية شيء اسمه الطبيعة البشرية، لأنه لا يوجد الرب الذى تمثل وجود هذه الطبيعة وحققها لكل فرد طبقًا للفكرة المسبقة التى لديه... إن الإنسان يوجد ثم يريد أن يكون، ويكون ما يريد أن يكونه بعد القفزة التى يقفزها إلى الوجود. والإنسان ليس سوى ما يصنعه هو بنفسه. هذا هو المبدأ الأول من مبادئ الوجودية، وهذا ما يسميه الناس ذاتيتها). أعطى سارتر مثالا لتفسير الفعل العكسى للفلسفة الوجودية، أى أسبقية الماهية على الوجود. إذا تناولنا أى جزء من ملابسنا - مثلا - نجد أنها صنعها حرفى وفقًا لفكرة مسبقة لديه، وطبقًا لتجربة سابقة عن صناعتها أكسبته معرفة هى جزء لا يتجزأ من الفكرة المسبقة على عملية التصنيع أى وجودها، إذًا فماهية قطعة الملابس - فى مجموعة صفاتها وشكلها وتركيبها وتعريفها - كلها سبقت وجودها. أما فى المنظومة البشرية فقد حدث العكس - طبقًا للفلسفة الوجودية - فقد تواجد الإنسان أولا قبل أن يحدد أو تتحدد له ماهيته.

استطرد سارتر فى شرح الفلسفة الوجودية فى كتاب "الوجودية مذهب إنسانى" فى الفقرات التالية: (نحن عندما نفكر فى الله كخالق، تفكر فيه طوال الوقت على أنه صانع أعظم، ومهما كان اعتقادنا، سواء كنا من أشياع ديكارت، أو من أنصار ليبتز، فإننا لا بد أن نؤمن بأن إرادة الله تولد أساسًا، أو على الأقل تسير جنبًا إلى جنب مع عملية الخلق، بمعنى أنه عندما يخلق الخلق فهو يعرف تمام المعرفة ما يخلقه، فإذا فكر فى خلق الإنسان، فإن فكرة الإنسان تترسب لدى الله أولا، بحيث يأتى خلقه طبقا لمواصفات خاصة وشكل معين، وهكذا الله فإنه يخلق كل فرد طبقا لفكرة مسبقة عن هذا الفرد. فلما قامت النظريات الإلحادية فى القرن الثامن عشر، قضت على فكرة الله فلسفيا، ولكنها لم تقض على فكرة أن الماهية تسبق على الوجود، حتى وجدنا فكرة الماهية ما زالت مسيطرة على أذهان الكثيرين... فالإنسان له طبيعة بشرية، وهذه الطبيعة البشرية هى ما يصاغ عليها الإنسان، وهى ما يتسم به كل إنسان، أو يشترك فى صفاتها مع غيره من البشر، وبذلك تكون الإنسانية كلها أو أفرادها قد خلقوا طبقا لفكرة عامة، أو مفهوم عام أو نموذج عام يجب أن يكون عليه البشر.... وهكذا نجد فكرة الإنسان فى التاريخ أسبق على حقيقته، بمعنى أننا نجد أنه لا يوجد بشر معينون وكل منهم يختلف عن الآخر، ولكن توجد فكرة عامة وإطار عام يجمع البشر جميعًا ويساوى بينهم، ثم هناك بعد ذلك الآحاد المتميزة من البشر، أى أن الماهية تسبق على الوجود مرة أخرى. لكن الوجودية الملحدة تعلن فى وضوح وجلاء تامين، أنه إذا لم يكن الله موجوداً، فإنه يوجد على الأقل مخلوق واحد قد تواجد قبل أن تتحدد معالمه وتبين، وهذا المخلوق هو الإنسان، أو أنه كما يقول هيدجر، الواقع الإنسانى، بمعنى أن وجوده كان سابقًا على ماهيته).

يؤمن الوجودى بصفة عامة - سواء كان ملحدًا أو يؤمن بوجود الخالق - بأن الوجود سابق على الماهية، أو أن الذاتية تبدأ أولا، كما يتماشى مع مذهب الإرادة الحرة، فالإنسان مسئول عما هو عليه، وكل فرد وصى على

نفسه، يتحمل المسئولية الكاملة على اختياراته وسلوكه. وحيث إن الإنسان يعيش فى مجتمع مكون من آخرين، فعليه يكون الإنسان مسئولا كذلك عن كل الناس. إن الذاتية تعنى حرية الفرد الواحد من جهة، وأن الإنسان لا يستطيع تجاوز ذاتيته الإنسانية من جهة أخرى، والمعنى الثانى هو المعنى الأعمق فى الوجودية، كما نوه سارتر فى المرجع السابق ذكره. إن اختيار الفرد لنمط معين من أنماط الوجود هو تأكيد لقيمة ما يختار وإعلاء لشأنه. من منطلق تحمل المسئولية يشعر الإنسان بالقلق، ولكن يجب على الإنسان أن يتغلب على هذا القلق بحيث لا يؤدى إلى الاستكانة واللافعل. إن القلق الذى تصنفه الوجودية هو القلق الذى يظهر خلال ممارسة المسئولية ممارسة مباشرة تجاه الآخرين، إنه قلق لا يفصل الإنسان عن العمل، بل هو جزء من العمل وشرط لقيامه ليتمكن للإنسان من إتقان العمل والقيام به على أكمل وجه.

فى تناول الفلسفة الوجودية للقيم الأخلاقية، كتب سارتر فى المرجع السابق: (إن الوجود يعارض بشدة هذا النوع من الأخلاق العلمانية التى تنكر وجود الله بكل سهولة، والتى كان يدين بها فلاسفة عاشوا فى القرن التاسع عشر، وأرادوا أن يؤسسوا بها أخلاقًا علمانية مؤداها أن فكرة الله فكرة لا تفيد، ومن ثم فلا داعى للاستمرار فى الإيمان بها... ولما كان المجتمع قد قام وعاش بخشية الله والعقاب، فإن إلغاء فكرة الله يقوض دعامة المجتمع واستقراره القائم على الأخلاق الدينية. والمجتمعات لا يمكن أن تعيش من غير وجود أخلاقى، ولذلك كان لا بد من أن توجد قيم قبلية Prior أى قيم سابقة على أى إيمان بالله أو خشية عقاب.... هذا هو ما حدث مع فلاسفة القرن العشرين الذين قوضوا الإيمان بالله، أما نحن فإننا قوضناه لكننا قلنا باستمرار وجود تلك القيم بالرغم من اعتقادنا بعدم وجود الله... إن الوجودية تقول: إن عدم وجود الله معناه عدم وجود القيم المعقولة كذلك، وعدم وجود الخير بصورة مسبقة، لأن عدم وجود الله معناه عدم وجدان كامل يعقل ذلك الخير، وهكذا يصبح القول بوجود الخير أو بوجوب الصدق

والنزاهة، قولا لا معنى له، لأننا نصير حيال وجود إنساني بحت لا دخل فيه لوجود الله أو لقيم مصدرها الله... كتب دستويفسكي مرة: "إن الله إذا لم يكن موجوداً فكل شيء مباح"، وما كتبه دستويفسكي هو النقطة التي تنطلق منها الوجودية، والتي تعتقد فيها أن إنكار وجود الله يعني أن كل شيء يصير فعلا مباحًا... ما دام الوجود يسبق الماهية فإنه لا عذر للإنسان بإحالة سلوكه وتفسير أسباب تصرفه إلى وجود طبيعة إنسانية مسبقة ومحددة الصفات، وبمعنى آخر يصير كل تفسير بالحتمية تفسيراً مستحيلا، ويصبح الإنسان حرا، بل يصبح هو الحرية... ومن جهة أخرى، إذا كان الله غير موجود فإن وجود القيم والشرائع التي تبرر تصرفاتنا تسقط بالتبعية وتصير غير موجودة... إن الإنسان محكوم عليه بالحرية، محكوم لأنه لم يخلق ذاته، وهو حر لأنه قد صار مسئولا عن كل ما يفعل بمجرد أن تواجد في العالم... إن الوجودي لا يؤمن بقوة العواطف، ولا يؤمن بأن العواطف قد تؤدي بالإنسان إلى إثبات أعمال معينة، وعلى العكس يؤمن الوجودي أن الإنسان مسئول عن كل ما يصدر عنه عن عاطفة، وأنه لا يمكن أن ينسب ما يصدر عنه إلى غيبيات توحي إليه، وإنما هو الذي يفسر ويؤول هذه الغيبيات كما يحلو له ويروقه. وهو يؤمن أن كل فرد محكوم عليه، دون أية مساعدة تلقى إليه أو معونة تقدم له، محكوم عليه أن يبدع الإنسان الذي هو نفسه. وكما قال يونج في مقال له: إن الإنسان هو مستقبل الإنسان).

من ناحية أخرى يتهمون الوجودية بأنها دعوة للاستسلام لليأس، لأنه ما دامت كل الحلول مستحيلة، فإن العمل في هذا العالم مستحيل كذلك ولا جدوى منه، وعليه تكون الوجودية فلسفة تأملية وتعتبر من الكماليات. يتهمون الوجودية أيضا بأنها أبرزت النواحي البشعة في الموقف الإنساني، وأغلقت الجانب المشرق في الطبيعة الإنسانية؛ فالوجودية أهملت ما يجب أن يكون عليه البشر من تضامن، وعزلت الإنسان داخل وجوده الفردي. وأخيراً أدينت الوجودية بالإلحاد وإنكار الوصايا الإلهية، والقيم الأخلاقية، فلا يتبقى للإنسان إلا ما يفعله بمحض الصدفة والعفوية، وعليه يستطيع كل فرد أن يفعل ما يشاء.

منهب القـوة Power Doctrine

قبل أن يتعرف الإنسـان على الفلسـفة كمنطق وعلم، ضاقت نفسـه بأشياء فأسماها شرًا، وجنحت ميوله إلى أشياء أخرى فأسماها خيرًا، وبين الخير والشر تأرجحت أفعال الإنسـان. احتار الإنسـان فى تصنيف القوة، أهى شر أم خير. إذا استخدمت القوى فى إيذاء الآخرين فهى شر، أما إذا اتجهت إلى مساعدة الضعيف فهى خير، ولكن من منطلق النسبية فى المنظور الإنسانى فقد أصبح تعريف القوة مجردًا من معنى الخير أو الشر، فإذا كانت فى صالحه فهى خير، وإذا جاءت ضد مصالحه فهى شر. إذا كانت بداية الكون من المنظور العلمى قد حدثت من الانفجار العظيم Big Bang حيث كان الكون كمادة يتركز فى كتلة صغيرة تحوى طاقة ضغط هائلة، فإن القوة من المنظور العقائدى قد بدأت فى الستة أيام الأولى من خلق الكون، فمن القوة الإلهية المطلقة خلق الله السموات والأرض وخلق الإنسـان متوجًا على جميع المخلوقات. منذ أن استخدم قابيل قواه العضلية فى قتل أخيه هابيل، توالت استخدام القوى من قوى عضلية، إلى الاستعانة بفروع الأشجار والأحجار، ثم استخدم الإنسـان السهام والرماح والسيوف، ثم اكتشف البارود فى القرون الوسطى، حتى وصل إلى استخدام أسلحة التدمير الشامل فى العصر الحديث، يفتك بها الآخر، ويتباهى بها فى منظومة القوى. انتهى عهد القوة العضلية كمعيار لقوة الإنسـان، فقد تسلح الإنسـان بقوة العقل التى سخرت له قوى الطبيعة واستغلال طاقة كوكب الأرض، ومكنته من اختراع أسلحة القتل والدمار الشامل، ومهلت له استخدام قوة المعرفة لاكتشاف المجهول وتطوير حضارته وتدميرها.

لم يبخل رائد الفلسفة السياسية النفعية - الإيطالى نيقولا ميكيافيللى، فى القرن الخامس عشر فى إسداء نصائحه إلى الأمير لورنزو دى ميديشى للتحلى بالقوة مع الدهاء حتى تستمر سيطرته على مملكته، كتب ميكيافيللى فى كتابه

الشهير "الأمير"، فى الفصل الخاص بواجبات الأمير نحو قواته المسلحة: (لا ينبغى أن يكون للأمير هدف أو غاية سوى الحرب. ولا ينبغى أن تشغل فكر الأمير أمور أخرى سوى أمور الحرب وتنظيم الجيوش وإعدادها لخوض الحرب، لأن الحرب هى الفن الوحيد الضرورى لمن يعتلى عرش الحكم. ومن مزايا فن الحرب أنه يكفل بقاء عرش الأمير الموروث عن آبائه الملوك السابقين، وفن الحرب أيضًا هو الذى يُمكن ذوى الهمة من الأفراد ليرتقوا العروش ويقيموا الممالك لأبنائهم وأحفادهم من بعدهم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، نجد أن من يهمل شئون الحرب ويحتقر فنونها، ولا يتمرس بأساليبها منغمسًا فى اللهو والمجون والترف يفقد دولته، ويزول عرشه، وينقضى ملكه. وسبب ضياع الممالك هو إهمال فن الحرب، والطريق المؤدى إلى إقامة الممالك هو إتقان فن الحرب، والتفوق فى مضماره). واستطرد ميكيافيللى فى نصائحه لأميره بأن يقرأ التاريخ وأعمال عظماء الرجال لتدريب عقله، ويدرس أسباب انتصارهم أو انحدارهم، ليقلد المنتصرين، ويتجنب أخطاء المهزومين.

إذا كان قدر الإنسان أن يخوض صراع دائم فى مسيرته الحياتية، فإن ميكيافيللى قد نصح أميره فى اتباع أسلوب القوة أو أسلوب الدهاء حسب موقف الصراع: (إن هناك أسلوبين من أساليب القتال والصراع. أولهما بالقانون، وثانيهما بالقوة. أولهما جدير بعالم البشر، وثانيهما موجود فى دنيا الوحوش والحيوانات المفترسة. ولكن الأسلوب الأول، أسلوب الصراع فى إطار الشرعية والقانون يفضى أحيانًا إلى نتائج غير كافية أو غير مرضية من وجهة نظر بعض أطراف الصراع، فهم يميلون أحيانًا إلى اتباع الأسلوب الثانى. ومن الضرورى إذًا للأمير أن يعرف جيدًا كيف يتمرس على استخدام أسلوب البشر وأسلوب الوحوش كليهما... وهكذا يكون الأمير مضطرا أن يعرف جيدًا كيف يتصرف تصرف الوحوش مقلدًا الثعلب والأسد فى آن واحد. الأسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الكمائن والمصائد التى يعدها

الصيادون لاصطياده، والثعلب لا يمكنه أن يحمى نفسه من الذئاب. ومن اللازم إذًا أن يكون الإنسان ثعلبًا ليتفادى الكمائن، وأن يكون أسدًا ليخيف الذئاب.... الحاكم الحاذق لا ينبغى أن يحفل كثيرًا بالوفاء عندما يكون الوفاء ضد مصالحه وعندما تكون الأسباب التى تضطره إلى الوفاء غير قائمة). لقد أوصى ميكيافيللى باتباع السياسة النفعية مع سياسة القوة، ففلسفته قائمة على إدارة الإنسان، أو الحاكم، أو الدولة للموقف: متى تستخدم القوة، وكيف ومتى تستخدم الحيلة والدهاء، وبأى وسيلة؟ وذلك للوصول إلى الهدف، "فالغاية تبرر الوسيلة" فى فلسفة ميكيافيللى.

كان لميكيافيللى السبق عن الفيلسوف الألمانى نيتشه فى حث من يصبو إلى المجد، الخوض فى الأخطار، واقتحام الأهوال: (والأمراء يصبحون عظماء دون ريب عندما يتغلبون على الصعوبات والمخاطر والمعارضين، وهكذا يصنعون حظوظهم، خصوصًا عندما يشاء الحظ أن يسبغ العظمة على أحد الأمراء الجدد الذى يحتاج إلى مظاهر العظمة بأكثر مما يحتاج إليها أمير ورث عرشه عن أجداده، مما يجعل الأمير الحديث للولاية بحاجة إلى وجود أعداء يجبرونه على حربهم ليتاح له الانتصار عليهم، وهكذا يصعد سلالم المجد التى هيأها له أعداؤه بأنفسهم). وفى نهاية نصائحه، أوصى ميكيافيللى أميره بإنشاء جيش قوى، من جنود أكفاء وشجعان لأن القوة كما تؤدى إلى الانتصار، تساعد على بسط رايات السلام، حين يرى الخصم أن الطرف الآخر يمتلك القوة لردعه والانتصار عليه، فيخاف منه ويرهبه ويجنح إلى السلم بدلا من الاستسلام إذا نشبت الحروب. رغم أن الفيلسوف البريطانى س. جود قد أوضح فى كتابه "فصول فى الفلسفة" ومذاهبها تعدد أهداف الدولة، إلا أنه ذهب إلى حصر هذه الأهداف فى ثلاث: القوة والامتياز والثروة: (لا يمكن أن ننكر أن الدول تصبو إلى القوة، فامتلاك امبراطورية يعتبر فى كل مكان خيرًا، كما أن فقد قطعة أرض يعتبر شرًا... فإذا ما تشدقت الدول عن طريق أفواه السياسين بالقول بأن لها "رسالة مقدسة"

وأن لها "أهمية للدولة" أو عن "المستقبل التاريخى" للدولة فإنهم يقصدون من وراء ذلك أن لهم "رسالة" هى أن يكسبوا بقعة أرض أو أن يزيدوا قوتهم وأن "مصالحهم" تستلزم الاستزادة من القوة وأن "المقدر لهم" سواء من عند الله أو من عند الحظ أو من الحركات التاريخية أو من نتاج "عبقريتهم" إنما يشير عليهم بزيادة التوسع). لقد سبق الفيلسوف جود الفاتح المغولى جنكيز خان الذى استولى على بلاد عديدة فى آسيا وأوروبا ليكون امبراطورية وصلت إلى ثلثى عالم القرن الثالث عشر من شمال الصين وكوريا إلى أوروبا الشرقية، مرورًا بالشرق الأوسط. كان من أهم أقوال جنكيز خان: (إن السعادة العظمى التى يمكن للرجل أن يعرفها هى الانتصار على أعدائه وسوقهم أمامه، وامتطاء أحصنتهم والسيطرة على ممتلكاتهم). وفى العصر الحديث، وفى بداية بزوغ الحضارة الغربية الحديثة، ومع ظهور فلاسفة العلوم فى عصر العقل، ومع بداية فلسفة الشك بعد عصر الاضطهاد الدينى، ظهرت فلسفة القوة، التى أدت بعد ذلك إلى نشوب العديد من الحروب المدمرة.

عاش فى القرن التاسع عشر الفيلسوف الألمانى فريدريك نيتشه رائد فلسفة القوة، مبشرًا ببزوغ الديكتاتورية العسكرية القائمة على فلسفة القوة والتى انتهجها هتلر بعد ذلك فى ألمانيا. قامت فلسفة نيتشه على أن إرادة القوة هى جوهر الوجود. عن طريقها يمكن تفسير كل مظاهر الكون، وبمقدار شعورنا بالحياة والقوة يكون إدراكنا للوجود. قام فكر نيتشه على مبدأ تقديس القوة، فالحياة لا تستطيع أن تحيا إلا على حساب حياة أخرى، أو كما كتب عبد الرحمن بدوى فى كتابه "نيتشه": (الحياة هى النمو، وهى الرغبة فى الاقتناء، والزيادة فى الاقتناء، وما دامت الحياة نموا ورغبة فى الاقتناء، فإنها محتاجة إلى شيء آخر خلافها وخارجها كى تتحقق. فكأن الحياة إذًا إرادة استيلاء على الآخرين، وإرادة سطو واستغلال. وطابعها المميز هو الاغتصاب وهضم ما للآخرين فهى إذًا عنصر إفناء وهدم وإيذاء... لكن هذا الاستيلاء

والإفناء لا يمكن أن يتما دون أن يصادفا مقاومة، بل لا بد للحياة الواحدة من أن تجد مقاومة من أنواع الحياة الأخرى التي تصطدم وإياها... ولهذا فإن الحياة كفاح دائم، بشرط أن نفهم هذه الكلمة فهمًا واسعًا عميقًا يجعلنا نفهم العلاقة بين السيد والمسود بوصفها نضالا، والعلاقة بين الخاضع والسيد بحسبانها مقاومة).

جاء في المرجع السابق عن فلسفة نيتشه: (كلما كثرت المقاومة واشتدت الخصومة، زادت قيمة الحياة، وأصبحت إرادة القوة أكبر ثروة وأعظم خصبًا. فالحياة التي تريد أن تعلو، والإرادة التي تريد أن تتحقق في صور أجل وأعلى، لا بد لها من أن تحرص على طلب المقاومات بنفسها وأن تثير الخصومات وألوان النضال طائفة مختارة، وأن تخلق لنفسها حالة توتر دائم سواء أكان هذا بينها وبين نفسها، أم بينها وبين الأشياء الخارجة عنها، فالحياة السامية حياة تنشد الخطر وتلح في طلبه.. فكأن إرادة القوة إذًا هي في الوقت نفسه إرادة الخطر: أن يجعل الإنسان حياته في خطر.... لأن كل خطر كبير يثير حبنا للاستطلاع بنسبة ما لدينا من قوة وشجاعة). وفي النهاية تتبلور فلسفة نيتشه في مقولته: (كي تجنى من الوجود أسمى ما فيه، عش في خطر).

ليس الألم في فلسفة نيتشه سلبيا، لأنه إذا كان جوهر الوجود إرادة القوة، والألم ينشأ من الشعور بعدم القدرة على المقاومة وعدم الإحساس بالسيادة، لذا فإن اللذة والألم حقيقتان ضروريتان وهما أسمى ما في ذات الإنسان من مشاعر وأحاسيس وتفاعل مع جوهر الوجود. إن اللذة لا تنبع من إشباع الرغبة وإرضاء الإرادة، وإنما تنشأ من انتصار الإرادة على كل ما يقف في طريقها، أو كما كتب نيتشه: (إن الشعور باللذة أساسه عدم إرضاء الإرادة، بأن لا تكون قد شبعت بعد، بسبب انعدام الخصم والمقاومة، لأن عدم الرضى يهيج الشعور بالحياة، وهو دافع كبير لاستثارتها... وإن ما يريده الإنسان حقا، وما يريده كل جزء من الكيان العضوي، مهما صغر هذا

الجزء، هو الزيادة فى القوة، وليس تجنب الألم والسعى وراء اللذة وطلبها). والخلاصة إذًا هو أن جوهر الوجود إرادة القوة، لا إرادة الحياة.

لا تختلف الدول، والمجتمعات، والتجمعات، والقوميات عن الإنسان كفرد وسلوك نحو امتلاك القوة. فتطوير السلاح وتصنيعه وتكديسه، وعبادة المال حتى إن كان لا يحتاج الإنسان إلى كل ما جمعه، وخلافه من رغبات الإنسان فى امتلاك عناصر القوى، يؤكد شهوة الإنسان للسيطرة والشعور بالقوة والهيمنة. حتى فى السياسة حيث يطالب الضعفاء بالعدالة والحرية من جانب الذين يملكون القوة. الضعيف فى فلسفة نيتشه هو الإنسان المتساهل، والمساوم، الذى يلجأ إلى الحلول الوسطى، أما القوى فهو المتكبر، المتسيد الذى لا يرضى إلا بالقيادة والوقوف فى الصفوف الأولى. الضعيف ليس له قدرة على مقاومة الإغراء، أما القوى فهو الإغراء ذاته، لا شيء يعلوه، لأنه هو ذاته أعلى وأسمى من كل شيء. فعقيدة القوى كما يقول نيتشه: (ما لا يقتلنى يزيدنى قوة)، وكما يقول أيضًا: (إن الأسباب التى تؤدى إلى جعل الضعاف من الناس صغارًا حقراء، هى عينها التى تدفع الأقوياء والنادرين إلى العظمة والعلاء). حياة القوى خصبة، أما حياة الفقير فجوفاء. إذا كان كلاهما يتألم، فإن كان ألم الفقير نابع من العوز والحاجة فألم القوة ينبع من فيض السيطرة والهيمنة. الضعيف يريد السلام والوفاق، والحرية والمساواة، ولكن القوى يفضل الصراع والصدام. الضعيف يكبت شعوره بالانتقام داخله، أما القوى فيهاجم ولا يهادن، يرد الإهانة فى الحال، لا ينتظر حالة ضعف خصمه، حياته كلها إثارة، وتوثب وانتفاض، وانقضاض.

إرادة الحق فى فلسفة القوة، ليست إلا خادمًا لإرادة القوة، والحقيقة ليست إلا قناعًا يخفى وراءه إرادة القوة، بالقوى تشكل الأشياء لتتماشى مع إرادتنا. الخير والأخلاق والإحسان.... إلخ، هى أفكار وعقائد يفيضها القوى من زاده على الضعيف. الحياة من وجهة نظر نيتشه: (مجموعة من القوى المرتبط بعضها ببعض عن طريق تغذية مشتركة.... ويتبع هذه العملية

كوسيلة لتحققها كل ما يسمى باسم الإحساسات والتصورات والأفكار، أعنى أولا مقاومة كل القوى الأخرى، وثانيًا إعداد هذه القوى تبعًا لصورة الحياة وسياقها، وثالثًا تقويم الأشياء من أجل تمثلها أو طرحها والقضاء عليها). الموت فى نظر نيتشه جزء من الحياة، مكملا لها، لذا لا مبرر للخوف مما بعد الموت. ليس المطلوب منا أن نحيا حياة طويلة، وإنما نحيا حياة خصبة زاخرة، مليئة بالصراع والمقاومة.

إذا كانت الثقافة الغربية الآن قد بنيت على الفردية، فإن نيتشه قد وضعها فى صورتها الفلسفية، فالمساواة تحول الأفراد إلى حبات رمل فى كومة ضخمة سماها الشعب، الذى لا يعنيه أن يرتفع مستوى الإنسانية، أو يحفل بالأفراد والمتميزين الأرستقراطيين الذين هم خلاصة الإنسانية، وواضعوا قيمها العليا، التى هى قيم السادة لا قيم العبيد. الفرد المتميز فى فلسفة نيتشه يجب أن يسود، وتتطور السيادة وتتصاعد حتى تصل إلى الإنسان الأعلى Super Man الذى يجب أن يسود الجميع. هذا الإنسان هو الذى يملك مجموع القوى ومحصلاتها، بعد أن انتهى من التغلب على شهواته وغرائزه ونزواته، فتفرغ للالتحام مع الآخرين، يصارعهم ويتغلب عليهم. المساواة ما هى إلا أكذوبة فى عالم تتصارع فيه القوى المتباينة فى أشكالها وصورها المختلفة. إن قيمة الإنسان تقاس من وضعه فى المنظومة البشرية. أكان متقدمًا أو متأخرًا، سيدًا أو عبدًا، قويًا أو ضعيفًا. الإنسان الأعلى يجب ألا يتعلق بشخص، أيًا كان هذا الشخص: أب أو أم، ابن أو ابنة، زوجة أو رفيقة الإنسان الأعلى يجب ألا يتقيد بوطن معين. ولا يجذبه مال يأتى من نكوص الرأس، ولا تشده سلطة ناتجة من الإذلال للأعلى، أو منصب يأتى من النفاق والرياء. الإنسان المتميز هو الذى يضع نفسه فوق القوانين وأعلى من القيم لأنه هو واضع القوانين ومنشئ القيم والأخلاق والمثل، لا يأبه بمصطلحات وضعها البشر: من خير وشر، ومن حب وكره، من قسوة وحنان.... إلخ. الإنسان الأعلى يجب أن يتحرر من أى قيود، يخاطر بذاته من أجل اكتشاف

الجديد، وفرض قيمه وأخلاقه على الآخرين. الحياة نضال فى نظر الإنسان الأعلى، من أجل السيطرة، والهيمنة، والفوز، والامتلاك، لا يعنيه شيء إلا أن يسير قدمًا نحو هدفه.

الشفقة فى شريعة القوى هى فضيلة الضعيف، ولكن القوة وحدها هى التى ترفع الإنسان إلى أعلى، تهذبه وتقويه. طبيعة الكون سارت منذ وجود الكائن الحى على قانون الانتخاب الطبيعى: البقاء للأقوى ماديًا وعقليًا، للذى يملك مقومات القوة: من سلطة، وسلاح، ومال، ومعرفة. الضعيف غير جدير بالحياة، وإن عاش فهو يجب أن يبقى عبدًا للقوى، أو كما كتب نيتشه: (إن الإنسان يفقد قواه حين يشعر بالشفقة - نحو الآخرين أو نحو نفسه - وعن طريق الشفقة يزداد فقدان القوة الذى سببه الألم فى الحياة من قبل). يتحول نيتشه بعد ذلك إلى الشعور بالمسئولية، فلا بد للإنسان أن يكون قوى الشعور بالمسئولية عن كل ما يقوم به من أعمال ومخاطر من أجل السمو بالحياة، والصعود إلى أعلى حتى يصل إلى مرتبة الإنسان الأعلى.

ليس دائمًا نستخدم القوة فى التغيير وفرض الإرادة، ففى الجهة الأخرى المقابلة وفى الاتجاه العكسى تستلزم القوة لصد العدوان، ومقاومة فرض الإرادة. تبدأ المقاومة بالقول وتنتهى بالموت من أجل أن يثبت الإنسان أن له ذات يجب أن تحترم. إذا كانت الأيوثيميا هى المصطلح الإغريقى لرغبة الإنسان بأن يعترف به مساويًا ومكافئًا للآخرين، فإن الثيموس هى الحمية والكبرياء والشجاعة للحصول على الأيوثيميا. كتب الفيلسوف الألمانى هيجل فى "فينومينولوجيا العقل": (ليس بالوسع نيل الحرية إلا بالمخاطرة بالحياة، حينئذ فقط يمكننا التدليل على أن جوهر وعى الإنسان بذاته ليس مجرد البقاء على قيد الحياة، ولا هو مجرد الصورة المباشرة التى يبزغ فيها هذا الوعى لأول مرة... فالفرد الذى لا يخاطر بحياته قد يعترف به فردًا، غير أنه لم ينل حقيقة هذا الاعتراف باعتباره وعيًا مستقلا بالذات). ينطبق الكفاح من أجل إثبات الذات على الفرد وعلى الشعب كمجموعة من الأفراد تجمعهم

دولة. ومن منطلق المخاطرة بالحياة تنبع الثورات والحروب الأهلية. وما عناصر القوة إلا سلاح فى أيدى الفرد أو لدى الدولة لإظهار القدرة على فرض الذات، ونيل الاعتراف بالمنزلة المميزة والتقدير من الآخرين. كتب الفيلسوف توماس هوبز: (أن كل إنسان يسعى إلى أن يقيمه الآخر كتقيمه لنفسه. فإن بدرت من الآخر بادرة تشير إلى احتقاره أو الانتقاص من قدره، كان من الطبيعى أن يحاول، بقدر ما تواتيه الجرأة، أن ينتزع أكبر قدر من التقدير ممن ناصبوه الاحتقار، عن طريق إيذائهم). من هذا المنطق كتب فوكاياما فى كتاب "نهاية التاريخ" أنه توجد فى طبيعة الإنسان ثلاثة أسباب رئيسية للنزاعات: أولها التنافس، وثانيها فقدان الثقة بالنفس وثالثها المجد، وقد تدفع الرغبة فى المجد إلى الحروب بسبب أمور تافهة قد يتنازع البشر - فى رأى هوبز - على الضروريات، غير أن الكثير من الناس يتصارعون من أجل نيل الاعتراف والتقدير. إن الكثير من الحروب قد نشبت ليس من أجل الحصول على منافع مادية، بل إرضاء للكبرياء والغرور. أشار فوكاياما فى نفس المرجع إلى قدم مفهوم "الاعتراف بالذات" فى الفلسفة السياسية: (لم يكن هيجل هو الذى اخترع المفهوم وراء الاعتراف، فهو قديم قدم الفلسفة السياسية، ويشير إلى جانب مألوف فى الشخصية الإنسانية. غير أنه لم يكن ثمة كلمة واحدة لآلاف من السنين تستخدم للإشارة إلى ظاهرة الرغبة السيكولوجية فى نيل الاعتراف، فقد تحدث أفلاطون عن الثيموس، وتحدث ميكيافيللى عن تعطش الإنسان إلى المجد، وتحدث هوبز عن كبريائه أو خيلائه وغروره، وتحدث روسو عن أنانيته، والكسندر هاملتون عن حب الشهرة، وجيمس ماديسون عن الطموح، وهيجل عن الاعتراف، ونيتشه عن الوحش ذى الخدين الأحمرين. وكل هذه الصفات إنما تشير إلى ذلك الجانب من الإنسان الذى يشعر بالحاجة إلى إسباغ قيمة على الأشياء، ومن بينها نفسه أولا. هذا الجانب من الشخصية هو المصدر الرئيسى لعواطف الكبرياء والغضب والخجل ولا يمكن إرجاعه لا إلى الرغبة ولا إلى العقل. والرغبة فى الاعتراف هى بالذات الجانب السياسى من شخصية الإنسان لأنها هى التى

تدفع الناس إلى الحاجة إلى تأكيد أنفسهم فى مواجهة الآخرين). إن الإحساس المتضخم بالذاتية يولد العناد والمكابرة، ويؤدى إلى الصراع، أو إلى مقاومة الضغوط والعدوان، وذلك حتى يثبت للذات وللآخرين أنه يوجد كيان يجب أن ينال الاحترام والتقدير.

البراجماتيــة Pragmatism

البراجماتية هى مدرسة فلسفية حديثة نشأت وتطورت بواسطة الفيلسوف الأمريكى بيرس C. S. Peirce - ١٨٣٩ - ١٩١٤، الذى يعتبر من أعظم مفكرى الولايات المتحدة فى القرنين التاسع عشر والعشرين، بإعلانه مولد سلوك/ حكمة البراجماتية Pragmatic Maxim فى بداية عام ١٨٧٨م. كانت مجادلة فلسفة بيرس فى أن "الفكرة" تكون لها قيمة - فقط - عندما ينتج عن الهدف منها قيمة، وذلك تحت شروط معينة ومحددة. عرف بيرس معنى الفكرة، بالعواقب الناتجة من التفاعل مع الهدف، أو بسلوك الأفعال المرتبطة بالهدف. ركز بيرس فى مقالاته الفلسفية على: (وضوح الفكرة إذا تم التحقق والتأكد من صحة التأثير الذى يلى الفعل، مع الأخذ فى الاعتبار الشروط الموضوعة فى بحث هدف الفكرة). استنبط بيرس كلمة براجماتية من تطبيقات الفيلسوف الألمانى كانط لكلمة Prgmatisch للقوانين التجريبية المشروطة. وهذه الكلمة - براجماتية - مشتقة من الكلمة اليونانية Pragmatica والتى تعنى مرسوم يختص بالأمور ذات الأهمية القصوى للدولة أو للمجتمع، ولها قوة القانون الأصلى أو القانون الأساسى.

فى البداية، كانت نظرية بيرس فى البراجماتية - إلى حد ما - محاولة للتوفيق بين العلم والدين، فقد عرفت النظرية الأهداف الحقيقية للأبحاث والدراسات العلمية والتى تتلخص فى تكوين وصف وتفسير للتجربة، وأن معنى أفكارنا وأهدافنا يمكن التعبير عنها من خلال النظرية البراجماتية. حاول بيرس البرهان على أن الأهداف الحقيقية هى التى تنشأ من الاتفاق الجماعى

فى الرأى، فى مجتمع علمى متطور، ولكنه أيضًا كان يعتقد فى أن الأنانية الفردية تظهر فقط فى حالة الجهل والخطأ، وعليه فإن الصراع العلمى لإثبات الحقيقة له أبعاد عقائدية/دينية. لقد كان فى الماضى صراع من أجل قهر الطبيعة الأنانية للفرد، ولامتصاص "الأنا" الفردية، ولتحقيق الانسجام مع الذات المطلقة. ذهب بيرس فى أعماله التالية للتأكيد على أن الطرق العلمية هى المعنى الصحيح للوصول إلى هدف الانسجام والتناغم للمنظومات المختلفة التى يحويها الكون بما فيها المنظومة البشرية، وبذلك أصبحت النظرية البراجماتية شرح وتفسير للفكرة التى تؤدى إلى الهدف والغاية، بالعمل والتنفيذ. إن البراجماتية ليست فقط أداة لاكتشاف والتعرف على معنى الأفكار، ولكن تدلنا أيضا على الغرض من تشكيل هذه الافكار.

فى عام ١٨٩٨م طور الفيلسوف الأمريكى وليم جيمس الفلسفة البراجماتية بإضافة التعريف الأشمل التالى: (إن تباعيات أو عواقب الفكرة ليس فقط فى التأثير التجريبى، ولكن أيضًا فى النتائج الاستراتيجية التى يمكن للفكرة أن تؤثر فى نفسية أو عقلية الفرد). لم يتطرق بيرس إلى الجوانب السيكولوجية فى فلسفته البراجماتية، أو إلى التأثير المباشر للفكرة على الفرد من: (سرور أو ألم، من رضا أو عدم اقتناع، من تأثير إيجابى أو سلبى)، ولكنه فى النهاية أقر بتفسير جيمس لنظريته. إن المذهب البراجماتى فى فلسفة جيمس هو القائم على السلوك العلمى، ونتيجة هذا السلوك، فهى فلسفة العمل بمعناه الواسع من التفاهم الهادئ العقلانى والتعامل العادل فى المعاملات. إن فكرة البراجماتية تخضع السلوك البشرى لاختبار مادى واحد، وهو التساؤل عن ثمن هذا السلوك والقيمة الفورية لأى عمل يؤدى. أوضح جيمس معنى "القيمة الفورية" بقوله: (لا أعنى رد الثمن بالدولارات والسنتات، وإنما أقصد بها الجزاء فى صورة صحة أسلم، وعقل أقوى، وروح أجرأ. كل ما يؤدى إلى النتائج المرجوة فهو حق، وكل ما لا يؤدى إلى هذه النتائج فهو باطل... إن كلمة الحق وكلمة النفع مترادفتان، فنقول عن فكرة

إنها حق لأنها نافعة، وإنها نافعة لأنها حق، والقولان فى المعنى سواء.. وايضاً هذا هو معيار الأخلاق، فالذى يجعل للفعل فضيلة هو أنه فعل ناجح). إن الاعتقاد الصادق - فى الفلسفة البراجماتية - هو النافع فقط فيما يتعلق بالفكر، كما أن الصواب هو النافع فيما يتعلق بالسلوك. إن العمل بغير نتيجة تؤدى إلى فائدة للبشر لا يعنى شيئا، والحضارة الإنسانية إن لم تؤد إلى راحة البشر النفسية ورفاهية معيشية فلا طائل منها.

شرح جيمس مذهبه فى بعض من التفصيل فى نصائحه: (لا تجعل هدفك مقصوراً على النجاح وحده على حساب كل شىء سواه، فسواء كنت عاملا أو صاحب عمل فإن الشىء الذى يدر عليك الربح الأكبر هو التعاون الودى لا المنافسة العدائية.. لا تشته جمع المال الطائل لنفسك على حساب اقربائك، فهذا لا يجديك نفعًا، فأى خير يعود علىَّ من الربح إذا كان معناه خسارة لرفاقى من البشر؟... فمهما تكن حرفتك فإنك لا تعمل لنفسك فحسب بل تعمل للمجتمع كله، وإنك لواجد سعادتك العظمى فى مجتمع يقوم على العون المتبادل والأمانة المتبادلة والثقة المتبادلة. فى مثل ذلك المجتمع- الذى عليك أن تساعد على خلقه - لا بد أن تكافأ على نشاطك بالحصول على أعلى الأجور فى العالم. وما العملة التى تصرف بها هذه الأجور إلا راحة البال). إن خلاصة براجماتية جيمس هى الدعوة إلى بذل المجهود الفردى فى البناء المطرد لعالم أعظم وأفضل، والمعنى الحقيقى لحياة الإنسان ينحصر فى الحصول على القيمة الفورية لما يقوم به الإنسان من عمل. تجىء هذه القيمة على صورة: إما سعادة ناتجة من صنع عالم أفضل، أو الحصول على عائد مادى يمكن به تحقيق الاحتياجات التى تؤدى إلى السعادة الفردية حسب منظور الفرد للسعادة. طابق جزء من براجماتية جيمس فلسفة القوة والمخاطرة للفيلسوف الألمانى نيتشه، فروح المغامرة فى فلسفتهما تجعل من الحياة معنى، وللمسيرة الحياتية إثارة ومتعة، متعة المخاطرة لا متعة الراحة.

تحت مظلة الحرية الفكرية. قام البراجماتيون الأوائل فى القرن العشرين بنشر آرائهم المميزة فى الفكرة الرئيسية للبراجماتية. هاجم بيرس نظرية المعرفة Epistemology والتى تمثل المعرفة كصرح مبنى على أساس من الأفكار والمعتقدات غير المشكوك فيها، من مبدأ "ندم القابلية للخطأ"، بمعنى أن الاستعلام يبدأ بالاعتقاد من خلال الفطرة البديهة Common Sense ثم بالفحص والتدقيق، لاستنتاج الفروض من أجل القبول المشروط للعلم بالشيء المراد التحقق منه. أما بيرس فقد كان رائدًا فى المنطق الحديث، يؤمن بأن النظرية العلمية هى التى تحقق غرض الاستعلام، وعليه سلوك الفعل.

بالرغم من أن الفيلسوف الأمريكى جون ديوى قد تأثر بالفلسفة المثالية لهيجل فى أواخر القرن التاسع عشر، إلا أنه قد اتجه تدريجيا نحو الفلسفة البراجماتية فى النصف الثانى من حياته، فى النصف الأول من القرن العشرين. رفض ديوى وجهة نظر ثبوت الحقيقة وعدم تغيرها، فالحقيقة فى منظوره تتحدد من مبدأ عواقب الفكرة، أى النتائج التى تلى تنفيذها وإخراجها كفعل. قامت فلسفة ديوى على نظرية التعليم بالفعل بعكس النظرية التى تركز على العقائد Dogmatic، أو التعليم الروتينى القائم على خضوع الفرد وحقوقه خضوعًا كاملا لمصلحة الدولة أو المجتمع، لذا سميت فلسفته بالفلسفة التجريبية Experimentalism أو الفلسفة الذرائعية Instrumentalism التى تذهب إلى أن الفكرة هى وسيلة للعمل وأن فائدتها هى التى تقرر قيمتها، والتى تحولت بعد سيطرة الروح الاقتصادية على الثقافة الغربية بالفلسفة العملية/النفعية التى تؤكد على أن قيمة الفكرة تتحدد وتقيم بالإضافة التى أوجدتها من جراء تنفيذها، أى بالتعريف الاقتصادى ما يسمى بالقيمة المضافة Value Added. اعتنق ديوى فكرة أن للمجتمع الديمقراطى يجب أن يغرس فى مواطنيه عادة الاستعلام المفتوح Free Inquiry، وحرية التساؤل من أجل البحث عن الحقيقة، مع نبذ الطرق الجامدة، والأسلوب الديكتاتورى فى التعامل.

كان منظور ديوى للتجربة هو: نتيجة التفاعل بين الكائن الحى كمنظومة، والبيئة التى يحيا فيها هذا النظام، والحقيقة المؤكدة والمبرهنة هى التى تنتج من هذا التفاعل فى صورة حركة/فعل/عمل. لقد أكدت البراجماتية على معنى الفعل كهدف ذى مغزى، وله قيمة وفائدة، أو كما أسماه وليم جيمس Cash-Value للعقيدة أو الفكرة. أدت هذه النظريات إلى توصل الفيلسوف البريطانى برتراند راسل إلى ما يسمى: بفلسفة المهندسين Engineer's Philosophy والتى اتجهت بعد ذلك نحو اللاعقيدة، وإلى حكم المنظومات Systems من خلال نظام فاشستى Fascism يتحكم ويسيطر على جميع أنشطة الإنسان الحياتية بحيث يتحول الإنسان فى النهاية إلى شبه آلة. وأخيراً فقد جمعت الفلسفة البراجماتية بين النظرية والتطبيق، وبين الفلسفة والعلم، وبين الفعل الحركى وقيمة نتيجة الفعل.

تعتبر البراجماتية نظرية لتوضيح الأفكار أكثر منها مذهبًا فلسفيًا، فهى تركز على أهمية الفعل البشرى وهدفه من المنظور التجريبى، والمعرفى والمدلول والغرض منه، فإذا أمكن تحديد - بدقة - كل الظواهر التجريبية التى يمكن تصورها، يمكن تطبيق الإثبات أو الإنكار عليها، حينئذ يمكن تعريف وتحديد الفكرة بصورة كاملة. رفض أصحاب المذهب البراجماتى وجهة النظر التقليدية بوضع العلم فى صورة الصندوق الأسود Black - Box المصون والغير قابل للتغير، فالعلم دائمًا قابل للتطور. لقد كانت قوانين العالم البريطانى إسحق نيوتن فى الجاذبية والحركة مثل الكتب المقدسة - قبل ثورة العقل والتطور العلمى والتكنولوجى فى أوروبا - غير قابلة للإنكار أو النفى، حتى قام العالم الفيزيائى الألمانى ألبرت أينشتين باكتشاف نظريته النسبية العامة والخاصة فى بدايات القرن العشرين، وأثبت أنه فى السرعات الفائقة تصبح قوانين نيوتن غير قابلة للتطبيق. وضع نيوتن قوانين الحركة فى نهاية القرن السابع عشر والتى جاء فيها:

● يظل كل جسم فى حالة السكون أو الحركة المنتظمة فى خط مستقيم إلا إذا

خضع لتغير حالته بواسطة قوة أثرت فيه.

● التغير فى الحركة يتناسب مع ويكون فى نفس اتجاه القوة المؤثرة.

● لكل فعل رد فعل مساوٍ له فى المقدار ومضاد له فى الاتجاه.

فى عام ١٩٠٥ وضع أينشتين نظريته فى النسبية الخاصة Special Relativity والتى تخلت عن الأفكار التقليدية السائدة عن الزمن والحركة مع اعتبار النسبية هى الأساس فى جميع القوانين الفيزيائية. وضع أينشتين نظريته فى النسبية العامة General Relativity عام ١٩٠٧، وقام فى عام ١٩١٧ بتطبيق نظريته فى النسبية العامة فى قوانين الفلك وسرعات النجوم، وسرعة الضوء، أى فى قوانين الكون بصفة عامة. إن جميع الأفكار العلمية والفلسفية قابلة للتغيير، وعليه يجب أن يتحلى الإنسان بالمرونة ويتقبل أى تعديل أو تغير فى الفكر الإنسانى بصفة عامة.

الأنانيـــة Egoism

يتعامل مذهب الأنانية مع طبيعة الإنسان من منطلقين: الأول من منطلق علم النفس وفيه يسعى كل فرد إلى تحسين وضعه، وتعزيز ذاته، وينتهج السلوك ويقوم بالأفعال التى فيها مصلحته الشخصية. والثانى من المنطلق الأخلاقى حيث يتعين على كل فرد تطوير ذاته إلى الأفضل لتحقيق أهدافه. ينص مذهب الأنانية الأخلاقية Ethical Egoism على مبدأ: (مبرر أخلاقيا أن يتصرف الفرد فى ضوء مصالحه، وأنه كلما فعل الفرد هذا أكثر عاش حياة أفضل)، ويمكن أن تأخذ هذه المصالح شكل إشباع الرغبات والاحتياجات. وبالرغم من أن الكثير من أفعالنا قد تبدو مغلفة بالإيثار ومصلحة الآخرين، وأنها لا تخدم مصالحنا بصورة مباشرة، إلا أن قراراتنا فى الواقع تعود علينا بمنافع مادية أو سيكولوجية بصورة غير مباشرة، وهو الأمر الذى يتضمن نوعًا من خداع النفس بصورة مقبولة ومحببة لنا لتجميل صورتنا أمام أنفسنا وأمام الآخرين. والأنانية عكس الإيثار Altruism أى حب الغير والعمل لمصلحة

الآخرين. تتلازم الأنانية وتتوافق مع مذاهب أخرى عديدة، مثل: مذهب المتعة ومذهب الفردية Individualism والتى تعتقد فى أن جميع القيم والحقوق والواجبات تنبثق من الإنسان كفرد، وأن مصالح الفرد يجب أن تكون فوق كل اعتبار.

آثار توماس هوبز فى القرن السابع عشر معضلة الصراع بين الأنانية والإيثار، ورفض هوبز فلسفة افلاطون وأرسطو، وأفكار العقائد المسيحية التى تزعم بأن الخير الكامن فى الفرد يتطابق مع السعى لتحقيق الخير الأقصى للبشرية. ذهب هوبز فى فلسفته إلى أن السلوك الإنسانى يحركه المصلحة الشخصية، حتى الخير الظاهر للآخرين يكون وراءه فى الحقيقة مصلحة شخصية من فاعله، فالطبيعة البشرية قائمة على المصلحة الفردية وأنانية الذات. يتوافق مذهب الأنانية مع مذهب الإيثار/حب الآخر، فى الرأى بأن الطبيعة البشرية تحوى كل من الأنانية والإيثار، وأن على الإنسان أن يسعى لتدعيم حب الآخر مع قبول مبدأ الأنانية. قام هنرى سيدجويك فى القرن التاسع عشر بمحاولة لتحليل موضوع القيم الأخلاقية وجادل فى أن كل من الأنانية والإيثار كائنين فى الذات البشرية، ولا يمكن التوفيق وتسوية الصراع بينهما إلا عن طريق العقيدة الدينية.

تأخذنا العقيدة الدينية إلى مذهب الجزمية/الدوغماتية Dogmatism ، والذى يعتقد فى أن تأكيد الرأى والقطع بصحته - خاصة فى مواضيع العقيدة والإيمان والدين - يجب أن يكون بدون مبرر أو إثبات كاف، فالعقيدة فى هذا المذهب نابعة من إيمان داخلى كائن فى ذات الإنسان، ولا يحتاج إلى براهين نظرية أو تجارب علمية لإثبات أو نفى قواعده وتعليماته، إن الإيمان بالدين يجب أن يعتنقه الإنسان دون النزوع إلى أى شك أو لحظة تردد.

الغائيــة Teleology

اشتقت كلمة الغائية فى اللغة الإنجليزية من الكلمة الإغريقية Telos بمعنى نهاية. ويعتقد أنصار النموذج "الغائى" بصورة أساسية فى أن كل المخلوقات الإنسانية لديها غاية طبيعية أو هدف يميلون - بشكل مثالى - إلى الاتجاه نحوه أو تطويره. ويمكن أن تكون الغاية دنيوية، وهى الحالة التى يمكن أن يكون فيها الهدف الطبيعى للمخلوقات البشرية هو الاستمتاع بحياة طيبة فى مجتمع عادل، أو تجاوز تلك الحالة بالوصول إلى السمو الروحى والتأمل الفكرى. ويمكن للغاية أن تتحد أيضًا فى إطار لاهوتى، وهى الحالة التى يمكن أن تتحدد فى المتعة الأبدية بعد الحياة الدنيوية. ومن خلال الفكر الدنيوى للنموذج الغائى، يكون الأفراد مطالبين بأن يعيشوا حياتهم وفقا لقواعد مجتمع عادل وأن يكونوا فاضلين أخلاقيًا وأن يناضلوا من أجل نماذج السعادة المركبة للحياة الاجتماعية والكمال الفكرى. أما النسخة اللاهوتية فتنص على أنه ينبغى على الناس تعديل أنماط حياتهم ليتسنى لهم تلقى الحكمة التى يسلمها لهم آباؤهم والسلطات الدينية.

إن المذهب الغائى يفسر الشىء أو الحدث بالغرض من وجوده، أو الهدف من ورائه، أو النهاية التى سيؤول إليها الشىء أو الحدث وأصبح موجودًا، أو الشىء أو الحدث اللازم من أجل الوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية. كمثال لذلك ما يذهب إليه البعض فى الأديان السماوية بأن الله قد خلق الإنسان ليعبده، وأن العين وجدت ليتعرف بها الإنسان على البيئة المحيطة، وأن الله خلق الاختلاف فى الشعوب لكى يتعارفوا. بدون شك فإن الفلسفة الغائية تقدم تفسيرًا منطقيًا لفعل الإنسان الشعورى. ولكن تبالغ هذه الفلسفة أحيانًا، بمد مجالها على العمليات اللاشعورية فى الإنسان والحيوان والنبات، والأشياء غير الحية أو فاقدة الوعى أو غير القادرة على الحركة Inanimate. تذهب الفلسفة الغائية الى أن نجاح تحقيق الهدف يحقق معنى

الغائية، أما الفشل فى تحقيق الهدف لا يعتبر غائيًا ولكنه هو مجرد اختبار لوجود الشىء، ويمكن تفسير فعل هذا الشىء لذاته فقط أى أنه فعل مجرد ليس له هدف أو غاية. تنظر الغائية إلى المبادئ الأخلاقية كنتيجة نهائية، وإلى أحقية الفعل فى أن نطلق عليه صواب/ خطأ، أخلاقى/غير أخلاقى، ولكن لا تقوم الغائية بتفسير أسباب حدوث الفعل.

يعتبر الإنسان البدائى القديم غائيًا بالطبيعة، ينسب غاية غامضة ومبهمة بالنسبة له - فى ذلك الحين - لأى ظواهر طبيعية مثل شروق الشمس وغروبها، والبرق والرعد والمطر، . . . إلخ، أو لأى ظواهر حياتية مثل: الولادة والمرض والموت، . . . إلى آخره من الظواهر التى يحيا بها الإنسان منذ ولادته حتى وفاته، فغاية الظواهر التى تضر الإنسان هى عقاب من القوة الغامضة أما غاية الظواهر التى تفيده فلأن القوة الغامضة راضية عنه. ولكن مع تطور العلم، وارتباط الفلسفة بالعلوم الطبيعية، ظهر فرع جديد فى الفلسفة يسمى بالفلسفة التحليلية والتى رفضت فكرة الغائية بالرغم من تقبلها فكرة السببية، زاعمة أن المذهب الغائى ليس فقط غير واضح وغير عقلانى، بل هو أيضًا مبهم ومتناقض ومتعارض مع العلوم الحديثة. هاجم أيضًا أصحاب المذهب البيولوجى والتطور الطبيعى الأسباب الغائية التى أيدها مذهب الحيوية Vitalism، والذى يدعو إلى أن الحياة مستمدة من مبدأ حيوى وأنها لا تعتمد اعتمادًا كليًا على العمليات الفيزيائية والكيميائية.

النسبية Relativism

وهو مذهب يؤمن بنسبية أى شىء، وأن الحقيقة نسبية وتتفاوت تبعًا للفرد بشخصيته الفريدة، والزمان، والظروف، والبيئة المحيطة. فى الطرف الآخر من النسبية يجىء المطلق Absolute، وتعنى هذه الكلمة فى الفلسفة: الكامل فى ذاته والذى يحوى كل شىء، الأصلى/الأصيل، غير المشروط Unconditioned، والحقيقة النهائية - الحقيقة المطلقة

Ultimate Reality، والتى ينسب إليها كل شىء، ولا تنسب إلى شىء. المطلق فى العقائد الدينية وفى علم اللاهوت هو الخالق سبحانه وتعالى، الإله، الرب، القادر على كل شىء ولا يقدر عليه شىء.

أشارت الفلسفة الأخلاقية للفيلسوف الألمانى كانط للمطلق: كقاعدة إلزامية مطلقة ومشروطة بكل المواضيع العقلانية. أيضًا استخدم هذا المصطلح فى الفلسفة الهيجيلية المحدثة فى أواخر القرن التاسع عشر.

المذهب الذرى Atomism

مذهب فلسفى يعتقد أن الوحدات التى لا تتجزأ Indivisible Units وغير القابلة للانقسام هى الحقيقة المطلقة للعالم الفيزيائى المادى Physical Universe، وأن كينونة هذه الوحدات يمكن تحليلها وتصورها كجسيمات مواد Material Particles، وأن العالم المادى يمكن تقبله - من منظور الفكرة - كشىء شامل لجميع الحقائق. اعتقد الفلاسفة الإغريق: لوسيبوس، وديمقراطيس وأبيقريوس فى القرن الخامس قبل الميلاد أن جميع الحقائق المطلقة تتكون من عدد لا نهائى من الجسيمات المادية التى لا يمكن تجزئتها أو اختراقها للوصول إلى ما بداخلها، وأن هذه الجسيمات أو الذرات لا يمكن رؤيتها، ولكن يختلف بعضها عن البعض الأخر فى الحجم والشكل. ينتج عن التصادم العشوائى لهذه الذرات حركة دوامية Vortices، أو حركة دورانية سريعة Whirls، كما أن الذرات المتشابهة تتجمع معا لتكون جسيمات المادة، والتى تتجمع بدورها لتكون الأشكال والصور المختلفة للعالم المادى.

إن العدد الذى لا يحصى من الأشياء المادية فى هذا الكون المترامى الأطراف هى نتيجة للتجميعات والتركيبات المختلفة للذرات، وعليه يمكن اختصار كل الاختلاف النوعى Qualitative Differences للأشياء المادية فى

اختلاف كمى Quantitative Differences، وحركة ميكانيكية. أما الروح فى منظور هذا المذهب فما هى إلا ذرات غاية فى الدقة والبراعة Subtlest Atoms، والحذق والمهارة. يأتى الاختلاف والتنويع فى هذا الكون من التوزيع المتغير للذرات، والتشكيل المختلف للجسيمات.

من خلال المفهوم السابق، وجد الفلاسفة الذين اعتنقوا هذا المذهب بأنه لا حاجة للتصنيف النوعى للذكاء، أو لوجود عقائد دينية، فكل اختلاف نابع من التشكيلات المختلفة للجسيمات المادية. توارى المذهب الذرى كفلسفة بعد ظهور المسيحية فى أوروبا، ولكنه عاد مرة ثانية مع عصر العلم الحديث فى القرن السابع عشر على يد أصحاب المذهب الآلى، ثم توارى مرة أخرى بظهور الفلسفات التطبيقية والبرجماتية الحديثة.

مذهب الآلية Mechanism Doctrine

يتعامل هذا المذهب الفلسفى مع الكون ككل، ومع جميع مكوناته كآلة. فى هذا المذهب يمكن وصف الكون ومنظومته وتفسير ظواهره من خلال نظام آلى. يشمل هذا المذهب المحاور التالية:

* حتمية الحدث، وأن الشىء مجبر على ما هو عليه.
* أسباب فعالة وذات كفاءة متناهية.
* أن الأحداث تسير وفقًا لقوانين.
* خاصية التجميع والتركيب، أى أن الشىء ينتج من الأجزاء المكونة له، ووظيفة الشىء هى ناتج وظائف أجزائه.

إن الأشياء وأجزاءها/مكوناتها هى عبارة عن مادة أو أشياء طبيعية Material or Physical، ومن ثم فهى قادرة على الحركة والامتدادية ويمكن قياسها ووصفها داخل المنظومة الكونية العظمى.

انتشر هذا المذهب فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر فى عصر العقل وبداية الاكتشافات العلمية فى مجال الفيزياء، والكيمياء، والفلك، والرياضيات. كان من أنصار هذا المذهب الفرنسى رينيه ديكارت، والرياضى بير لابلاس الذى زعم أنه إذا توفرت للإنسان عقلية فائقة وخارقة، فعن طريق الحسابات الرياضية يمكن معرفة جميع الأحداث من لحظة الخلق والتكوين وحتى نهاية الكون.

يعارض المذهب الآلى أية فلسفة أخرى تعتقد فى وجود أى تمثيل أو عامل جوهرى بخلاف العوامل الفيزيائية والميكانيكية. لا يعترف أصحاب هذا المذهب بأن التغير فى الفكر العلمى يمكن أن يؤثر فى الحقيقة، ولكنهم يسلمون بأن الحقيقة قد تفسر الدرجات المتفاوتة للمثالية الميكانيكية. يظهر التناقض الواضح فى منطقية هذا المذهب فى أنه بينما يفسر الحياة والعقل كقياس تمثيلى مشابه للماكينات الآلية Automatic Machines، فإن الماكينات الآلية نفسها تنشأ من أجل أغراض الحياة المادية والعقلية، فالبشر هم الذين اخترعوا الآلة فى المصنع لتصنيع سلع ومواد لاستعمالها فى منظومتنا الحياتية، والحاسب الآلى قد اخترعه الإنسان من أجل راحة مجهوده الذهنى. قد يكون الكون والمنظومة الحياتية تأخذ فى كثير من الأحيان النمط الآلى، ولكن عدم الانتظام أيضًا قائم فى منظومة غير محددة وغير مؤكدة اليقين إلا للخالق.

الحياتية Vitalism

هى حركة مضادة للفلسفة الآلية، ولدت فى القرن السابع عشر تمردًا على الثورة العلمية، وانقلابًا ضد الفيزيقية من عصر جاليليو إلى عصر نيوتن. كانت الحياتية تقاوم مذهب أن الحيوان الإنسان ما هو إلا آلة، وأن كل مظاهر الحياة يمكن تفسيرها بالكامل بأنها مادة فى حالة حركة. رأى معتنقى مذهب الحياتية أن قيام الحياة مرتبط بوجود مادة خاصة غير موجودة فى الجماد، أو أن الحياة تكمن فى قوة خاصة مختلفة عن القوى الفيزيائية. تماشت الحياتية

مع الغائية فى أن الحياة وجدت لتحقيق غاية قد تنتهى فى الدنيا الحاضرة أو تمتد إلى العالم الآخر، أى ما بعد الموت. انهارت الحياتية فى الربع الأول من القرن العشرين كنتيجة لتطور علم الأحياء، والانحسار التدريجى لفكرة أن بنية الكائنات الحية تتألف من مادة خاصة مختلفة تمامًا عن المادة غير الحية.

حتمية البيئة Environmentalism

يؤكد مذهب حتمية البيئة على تأثير المحيط الطبيعى والثقافى فى نمو الكائن الحى وفى سلوكه وعلاقاته مع البيئة والمجتمع. تذهب حتمية البيئة أيضًا إلى أن النظم الثقافية والاجتماعية تنشأ وفقا للبيئة الطبيعية / الفيزيائية. إن التكوين النفسى والجسدى للإنسان الذى يعيش فى الصحراء الممتدة الآفاق وبصفاء سمائها وندرة مياهها، يختلف - إلى حد ملموس - عنه فى الإنسان الذى يعيش فى جزيرة منعزلة ومحاطة بالمياه. وكذلك يختلف إنسان الغابات التى تمتلىء بالضوارى والحشرات، عن الإنسان الذى يعيش فى بيئة جليدية تطغى على الإنسان روح الهدوء والبرود. أيضًا يحتم نوع العمل الذى تفرضه البيئة على الإنسان، التميز فى الشخصية، ونمطية سلوك العمل إلى حد ما، فالبيئة تفرض على الإنسان سلوك يتغير بتغير المكان والزمان.

المواطنة العالمية Cosmopolitanism

يرمى هذا المذهب - الحديث إلى حد ما - إلى التحرر من الأحقاد القومية، واعتبار الإنسانية أسرة واحدة وطنها العالم وأعضاؤها أفراد البشر جميعًا، دون اعتبار لاختلافهم فى اللغة أو فى الجنس أو فى الوطن أو فى العقيدة/ الدين. انتشر هذا المذهب فى العقدين الماضيين تحت اسم العولمة Globalization، وتحت اسم الانفتاح (اقتصادى، وثقافى، . . . . .) أصبحت فكرة المواطنة العالمية بديلا للمحلية Localism.

المذهب الإدراكى Conceptualism

يتعامل المذهب الإدراكى مع وجود الكون كمفهوم عام تمثل فيه المنظومة البشرية Human System، أو الحقيقة كأشياء موجودة فى العقل أكثر منها أشياء موجودة فى الطبيعة. يتواجد المذهب الإدراكى فى منتصف الطريق بين وجهتى نظر تقعان فى الطرفين المتناقضين وهما الواقعية Realism التى تعتقد فى الواقع القائم، والاسمانية Nominalism التى تعتقد فى أن المفاهيم المجردة ليس لها وجود حقيقى وأنها مجرد أسماء ليس إلا. كان أفلاطون - كفيلسوف واقعى - يعتقد أن الكون يوجد كشىء موضوعى Objective ويمكن إدراكه بالحواس فى طبيعة خارج منظور العقل غير الموضوعى Objective Mind. إن المذهب الإدراكى يوافق على وجود الفكر العام أو المفهوم العام Common Sense، ولكن هذا الوجود قائم - فقط - فى عقولنا الشخصية/الفردية. أما الاسمانيين فلا يعتقدون فى الوجود الشامل للكون، لا فى الطبيعة أو فى العقل، فالإنسان هو الذى أعطى لكل شىء، أو لأى صورة ذهنية فى المخ اسمًا عرفها به ويتعامل مع هذه الصورة الذهنية من خلال ما تداول من أسماء.

فلسفة اللاأدرية أو (اللاأدرى) Angosticism

هى شكل من مذهب الشك الذى يدافع عن قصور العقل البشرى الذى يخلو من المعلومات والقدرة العقلية للحكم على الحقيقة القصوى والمجردة، وبالأخص عن وجود طبيعة الخالق. صاغ هذا التعبير فى اللغة الإنجليزية هكسلى فى القرن التاسع عشر من حرف (a) لنفى الكلمة اليونانية Gignoskein بمعنى المعرفة. بخلاف الإلحاد Ateism وإنكار وجود الله، فإن فلسفة (لا أدرى) لا تنكر حقيقة "الله" وتعتقد فى وجود الخالق، ولكن لا يستطيع العقل البشرى تصور كينونته.

بدأت اللاأدرية فى عصر ما قبل سقراط، وأيضاً فى عهد أفلاطون مع الفلسفة السفسطائية بإثارة أسئلة الشك، منكرين أى إمكانية للمعرفة الموثوق فيها واللانهائية اليقين. أما فى العصور الحديثة، فقد عادت هذه النزعة مع فلاسفة الشك فى بداية عصر العقل فى أوروبا فى القرن الثامن عشر. لقد أنكر الفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم صواب أى أفكار خاصة بالميتافيزيقيا، وبالأخص رفض البراهين والدلائل للاعتقاد فى "الرب" ومعجزاته، أو فى الخلود والحياة الأخرى. ولكن فى نفس الوقت اقترح هيوم بأن يكون تناول قضية الإيمان، بعيداً وغير مرتبط بالبراهين التجريبية. ثم جاء الفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر فى نهاية القرن التاسع عشر برفض العقيدة التقليدية، والتصور الدارج لوجود (الرب) مشيراً إلى: (إن القوة التى تظهر الكون لنا، وتوصل للبشر إدراكهم به هى قوة غامضة تماماً). وأخيراً جاء الوقت ليقوم عالم البيولوجى الإنجليزى توماس هنرى هكسلى بصياغة تعبير "اللاأدرية". لقد ناهض هكسلى قبول آية أفكار أو معتقدات بدون براهين ثابتة ومؤكدة. انطفأ توهج فلسفة (لا أدرى) فى القرن العشرين - بالنسبة للقرن السابق عليه - بالرغم من انتشارها واعتناق الكثيرين لها فى الحضارة الغربية. لا ينتهى القرن العشرين إلا بصعود التزمت الدينى والسلفية والرجوع إلى الكتب السماوية. من سخريات منظومة الجنس البشرى تزامن الرجوع إلى التدين مع زيادة العنف والقتال والإرهاب، بالرغم من أن جميع الأديان السماوية والمعتقدات غير السماوية تدعو إلى التسامح، والمحبة، والعفو عند المقدرة، والإخاء. ولكن هل رجوع الغربى أو الشرقى إلى الدين، كان بمفهوم صحيح أو مفهوم ارتضاه الإنسان الحديث لتبرير غريزة القتل والعنف؟

الفوضوية Anarchism

يعتبر مذهب الفوضوية مثل مذهب البيئة، هى فى جزء منها فلسفة رومانسية. والفوضوية هى فلسفة تعمل ضد التنظيم الدينى وتنادى

بالبروميثيوسية Prometheam، أى إلى الابتكار وإلى خيال النفس المبدع الذى يصوغ القانون الخاص به ويشكله.

ينادى أيضًا المذهب الفوضوى برفض فكرة الحكومة، أو إلى النظم السياسية التى تنظم الحكم، ولكن يجب أن تتبع الشعوب الواقع الفعلى القائم على استمرار التغيير والتطوير. غالبًا تكون الأساطير وثيقة الصلة بترابط المجتمع وتماسكه، ولكن هذه الأساطير نادرًا ما تكون هى نفسها متماسكة، لذا فالقوانين التى تثبت تماسك المجتمع غير واقعية. كانت الفوضوية مثل الشيوعية لهما جاذبية ساحرة على الدوام، فالإنسان تحوى جزء من ذاته الثورة التى تطالبه بأن يثور على المألوف - حتى وإن كان لحين - ثم العودة إلى الوضع الطبيعى والتقليدى السائد مرة ثانية.

العدمية Nihilism

مذهب فكرى ليبرالى نبع من روسيا فى منتصف القرن التاسع عشر، له نزعة إنكارية ترفض كل شىء، ولا تعترف بفكرة القيم والمثل والتقاليد والقوانين والمبادئ الأخلاقية فى المجتمع، كما تنكر وجود الحقيقة بجميع أشكالها وأنواعها، كما لا تعترف بقدرة الإنسان على فهم الواقع، فكل شىء فى حكم اللاوجود، والمبدأ فى أى شىء هو العدم، وحيث إن أصل الأشياء هو العدم فلا يتوالد من العدم إلا العدم. كمذهب ليبرالى متحرر عارضت العدمية المذهب الفاشستى Authoritarianism الذى يؤمن بإخضاع الفرد وحقوقه - شاملا المجال الأخلاقى والسياسى والدينى - إخضاعًا كاملاً لسلطة ومصلحة الدولة، كما عارضت العدمية النزعة العاطفية والرومانسية. تحمست العدمية للمذهب المادى، مقتنعة بأن الفكر العلمى يجب أن يقود الإنسان فى الحياة، متأكدة من أن الأدب والفن لا قيمة لهما، وليسا مخصصين للحياة الاجتماعية، أو للأهداف الثورية.

إذا كان مصطلح العدمية قد انتشر بعد أن جاء فى رواية للكاتب الروسى إيفان تور جنيف عام ١٨٦٢ تحت اسم "آباء وأبناء"، فإن مذهب العدمية قد أخمد سريعًا، تاركًا آثاره على النزعات العدوانية، والمذاهب التى تدعو إلى التحرر من سلطة الدولة، وسلطة المجتمع والتقاليد. استمرت العدمية فى محاربة النزعة الجمالية فى أوروبا وفى المجتمع الروسى على وجه الخصوص، مؤكدة دور العلوم فى سيادة النظم الحياتية.

الواقعية Realism

هى مذهب فلسفى يقر بأن للمادة وجود حقيقى مستقل عن إدراكنا العقلى لها. كمثال على ذلك. فالمادة فى الحقيقة ليس لها لون ولكن اللون يتأتى من سقوط الأشعة على الشىء فتمتص المادة بخصائصها المميزة جميع أشعة الطيف عدا نوع واحد تعكسه فترى العين هذا الشىء بلون الطيف المعكوس، فبذلك تكون للمادة المرئية - التى ليس لها لون - وجود مختلف عن إدراكنا العقلى لها، برؤيتنا لها كمادة ملونة.

الاسمانية Nominalism

هى مذهب فلسفى يذهب إلى أن المفاهيم المجردة أو الكليات، ليس لها وجود حقيقى، وإنما هى مجرد أسماء لا غير، ويميل هذا المذهب إلى العبثية، أى لا يوجد أى معنى أو وجود لأى شىء.

المذهب التجريبى Empiricism

التجريبية مذهب فلسفى يؤكد على أن المعرفة الإنسانية كلها مستمدة من التجربة، وتقلل من وظيفة العقل فى التحصيل والاستنتاج والتفكير بصفة عامة. يتعامل هذا المذهب مع نظريتين أساسيتين وهما نظرية المعنى والمدلول

Theory of Meaning، ونظرية المعرفة Theory of Knowledge. جرى العرف فى بداية عصر العقل فى أوروبا أن يتناول الفلاسفة نظرية المعنى من منظور الأفكار والإدراك والمفهوم. وفى القرن العشرين شكل أصحاب المذهب التجريبى نظرية للمعنى من منظور التجارب التى تحدد ما إذا كان الإدراك والمفهوم قد طبق فى الوضع أو المسار الصحيح أو قد وضع فى المكان الخاطئ. يعتقد التجريب أنه من الممكن أن نتخيل ونتفهم الروح كسيال متدفق من التجارب الشعورية، أما المادة فما هى إلا نموذج للخاصية الإحساسية. أما بالنسبة لنظرية المعرفة، فهى تعتبر المعلومة والمعرفة أساس ومنشأ الإدراك. ينكر المذهب التجريبى على الإنسان قدرته على الحدس العقلانى، ولكن استطاع أن يحصل على المعرفة والمعلومات والتميز ما بين الخطأ والصواب، من خلال الملاحظة والتجربة.

الذاتينية Subjectivism

هى نظرية فلسفية تعزو إلى العقل الفردى أو الموضوع وما يرتبط بهما - من إحساس Sensation، وافكار، ومواقف، وشعور، وعواطف - التفوق والامتياز عن دون جميع مخلوقات الكون. كما تنسب النظرية إلى المعرفة نفس الدرجة من الامتياز والتفوق، وأنها نابعة من الخبرة الذاتية. تشابه الذاتينية المتطرفة مذهب الأنانية Solipsims الذى يرى أنه لا يوجد وجود لشىء إلا الأنا، أما الذاتينية الأقل تطرفًا، فترك مجالاً للمعرفة الخارجية والعقول الأخرى للتأثير فى العقل الفردى.

انتشرت الذاتينية فى بداية العصور الحديثة، خاصة القرنين السابع عشر والثامن عشر على يد معظم الفلاسفة الكبار الذين شاركوا بفلسفتهم فى هذا الوقت، مثل: جاليليو، وتوماس هوبز، ورينيه ديكارت الذى قال: (أنا أفكر، إذًا أنا موجود I Think, Therefore I am)، وجون لوك، والفيلسوف الإنجليزى جورج بيركلى الذى قال: (إن كل الواقع فكرة فى عقل الله).

جادل بيركلى فى أن طبيعة وصفات الأشياء الخارجية وبالتالى الأشياء نفسها ما هى إلا مجموعات Collections من هذه الأشياء توجد - حتى الآن - كما تدرك بالشعور الموضوعى (To Be is to Be Perceived). من هذا الأساس أنشأ بيركلى الميتافيزيقيا المثالية التى أنكرت وجود جميع الأشياء المادية، وقصرت الحقيقة على العقل والأفكار فقط.

فى القرنين التاسع عشر والعشرين حول المذهب المثالى Idealism - والذى كان يرى أن الحقيقة المطلقة كامنة فقط فى عالم يتعدى عالم الظاهر، وأن الطبيعة الأساسية للحقيقة كامنة فى العقل - مذهب الذاتية لديكارت وبيركلى إلى المثالية المتعالية Transcendental Idealism. تذهب الفلسفة المتعالية Transcendentalism إلى أن اكتشاف الحقيقة يتم بدراسة عمليات الفكر وليس عن طريق الخبرة أو التجربة. كانت هذه النقطة هى بداية المثالية المطلقة Absolute Idealism فى فكر فشته، وهيجل، وشوبنهاور. كان الفكر الفلسفى فى القرن العشرين ضد مذهب الذاتية، وقاد الثورة على هذا المذهب جورج إدوارد مور، وبرتراند راسل، وتشارلى برود، والفريد وايتهيد.

مذهب وحدة الوجود Pantheism

تعنى الوحدانية فى الفلسفة أن الله والطبيعة شىء واحد، وأن الكون المادى والكائنات الحية - شاملة الإنسان - ما هى إلا مظاهر للذات الإلهية. اشتقت هذه الكلمة فى اللغة الإنجليزية من كلمتى Pan بمعنى الكل، Theos بمعنى "الرب". يقع هذا المذهب ما بين المذهب الإلحادى Atheism الذى ينكر وجود "الرب"، وبين المذهب الدوجماتى/التوحيدى Dogmatic Theism بمعنى التوحيد والإيمان بوجود إله خالق واحد، حيث إن كلمة دوجماتى تعنى العقيدة الدينية، وكلمة Theism تعنى الإيمان بوحدانية الخالق.

تتناول الفلسفة فكرة وجود "الرب" وكينونته من خلال ثلاثة اتجاهات: الأول ينكر وجوده من الأساس، والثاني يعتقد فى أن الرب هو خالق الكون ومسبب جميع الأشياء - أى هو الذى يُسَيِّر بذاته الإلهية كل شيء - ولكنه لم يفسر لنا طبيعة العلاقة بينه - كسبب - وبين الوجود المادى كمؤثر. أما الاتجاه الثالث فيذهب إلى أن الخالق قد خلق الكون فى البداية ثم ترك طبيعة الأشياء تأخذ مجراها فى إيجاد الحوادث والمسببات والتأثير وذلك لتسير الكون بالطبيعة الآلية، أى يرجع السبب للتأثير ومنه للسبب، وعلى الفكر البشرى أن يستنتج العلاقة بين السبب والتأثير. يعتبر الاتجاه الثالث هو منبع تفسير مذهب وحدة الوجود Pantheism، كما يمكن اعتبار أن فكرة/ منظور "الرب" فى عقيدة التوحيد Theism وفى مذهب وحدة الوجود Pantheism نابعان من أصل واحد. يفترض مذهب وحدة الوجود تطابق وتماثل السبب والتأثير، حيث إن السبب يؤدى إلى التأثير (كنتيجة للسبب) ويعقبه السبب (كنتيجة للتأثير). إن المادة، والفكر، وجميع مخلوقات الكون الحية وغير الحية، هى نتيجة الانبثاق Emanation من الألوهية Deity. تتضمن وحدة / وحدانية الكون من جميع المخلوقات والتشكيلات المختلفة، والتى يمكن تفسيرها من خلال النتيجة التى ستؤول إليها، وعليه فإن كل شيء موجود يحوى فى كينونته تفسيرات وجوده والتى يمكن أن يفسرها الذى يستقبل Receiver وجود الشيء - بمعنى الإحساس بوجود الشيء - حسب قدرات وإمكانيات المستقبل.

المثالية Idealism

المثالية كمذهب عام متعدد الأبعاد: فى الفلسفة، والأخلاق، والفن، وعلم النفس، اشتق مصطلح المثالية فى اللغة الإنجليزية من مصدرين، الأول بمعنى الفكرة Idea التى تنشأ فى العقل، حيث يمكن إدراك وفهم العالم المادى - فقط - كنتيجة للعقل والروح أو التجربة. إن كل أشياء الكون ليست

إلا صوراً ذهنية، وإن العقل هو الحقيقة المطلقة بينما الأشياء الأخرى هى أفكار تتشكل وتفسر فى العقل. من المصدر الآخر تشتق المثالية من كلمة مثالى Ideal بمعنى الكمال. عرف الدكتور حسين عبد القادر مصطلح المثالية فى "موسوعة علم النفس": (تمتد معالجته من أفلاطون عندما رأى أن المثل هى وحدها الموجودات الحق وما الأشياء غير أشباح لها وهو ما اصطلح على تسميته بالمثالية الأنطولوجية. وهو فى الأخلاق يعنى تلك المبادئ العامة التى تعتبر أساساً للأخلاق كغاية فى ذاتها والتى ينبغى أن يكون السلوك الإنسانى نابعًا منها ومستهديًا بمعاييرها. بينما تقوم المثالية فى الفن كمدرسة بذاتها لا ترى فى الفن منطلقًا للمحاكاة بل هو تعبير وتأكيد لمثل أعلى مكافئ إلى حد كبير لنزعة الكمال Perfectionism، تلك الخاصية التى قد تتسم بالوسواسية وتميز النمط الوسواسى وقد تكون تكوينا عكسيا لخبرات طفلية مناقضة لها، وهى فى الآن نفسه قد تكون نوعًا من الإعلاء لدى أولئك المثاليين الذين يبغون تحقيق المثل العليا ويسعون دومًا للعمل على بلوغها).

كان أفلاطون هو أول من ذهب إلى هذا الاتجاه فى استيعاب فكرة الكون، ولكن كانت أفكاره عامة وليس لها صفة التحديد. كانت مثالية أفلاطون تنصب على الطبيعة الروحانية للواقع، وتقليص الطبيعة المادية للحالة الظاهرة. تطورت مثالية أفلاطون بواسطة (الأفلاطونية المحدثة) Neoplatoism والتى ظهرت فى القرن الثالث الميلادى، وفيها تفاعلت فلسفة أرسطو مع المفاهيم الشرقية لتكوين منظور قريب من الصوفية التى انتشرت فى بلاد الشرق. أثار شكاكو Skeptics القرن الثامن عشر - الذين شككوا فى أمور الدين - بعض الخلافات والمناقشات بخصوص المثالية الحديثة، وكان من هؤلاء الفيلسوف الأيرلندى جورج بيركلى الذى كان يرى أن الأشياء المادية ما هى إلا أفكار تتكون فى العقل. أراد الشكاكون تحرير العقل من الأمور غير الجوهرية، بينما كانت المثالية الحديثة تذهب إلى تكوين صور روحية، أو على الأقل تكوين صور منطقية وعقلانية للكون.

يعتبر المذهب المادى Materialism هو الاتجاه المعاكس للمثالية، ففيه تكون المادة هى الحقيقة المطلقة، والتى ينسب إليها العقل ويتأثر بها. تختلف المثالية أيضًا عن الواقعية Realism والتى تذهب الى أن الكون والأفكار المجردة لا تعتمد على العقل. ظهر فى منتصف القرن التاسع عشر مذهب آخر مماثل للمثالية، يرى أن العالم المادى يمكن إدراكه واستيعابه بواسطة العقل ولكن من خلال التجربة الحسية أو التجربة العقلية. فى العادة تصنف المثالية إلى مثالية موضوعية يمكن إدراكها بالحواس Objective Idealism، ومثالية تقوم بتحليل الشىء المادى كنتيجة نهائية للخبرة الإنسانية Subjective Idealism. والمثالية كمذهب عام يرتبط بالعقلانية Rationalism كبعد معرفى يركز على المعرفة الاستدلالية، والعلم التجريبى. ولا يعترف المذهب التجريبى على الغيبيات، أو إلى نظريات ما وراء الطبيعة Metaphysics. تقارب المثالية الموضوعية مذهب الظاهرانية Phenomenalism الذى يقصر المعرفة على الظاهر فقط، فالأمور والأشياء الظاهرة هى وحدها التى تحدد الحقائق. يتقارب مذهب المثالية مع مذهب وحدانية الكون Pantheism القائل بأن الخالق والطبيعة وجميع الكائنات الحية شىء واحد، فالكون المادى والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية. يختلف مذهب المثالية عن مذهب اللاأدرية - لا أدرى - Agnostic الذى يقوم على استحالة معرفة الحقيقة المطلقة، فطبيعة الأشياء أو حقيقة وجودها كلها أمور مجهولة للإنسان.

الفلسفة التطبيقية Applied Philosophy

بدأت الفلسفة التطبيقية فى الظهور بصورتها الحالية فى الخمسينات والستينات من القرن العشرين من المحاولات الثقافية والعالمية المختلفة للتعامل مع أخلاقيات الحياة الفعلية والمشكلات الاجتماعية والسياسية التى كان يتم تجاهلها قبل ذلك. أصبحت الحقوق الطبيعية أو الإنسانية هو أحد الموضوعات التى تتمتع حديثًا بوضع جديد فى المجال الفكرى والفلسفى، ومنها المساواة

والعدالة، والحقوق القانونية، والتفرقة العنصرية، والشذوذ/المثلية، وحقوق الذين لم يولدوا بعد وحقوق بعد الوفاة، وحقوق الأقليات، والجنوسة Gender، وحق المريض فى إنهاء حياته أو ما يسمى بالموت الرحيم وذلك من مبدأ أن للإنسان الحق فى إنهاء حياته أو أن يذهب هذا الحق إلى أقرب قريب له فى حالة دخول المريض فى غيبوبة غير قابلة للإفاقة، والحق فى الإجهاض، وأخلاقيات الحرب، وأخلاقيات استنساخ الإنسان واستنساخ الأعضاء البشرية والهندسة الجينية، وغيره من المواضيع التى لم تتطرق إليها الفلسفة من قبل.

ظهرت فى إطار المناقشات الثقافية التى صاحبت بزوغ الأخلاق التطبيقية، خطوط تقليدية فى التفكير حول الأخلاق الفردية. كان أهم هذه الخطوط هى الأخلاقيات الغائية Teliological، والأدبية/الأخلاقية Deontological، والتراتبية/المنطقية Consequentialist، وجميعها مسارات تمدنا بإجابات مختلفة عن السؤالين الأساسيين:

- ما هى الطبيعة الإنسانية؟

- كيف ينبغى على الأفراد أن يتصرفوا من أجل أن يكونوا أخلاقيين؟

إذا كانت الغائية تذهب إلى أن الإنسان له غاية طبيعية أو هدف - دنيوى أو دينى - يميل إلى الوصول إليه، فإن وجهة النظر الأخلاقية/الأدبية - والتى تشترك مع بعض أشكال التفكير الغائى - تعتقد فى وجود مبدأين متصارعين يحكمان السلوك الإنسانى وهما الرغبات والحس الأخلاقى، وأن الإنسان ينبغى عليه أن يجد الدليل أو المرشد الأخلاقى الذى يحتاجه ويميل إليه فى مسيرته الحياتية. يأمرنا العقل والمنطق Reason باتباع القانون الأخلاقى، وهو فى العادة يعمل ضد رغبة الفرد، بينما يميل الاتجاه العاطفى إلى منظور آخر وهو أن المشاعر والأحاسيس Feeling هى التى تخبرنا بما يجب أن نفعله فى المواقف المختلفة. إن الطريقة التى يرى بها أنصار التفكير التراتبى والرفاهية، هى أنهم يريدون تجنب الألم والمعاناة والتعاسة والشقاء.

فالأفراد مؤهلون - بالغريزة - بقدر متساو للأنانية/الذاتية، مثلما هم مؤهلون للإيثار وحب الآخرين، بمعنى أن الإنسان قادر على التفكير فى سعادته ورفاهيته مع المحاولة فى أخذ سعادة الآخرين فى الحسبان.

تتركز أهم الأسئلة الأخرى فى المناظرات المتعلقة بالإجهاض والقتل الرحيم حول التعريفات الخاصة ببداية الحياة ونهايتها. ولكن عند مناقشة مزايا ومساوئ التكاثر الاصطناعى والهندسة الجينية، فهناك مجموعة أخرى من الأسئلة تبرز، منها قبول فكرة الحصول على حياة مهما كانت بائسة بدلا من ألا تحصل حياة مطلقًا. قضية أخرى ظهرت حديثًا وهى: هل يستطيع الآخر أن يقرر أن حياة أحد الأفراد تستحق أكثر أو أقل أن تحيا بدلا من حياة شخص آخر؟.... قد تظهر هذه المشكلة فى توزيع إمكانيات العلاج بين الأفراد، وتفضيل فئة عن فئة أخرى، أو فرد عن فرد آخر، فى حالة وجود قصور أو عجز الإمكانيات.

فى مقال عن الفلسفة التطبيقية فى منعطف القرن كتب هينا ومارى هايرى: (حينما ابتعد الفلاسفة التطبيقيون عن مجال أو نطاق الحياة "الإنسانية" وحولوا اهتمامهم إلى مسائل مثل رفاهية الحيوانات وحماية بيئتنا الطبيعية، صعد إلى المقدمة نمط جديد من القضايا أو الأسئلة المتعلقة بالقيمة. لقد ظل السائد هو أن قيمة الوجود الإنسانى تنبع من أحد مصدرين لا ثالث لهما. فالرأى القائم على مركزية الإنسان هو حقيقة الكون المركزية. ينص على أنه طالما أن البشر هم فقط المخلوقات ذات القيمة فى الكون، فإن قيمة الحياة ومعناها هما تدابير إنسانية صرفة. أما المؤيدون لرأى مركزية الإله فيعتبرون بدورهم أن قيمة الحياة هى إحدى الخصائص أو الجوانب التى لها أصل إلهى. لكن كثيرًا من المتخصصين فى "علم الأخلاق" ممن يركزون على القيمة المستقلة للمخلوقات الحية يجادلون بأن كلا من الادعاءين زائف، وأن قيمة الحياة كلها فى الواقع الفعلى تكمن فى الحياة ذاتها، مهما كان الشكل الأكثر تحديدًا الذى تأخذه. وقد وضع هذا الرأى تحت عنوان "المركزية

البيولوجية Biocentric، وطرح تحديات مثيرة للطريقة التى ترى بها المدارس الفلسفية العريقة قيمة الحيوانات الفردية والأنواع والموجودات البيولوجية الأخرى، مثل غابات الأمطار والجبال والأنهار والمحيطات. وتعتبر الأسئلة المتعلقة بالحياة وقيمتها ذات أهمية "للأخلاقيات البيولوجية" التى هى فى هذه الأونة المنطقة الأكثر تقدمًا فى الفلسفة التطبيقية. ويتضمن أحد المجالات البارزة فى الدراسة: أخلاقيات المحترفين وأخلاقيات المال والأعمال والاختبار النقدى أو البحث النقدى للقضايا والأسئلة المتعلقة بالحرب أو المجاعات والتلوث والكوارث الأخرى التى هى من صنع الإنسان أو الكوارث الطبيعية والصراعات بين المصالح الأساسية، بالإضافة إلى أن الممارسات مثل التفرقة العنصرية والعقوبات الاقتصادية والرقابة، قد تبلورت وأصبحت واضحة من خلال المناظرات السياسية الأخلاقية). لقد أصبح مجال الفلسفة أشمل وأعم، وخرج من الثوب الضيق لعلم الوجود وما وراء الطبيعة إلى المشاكل التى تمس معيشة الإنسان، وكينونته، ورفاهيته.

العقلانية Ratonalism

مذهب فكرى يتعامل مع جميع جوانب الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والمعرفية، والعلوم التطبيقية وخلافه. يتمثل هذا المذهب فى اعتبار العقل هو القيمة العليا فى الحياة، وهو المدخل إلى الحقيقة واليقين المؤكد، ومعيار كل شىء، وأن المنظومة البشرية تحكمها نظام عقلى قائم على مجموعة من المبادئ والمسلمات والقوانين التى تتفق عليها كل العقول السليمة والرشيدة، وأن هذه المبادئ تتميز بالسمو فوق العواطف، وتتخطى الجزئيات. كان الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت فى القرن السابع عشر من أنصار المذهب العقلانى، فبدأ فكره بالعقل كحقيقة أولى، وانتهى به كحقيقة أخيرة، وبه أثبت وجود كل شىء حتى وجود الذات الإنسانية. والعقلانية لا تلغى مصادر المعرفة التجريبية والاكتسابية ولكن تؤكدها، على أن المرجع فى

تصديق أى معرفة هو العقل، فهو أساس كل حقيقة يقينية.

تشير الفلسفة العقلانية إلى العقل كأداة رئيسية للمعرفة والاختبار، وهى تعارض المذهب التجريبى Empircism الذى يعتمد على الملاحظة والتجربة، فالجزء المهم والأساسى للمعرفة - من وجهة نظر العقلانية - يأتى من البصيرة النافذة النابعة من التفكير العقلانى، وذكاء العقل الذى يستطيع الخوض فى جميع مجالات المعرفة، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة المؤكدة. إن المعرفة الحقة - فى المذهب العقلانى - لا تأتى فقط من الحس العام أو من التجربة، ولكنها تأتى أيضًا من تحليل السبب والمبرر والتفكير المنطقى والعقلانى.

الفلسفة الوضعية Positivism

استخدم تعبير الوضعية فى الفلسفة والعلوم الاجتماعية بواسطة الفيلسوف الفرنسى أوجست كونت فى القرن التاسع عشر. كان هدف كونت الرئيسى تحويل جميع فروع الفلسفة إلى فلسفة العلوم والذى أطلق عليها الفلسفة الوضعية. انصب عمل كونت على محاولة التنسيق بين جميع فروع العلم، وجميع نتائج البحوث فى المجالات المختلفة للعلوم، مثل: الرياضة، والفلك، والفيزياء، والكيمياء، والأحياء، وعلم الاجتماع،... إلخ، وتوحيد طرق البحث والتحليل فى هذه المجالات.

كان رأى كونت أن الفلسفة يمكنها أن تقود وتسرع فى التطور إذا أمكن الوصول إلى علم خاص يوحد بين جميع مجالات العلوم السابق ذكرها، فالفلسفة الوضعية يجب أن تكون المرحلة النهائية للفلسفة بحيث تشمل جميع العلوم.

التاريخية Historicism

اتجاه فكرى حديث تمثل فى أفكار هيجل ونيتشه وهايدجر. يميز مؤرخ

الفلسفة السياسية المعاصر ليوشتراوس بين نمطين أساسين، أولهما التأريخية النظرية أو التأريخية التأملية، والذى يتمثل فى فلسفة هيجل ونظرته للتاريخ. وطبقا لهذا النمط فإن العلم تتمثل مهمته فى تأمل الحركة التاريخية التى ما هى فى جوهرها إلا تطور عقلى. جعل هيجل من فلسفة التاريخ بديلا للفلسفة السياسية بمعناها السقراطى، فالفلسفة السياسية فى تصوره لا ينبغى أن تعنى بما يجب أن تكون عليه الدولة ولكنها ينبغى أن تقصر اهتمامها على استكشاف ما هو متحقق فعلا فى لحظة تاريخية معينة، ومن ثم ومن خلال هذا المفهوم الهيجيلى نجد أن الفلسفة السياسية الكلاسيكية تفقد مبرر وجودها، أما النمط الثانى من أنماط التأريخية فهو ما يطلق عليه شتراوس "التأريخية الوجودية" أو "التأريخية الراديكالية"، وقد ظهر هذا الاتجاه مع الموجة الثالثة من موجات الحداثة ويعتبر نيتشه رائده الروحى، كما يعد هايدجر أبرز المدافعين عنه فى القرن العشرين. وتتفق التأريخية الراديكالية مع هيجل فى أن الإنسان لا يمكن فهمه إلا فى ضوء التاريخ لكنها تختلف معه فى أن التاريخ ليس تطورا عقليا، بل إنه لا يمثل تطورا صاعدا بالضرورة، وفى رأى هذا الاتجاه أن الإنسان ليس بوسعه أن يتجاوز حركة التاريخ ولا أن يستوعبها، ذلك أن سائر التفسيرات المختلفة للتاريخ تتلون دائما بمنظور الحاضر العابر المؤقت الذى تمت فيه ولا يمكن أن تنفصل عنه. ومن ناحية أخرى فإن التأريخية الراديكالية تتفق مع الوضعية فى رفضها إمكان قيام الفلسفة السياسية، فما كان للإنسان فى رأيها أن يتوصل إلى معرفة الخير المطلق الذى يصدق على كل زمان ومكان والذى تزعم الفلسفة الكلاسيكية أن البحث عنه هو مهمتها الأساسية. إن الفلسفة بأسرها ذات طابع مشروط ومقيد دائما بنمط تاريخى معين، قد يكون مثلا هو نمط الإنسان الغربى المعاصر، أو النمط الشرقى القديم، إن التأريخية الراديكالية وإن اتفقت مع الوضعية فى رفضها للفلسفة السياسية، فإن هذا لا يعنى أنها ترضى عن الموقف الوضعى، فهى ترفض الوضعية فى الوقت الذى ترفض فيه الفلسفة التقليدية، وترى أن الوضعية قد جانبها الصواب حينما تصورت أن العلم قادر

على اكتشاف معرفة موضوعيته بالعلم الواقعى، ذلك أن سائر مقومات ومبادئ الفهم إنما هى مشروطة تاريخيا كذلك، بحيث لا يمكن قيام معرفة صحيحة إلا فى حدود معينة ومن منظور معين.

ترى التأريخية النظرية التى تطورت على يد هيجل ثم واصلت مسيرتها فى القرن العشرين بواسطة بعض المفكرين الهيجليين من أمثال الكسندر كوييف، أن الفلسفة السياسية بمعناها السقراطى قد عفا عليها الزمن بعد أن تجاوزتها فلسفة التاريخ، التى تنظر إلى العملية التاريخية باعتبارها تطوراً عقلياً للكل الشامل. من هذا المنطلق ينبغى على الفلسفة السياسية أن تخلى الطريق للعلوم السياسية التى تصف ما تمخض عنه التطور التاريخى الفعلى، لا أن تنظر إلى ما ينبغى أن يكون عليه المجتمع السياسى الأمثل، ذلك أن المجتمع الأمثل ما هو فى الحقيقة إلا ذروة ما تمخض عنه التطور التاريخى وهى ما تمثله دائمًا اللحظة الراهنة.

فلسفة اليوجا Yogi Philosophy

هى فلسفة روحية ونفسية نبعت فى الهند، وأخذت فى الانتشار فى الثقافة الغربية كرد فعل لسيادة النزعة المادية/الفردية. تطالب هذه الفلسفة الإنسان بأن يسمو بالروح، ويرتفع فوق الأحداث الشخصية من أجل انفتاح بصيرته، ويعم نور الصفاء الداخلى فيكون من السهل على الإنسان أن يرى طريقه، وأن يسير فيه بالسكينة والاطمئنان النابع من القوة الداخلية للذات البشرية. تطالب أيضًا هذه الفلسفة بأن يفقد الإنسان القدرة على أن يجرح، فاليد قد تجرح، والكلمة قد تجرح. على الإنسان أن يتخطى مرحلة البكاء على الكرامة المجروحة والنقد الجائر والإساءة الظالمة، وأن يتجاوز تجربة الفشل والاستسلام لليأس الناتج عن خيبة الأمل وعدم تحقيق الهدف. ترفض هذه الفلسفة الصراع والتنافس والتكالب على الاستحواذ المادى، فجميع معضلات الحياة لها حل، يمكن الوصول إليه من خلال الصفاء الذهنى والروحى.

تتلخص فلسفة اليوجا فى أربع قواعد مهمة:

- قتل الطمع والطموح.
- قتل الرغبة فى الحياة.
- قتل الرغبة فى الترف.
- العمل كما يعمل الطامعون والطامحون، والإقدام على الحياة واحترامها كما يحترمها الراغبون فى الحياة، والشعور بالسعادة مثل الذين يعيشون فى رفاهية وترف.

قد يبدو ظاهريا تناقض فى القاعدة الرابعة عن القواعد الثلاث الأولى، ولكن بوصول الذات إلى القوى الروحية الحقيقية، يستطيع الإنسان أن يطبق هذه القواعد بدون الشعور بأى تناقض فالقواعد الأربع تكمل بعضها البعض، ويمكن بالممارسة أن تتناغم وتتكامل. إن الإحباط هو مشكلة الإنسان الأساسية، وهو ينتج من فشل الإنسان فى تحقيق هدف يطمع أو يطمح فيه. إن الفشل يصيب الإنسان بالإحباط والنزوع إلى الانطواء أو العدوان، وكلاهما يؤدى إلى الانهيار والهدم، لذا إذا عمل الإنسان كما يعمل من يريد تحقيق الهدف دون أن يكون الهدف هو ما يصبو إليه، فسيعمل بكامل جهده ولن يصيبه الإحباط إذا فشل فى تحقيق الهدف، ولكن سيحصل على نتاج جهده إذا نجح.

إذا أصبح الإنسان عبداً لرغباته وشهواته بدون مراعاة الآخرين، فسيتحول المجتمع إلى غابة تحوى كائنات هى مزيج من العبيد والحيوانات البشرية. ولكى يعم السلام والمحبة والسعادة بين جموع البشر، فإن فلسفة اليوجا تدعو إلى مقاومة خمسة من أعداء البشر وهم: الشهوة والغضب والطمع والتملك والغرور. إن العمل كما يعمل الطامعون الطامحون، ولكن بدون طمع أو طموح، سوف يصل بالإنسان إلى هدفه دون تدمير من يقف فى طريقه، ويمكن الوصول إلى أعلى قمم النجاح دون قلق من الفشل. يجب أن يعمل

الإنسان بكل حواسه وجهده، من مبدأ أن العمل عبادة روحية وذهنية، وأن فى العمل لذة وسعادة، وأن كنه الحياة فى التغير الذى لا يأتى إلا من خلال الحركة التى تضيف ولا تهدم، والعمل الهادف والإيجابى، الذى فيه نفع للفرد وللمجتمع. إن الطموح الحقيقى هو السير إلى النهاية فى طريق العمل الشاق الذى لا ينتظر من ورائه حمد أو أجر، وحيث إن الطريق له نهاية، فنهاية الإنسان يجب أن تكون عدم القدرة على العمل إما بالموت أو بالمرض، وحتى المرض يمكن ألا يعوقنا عن العمل والعطاء إذا كان فى العقل قدرة على العطاء والإنجاز.

تدعو فلسفة اليوجا إلى محو فكرة أن الحياة الدنيا هى كل شىء فى هذا الكون، إن المقصود بقتل الرغبة فى الحياة هى قتل فكرة الحياة التى تحمل الإنسان على الخوف من الموت والتى تولى الحياة أكثر مما تستحق من الاهتمام بالذات المادية. إن الإنسان القوى هو الذى لا يرتعد من فكرة الموت، وفى نفس الوقت تنص القاعدة الأخيرة على احترام الحياة، فيجب على الإنسان أن يحترم عقله وجسده بحيث لا يدنس العقل أو الجسد بتفاهات الحياة أو السيئ من التفكير. الإنسان فى فلسفة اليوجا يتقبل الحياة كما هى دون تذمر أو تجهم، يعيش كل لحظة فيها بقوة وسعادة ورضا، غير آسف على ماض أو خائف من مستقبل.

ليس معنى قتل الرغبة فى الترف والتى تنص عليها القاعدة الثالثة، الزهد أو التقشف أو التقتير فى نهل مباهج الحياة. إن من الخطأ أن يعيش الإنسان فى دنيا كلها مباهج ولا يستمتع بها، ولكن يجب أن يكون سيدًا لمباهج الحياة لا عبدًا لها، وذلك على طريق الإيمان بالقيم الأخلاقية. إن فى الصبر على الحرمان والتعود على العمل الشاق فوائد كثيرة للنفس البشرية، فالحياة لا تسير فى رتم سلس أو على هدى ورغبة الفرد على طول الطريق، فعند التعرض للشدائد سيكون الإنسان قويًا بعد أن تعود على الصبر واكتسب قوة الاحتمال. تدعو القاعدة الرابعة إلى الشعور بالسعادة الحقيقية وليست السعادة

الظاهرية، والسعادة الحقيقية تنبع من جلاء البصيرة لمعالم الطريق، والرضا عن كل ظروف الحياة التى تحوى التغير والتضاد من صحة ومرض، وحب وكره، وعطاء وحرمان، إلى آخره من جميع عناصر وظروف الحياة. وأخيراً تدعو هذه الفلسفة إلى الابتعاد عن داء الكبرياء، وعن التفاخر الكاذب وعن الصراع الذى يكلف الإنسان الكثير من صحته وسعادته.

الفلسفة فى الحاضر والمستقبل

كان القرن الثامن عشر فى أوروبا هو نقطة الانقلاب على الجمود الفكرى وأساطير الأقدمين، والانطلاق نحو فكر إنسانى مدعم بالعلم والمنطق، لذا سميت هذه الفترة بعصر العقل أو عصر التنوير. كتب كرين بريتون فى كتاب "تشكيل العقل الحديث": (أدرك فلاسفة القرن الثامن عشر بالفطرة الغريزية السليمة التى ندرك بها أعداءنا أن الكنيسة الكاثولوكية الرومانية هى العدو فاختصوها بأشد الهجمات وأقساها. ذلك لأننا لو آمنا مثلما آمن جمهرة هؤلاء الفلاسفة بأن الإنسان العادى خير وعاقل بطبيعته فإن النقيض المقابل لذلك هو فكرة الخطيئة الأولى. ولكن الجانب الأكبر من مجموع أفكار التنوير: النزعة الطبيعية وإنكارها للغيبيات، والنزعة المادية، والإيمان بالتقدم المؤكد هنا على الأرض، ومقت التقليد والتراث، وكراهية التسلسل الطبقى الرسمى، والإيمان بالحرية والمساواة... فى عبارة مهمة جدا نقول: إن التحول فى موقف الإنسان الغربى من الكون وكل ما فيه هو التحول من نعيم المسيحية الغيبى فى السماء بعد الموت إلى النعيم العقلانى الطبيعى على هذه الأرض).

أدى التطور الحضارى للإنسان إلى تغير نظرته إلى ذاته وإلى بيئته، وإلى طبيعة علاقاته بالآخرين. استحدث الفكر الفلسفى فروعًا جديدة ومختلفة مثل الأخلاق والبيئة للحفاظ على مناخ صحى لا يسود المجتمع المحيط فقط بل يمتد إلى جميع بقاع كوكب الأرض. امتد مجال التحديث أيضًا إلى عالم

الطب والهندسة الوراثية، ومشروعية الاستنساخ البشرى وأخلاقيات عمليات التعديل الجينى وعلوم الحياة بصفة عامة. امتدت الفلسفة أيضًا إلى مجال المال والأعمال والتجارة وأخلاقيات الاقتباس والغش التجارى، والإعلام الإباحى. لم تعد الأطروحات النظرية والخاصة بالموت وما وراء الطبيعة هى السائدة - خاصة فى الحضارة الغربية - وإنما أصبح كل ما يمس ذات الإنسان وكينونته هو محور اهتمام البشر فى العصر الحديث. لقد أدى التقدم التكنولوجى فى مجال المعرفة والمعلومات إلى نهم الإنسان إلى معرفة المزيد فى هذه المجالات والتطلع إلى علوم جديدة قد تتشكل فى المستقبل، وارتباط الفلسفة بها، مما دفع بعض الفلاسفة والمفكرين إلى الكتابة فى موضوع جديد هو "فلسفة المستقبل"، يختلف عن الفكر السائد فى "مستقبل الفلسفة". يعتبر اقتحام آفاق الكون، والهجرة إلى خارج كوكب الأرض من المواضيع الجديدة التى سوف تتناولها الفلسفة فى العصور القادمة. ساد التفكير التحليلى عن طريق الفلسفة المقارنة والتى تعتبر فرعًا جديدًا من فروع الفلسفة يقارن طبيعة الأفكار فى الثقافات المختلفة، مثل: مفهوم الخير/الشر، الصواب/الخطأ، من منظور الثقافات الشرقية والثقافات الغربية. بعد انتشار نظرية صراع الحضارات/الثقافات، بدأ المفكرون فى المقارنة بين الأديان السماوية الثلاث وتأثيرها على الثقافات الشرقية والغربية، فى محاولة لم تنجح - حتى الآن - لتضييق الاختلاف العقائدى من أجل أن يعيش البشر جميعًا فى سلام.

وأخيرًا، إذا كانت الفلسفة قد بدأت بأسطورة الخلق وبداية الكون، ومن مبدأ الدورة الكاملة المتكاملة فسوف تنتهى بأسطورة الفناء والنهاية أيضًا. إذا كانت الفلسفة تعنى الحكمة أو حب الكلمة والمعرفة، فإن الفلسفة لم تصل بالإنسان إلى الحكمة وحبها، أو إلى السعادة وتحقيقها. كانت الفلسفة دائمًا وسيلة للهروب من مسارات غير مطلوبة، والالتجاء إلى مسارات مرغوب فيها، وإلهاء الإنسان عن ملل عقيم، ورتابة سقيمة، لذا تعددت الآراء، واختلفت الأفكار والفلسفات والمذاهب والنظريات فى منظومة قائمة على حتمية الاختلاف.

الفكر الاجتماعى

التاريخ القديم للفكر الاجتماعي

بدأ تفكير الإنسان في المجتمع كنظام منذ أن وجد آخرين يحيطون به ولكن كان الفكر الاجتماعي يغلب عليه الاتجاهات الشخصية والغائية. مع ظهور الحضارات تطور الفكر الاجتماعي من خلال الفلسفة الأخلاقية والنظم الإدارية لتشكيل مجتمع حضاري يعمل في سبيل المجموع. ساعدت البيئة الطبيعية - من مناخ مستقر نسبيا، وأرض زراعية مستوية تحيطها الصحاري - المصري القديم في أن يفكر، محاولا الوصول إلى حلول لمشاكله الشخصية والاجتماعية. تزعم الكاهن الحركة الفكرية في مصر الفرعونية ليقود النسق الاجتماعي ويقدم النصيحة والمشورة لفرعون مصر، لذا تميز الفكر الاجتماعي عند قدماء المصريين بالطابع الديني وما يتبعه من بناء الصروح الضخمة مثل الأهرامات والمعابد والهياكل. عرف المصريون القدماء التوحيد منذ الأسرة الثامنة عشرة، وفي عهد أمنحتب الرابع "إخناتون" في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. كان النيل من العوامل التي أثرت في الفكر الاجتماعي للمصري القديم، فكان يعيش على ضفافه، وكان لا بد له أن يتعاون مع أقرانه لكي يتجنبوا أخطاره، وعلى ذلك تعود المصري أن يعيش ملاصقًا لجاره، ومتعاونًا معه، فعرفت مصر القديمة أول نظام إداري بيروقراطي يقف على قمته من يتحكم في النيل ومياهه وبذلك يتحكم في المشرب والمأكل والانتقال النهري. استطاع أحد المصريين من الأقوياء والأذكياء من أن يكون قائدًا لهذا المجتمع عندما تعرض لهجوم من جيرانه في غرب آسيا بقصد الاستيلاء على خيرات مصر، وبمرور الوقت أصبح هذا القائد فرعونًا وملكًا، بل ووكيل الإله على أرض مصر. عامة عرف إنسان الحضارات الشرقية الأولى في مصر بلاد بين النهرين (دجلة والفرات) والصين والهند، النظم الاجتماعية والسياسية قبل أن يعرفها سكان غرب أوروبا بآلاف السنين. كان للملك أو الحاكم كل التقديس والتبجيل، والسمع، والطاعة العمياء. أدخل أحمس الأول أنظمة إدراية

جديدة، فكان هو القائد الأعلى للجيش ورئيس الحكومة، يقابل وزيره كل يوم ليعرض عليه المسائل الحكومية والإدارية والقضائية، أما المسائل المالية فقد كان يعرضها موظف آخر مختص بالنواحي المالية. كانت إيرادات الدولة تجبى عن طريق الخدمات، كما كانت بعض الأملاك معفاة من الضرائب كالمعابد الدينية. يعتبر المصريون القدماء أول من عرفوا نظام المعاهدات الدولية. فقد عقد رمسيس الثانى مع ملك الحيثيين أول معاهدة دولية معروفة بعد أن قامت بينهما صراعات وحروب.

لم تختلف النظم الاجتماعية فى بلاد بين النهرين كثيراً عن النظام الاجتماعى الفرعونى، إلا أن قانون حمورابى أكد وجود ثلاث طبقات اجتماعية وهى: الإنسان الكامل بمعنى الإنسان الحر، والشخص الذى ينحنى أى المرءوس الوضيع الذى يتمتع بقليل من القيم والقليل من الحقوق، وأخيراً العبد كشىء مادى يمكن امتلاكه ونقل ملكيته وبيعه وشرائه. كان ناظر القصر أهم موظف فى بابل، فهو الذى يدير مشروعات المنافع العامة والشئون الزراعية، وهو أمين خزانة الملك وناظر السراى ومسجل العقود. كان يوجد أيضاً طبقات مختلفة من الكهنة ووكلاء أعمال وقضاة وأمناء مخازن الغلال، وكانت النساء كاهنات أو حائكات أو مخصصة لهن أعمال أخرى. أما فى بلاد سومر وأكاد فقد كانت الملكية العقارية فى أيدى أفراد أو هيئات اجتماعية، وكانت للمعابد حقولها ورياضها. كانت الأرض البور من حق أول من يشغلها وتصبح ملكاً بعد ذلك لمن يصلحها. تميزت حضارات بلاد ما بين النهرين بتنظيم أولى فى شئون بعض الحرف، ففى عهد "دونجى" كانت عملية النسيج تتم تحت رقابة رؤساء عمال يعينهم الملك، وقد نظم قانون حمورابى وحدد أجور العمال والصناع، دون أن يغفل تحديد مسئوليتهم المدنية عن كل خطأ فى التنفيذ. طبق النظام البابلى على الدولة الأشورية، فكان الإله أشور هو السيد الحقيقى للبلاد، بينما كان الملك هو نائب الإله، الذى لا يستطيع تنفيذ أى مشروع دون أن يحصل على رضا الآلهة. كان شأن

الزواج بين الأحرار فى أشور شأنه فى بابل يقتصر فى العادة على زوجة واحدة ولكن الأسرة فيه كانت تكون خلية أقل تماسكًا. كانت الفتاة تحت السلطة المطلقة لأبيها ولم تكن لتستطيع أن تتزوج دون موافقته. ولم يكن يسمح للمرأة الحرة المتزوجة أن تغادر منزلها دون أن تغطى رأسها، وكانت بناتها أيضًا يضعن غطاء رأس، وبهذه الوسيلة كان تميزهن من عاهرات المعبد والإماء.

قاد السفسطائيون الفكر الاجتماعى فى بلاد الإغريق وذلك من خلال فلسفتهم التى حاولت وضع أسس ومعايير فى المجالات الأدبية والفنية والسياسية. اتجهت اهتمامات السفسطائين نحو الإنسان بعكس المذاهب الفكرية السابقة والتى كانت سائدة فى القرن السادس قبل الميلاد والتى تميزت باتجاهها الكونى الطبيعى. يعتبر بروتاجوراس أول وأهم من سار فى هذا الاتجاه والذى اشتهر بمقولته: (أن الإنسان هو الأساس الذى يجب أن يقاس به كل شىء)، موضحًا بعد ذلك اهمية الإنسان عند الحكم على الأشياء التى تتعلق بالنواحى الإنسانية. كان برتاجوراس يرى أن الأشياء تكون حقيقية متى أمكن للإنسان رؤيتها ولمسها وممارستها عن طريق حواسه، وأن الحقيقة والمعرفة شىء نسبى فيما يتعلق بالأفراد، فما يعتقده البعض صحيحًا قد يراه الأخرون خطأ. كان هذا الاتجاه عند السفسطائين بداية المدرسة التجريبية فى الدراسات الاجتماعية، والتى تعتمد أساسًا على حواس الإنسان. إن الإنسان هو أفضل من يحكم على ما هو حسن أو سيىء بالنسبة له. فالشىء الحسن هو ما يخدم مصالحه، ولا داعى إذًا فى أن يضحى بمصالحه من أجل شىء لا يحس به أو لا يراه، أو يتصرف تصرفًا معينًا نتيجة اعتقادات دينية يفرضها المجتمع عليه، ومن هذا المدخل بدأ السفسطائيون إثارة الشك حول وجود الألهة. ذهبت هذه المدرسة أيضًا إلى أن: إذا أراد الإنسان أن ينجح فى الحياة، إلى الحد الذى يمكنه أن يقف ضد مجتمعه، ولكنه قد يحرز نجاحًا أكبر لو حقق الإنسان أهدافه داخل الإطار الاجتماعى الذى يوجد فيه،

والإنسان الحكيم هو الذى يوفق بين ذوقه الخاص ورغباته وأهدافه، وبين القوى الاجتماعية التى يمكن عن طريقها أن يحصل على ما يريد وأن يحقق جميع أو معظم أهدافه. لما كانت العادات والقيم والمعايير تتغير من زمان لآخر ومن جماعة لأخرى، فما يكون حسنًا فى أثينا قد يكون شرًا فى إسبرطة، فكل شىء نسبى، وعليه لكى يعيش الإنسان سعيدًا يجب عليه أن يوفق بين نفسه وبين ما يسود المجتمع من عادات وقيم ومعايير.

بعد أن غزا الرومان مقدونيا عسكريا، ،حدث غزو فكرى عكسى من المدارس الفلسفية اليونانية إلى الرومان. كان لوكريشوس فى القرن الأول قبل الميلاد من أشهر المفكرين الرومان الذين تأثروا بالمدرسة الأبيقورية. قام لوكريشوس بدراسة مقارنة لعادات الشعوب البدائية وذلك على أساس الآراء التى كانت تتناقل عنها شفويا، وما كتبه عنها كثير من الشعراء والفلاسفة القدامى.

نتيجة لهذه الدراسة خرج لوكريشوس بنظرية عن التطور الاجتماعى بنيت على الصراع من أجل المعيشة وبقاء الأصلح. كان لوكريشوس يرى أن كل ما يحدث فى الطبيعة ليس نتيجة للمعجزات أو إلى أى تدخل إلهى، وأن التفسير الصحيح للظواهر الطبيعية يخلص الإنسان من التفسير الدينى القائم على ما هو وراء الطبيعة. ينتهى لوكريشوس إلى أن الفهم الحقيقى للأشياء يحرر عقل الإنسان بحيث يمكنه من العيش فى اطمئنان وسعادة دون تسلط الأساطير التى تحد من انطلاقه فكريا. كتب الدكتور عبد الحميد لطفى فى كتاب "علم الاجتماع" عن الفكر الاجتماعى عند الرومان: (على الرغم من أن الفكر الرومانى قد تأثر بالفلسفة الأبيقورية **Epicureanism** كما رأينا عند لوكريشوس فقد كان تأثر هذا الفكر الرومانى أكبر بالفلسفة الرواقية **Stoicism** ذلك لأن الفلسفة الأبيقورية كانت تنادى بتحقيق اللذة الروحية والحسية عن طريق استخدام العقل والمنطق، وعلى أساس أن العقل بمنطقه يؤدى بالإنسان إلى طمأنينة داخلية وروحية تنتهى بالسعادة المنشودة.

والأبيقوريون بتمسكهم بالعقل والمنطق إنما يبتعدون بذلك عن الدين داعين إلى احتقاره لأنه يقوم على التسليم أكثر مما يقوم على العقل. أما الفلسفة الرواقية فقد اتجهت نحو التقشف والزهو والزهد داعية إلى محاربة شرور العالم حتى ولو كان فى هذا الصراع فناء للإنسان، وهذا الاتجاه نحو التقشف والزهد جعلها أكثر انتشاراً بين الرومان عن الأبيقورية، وذلك بسبب ما كان قد عاناه الشعب الرومانى من حياته التى كان يحياها والتى كانت مليئة باللذات والشهوات وما تسبب عن ذلك من شرور، وقد أراد بذلك أن يعوض ما فات بحياة أكثر زهداً وتقشفًا، حياة متحررة من الخوف والشهوة واللذة). مثَّل الاتجاه الرواقى عند الرومان الخطيب الرومانى الشهير شيشرون فى القرن الأول قبل الميلاد. كان للفكر الرومانى عمومًا - خاصة فى فترات ازدهار الحضارة الرومانية - أثر عميق فى ظهور نظم قانونية وسياسية للمجتمع تقوم على موافقة الشعب، وكان هذا المدخل بداية فكرة العقد الاجتماعى فى صورته الأولية، وكذلك فكرة سيادة الشعب، وفكرة تميز السلطة السياسية على السلطة الدينية.

علم الاجتماع

يختص علم الاجتماع Sociology بالدراسات العلمية للسلوك الاجتماعى للبشر. أيضًا يمكن اعتبار علم الاجتماع هو العلم الذى يهتم بقواعد ونظام المجتمع كمنظومة متكاملة تحوى عناصر وفروع أخرى مثل: الأنثروبولوجيا Anthropology الذى يبحث فى أصل الجنس البشرى وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته فى مختلف الزمان والمكان، وعلم النفس Psychology أى علم سلوك الكائنات الحية بصفة عامة، والاقتصاد والتاريخ، والدراسات السياسية والقانون. يعتبر الفيلسوف الفرنسى أوجيست كونت هو منشئ علم الاجتماع فى صورته الحديثة فى القرن التاسع عشر بانسلاخه من العلوم الاجتماعية الأخرى. يتسع علم الاجتماع ليشمل جميع

المؤسسات والعلاقات الاجتماعية مثل: الزواج/الطلاق والشئون العائلية بصفة عامة، والمنظمات التى تختص بالعقائد الدينية، وأخلاقيات المجتمع، وقضية الطبقات الفقيرة والمعدمة، وأمور الأقليات التى تعيش فى المجتمع، وشئون التعمير والتصنيع والبيئة، ومشاكل المجتمعات الريفية والمدن الكبرى، وجميع الأمور المختصة بالمجتمع. وجهة نظر اخرى تذهب إلى أن علم الاجتماع يخدم قضية التطور وارتقاء الجنس البشرى، وإعادة تشكيل المجتمع، والتغيير فى الثقافة، أى - بصفة عامة - دراسة جميع الظواهر الجديدة والمشاكل الاجتماعية المصاحبة للتطور الطبيعى. أيضًا يمكن القول بأن علم الاجتماع هو علم تحليلى للنظم الاجتماعية، موضوعه الرئيسى هو تحليل الظواهر الاجتماعية من المنظور العام والشامل.

تتحقق معظم العلاقات الإنسانية من خلال رموز معينة بدأت بالإشارة، وتطورت باللغة فى أشكالها العامة والمختزلة، وانتهت - حتى الآن - بالبريد الإلكترونى والإنترنت. وبناءً على ذلك اهتم علماء علم الاجتماع بالرموز ومنظوماتها ومعانيها، وعمليات الاتصال الإنسانى. إن الاهتمام الرئيسى لعلم الاجتماع ينصب فى أفعال Action البشر، لذا فإن دراسات هذا العلم تختص بوصف وتحليل العمليات الاجتماعية بتجرد كامل من التجارب الشخصية للباحث، وموضوعية تامة، ولا تتأثر بما هو ظاهر لصاحب الفعل، وعليه يجب أن يكون منظور الباحث شاملاً ومحايدًا. مثل العلوم الأخرى يحوى علم الاجتماع كل من العمليات النظرية Theoretical Operations ، والأبحاث التجريبية Empirical Investigation، مع وضع الفروض Hypotheses، والتطوير الفكرى والمنظورى للبحث، وأخيرًا تكوين منظومة System خاصة بالعمل وخطة البحث. وحيث إن حياة المجتمع البشرى تشمل مواضيع كثيرة ومتنوعة، تتغير وتتطور على الدوام، لذا فإن الأبحاث والدراسات يجب أيضًا أن تشمل مجالات علمية مختلفة ومعاصرة لزمن الدراسة، ومتوافقة لثقافة المجتمع الذى تجرى فيه الدراسة.

يذهب بعض المختصين بعلم الاجتماع إلى أنه ينقسم إلى قسمين رئيسين وهما: علم الاجتماع الاستاتيكى، وعلم الاجتماع الديناميكى. يهتم القسم الأول بدراسة شروط وجود المجتمع، بينما يهتم الثانى بدراسة حركته المستمرة ومراحل تطوره. إذا كان النظام Order هو الحقيقة الرئيسية فى علم الاجتماع الاستاتيكى، فإن التقدم Development هو أساس علم الاجتماع الديناميكى. فإذا كان الأول يختص بنظرية النظام الذى يشير إلى الانسجام والتوازن بين ظروف وجود الإنسان فى المجتمع، فإن الثانى يختص بالنمو الأساسى للمجتمع وتطوره. يرتبط القسمين - كنظام وتقدم - ارتباطًا وثيقًا، فلا يمكن إقامة نظام اجتماعى حقيقى إذا لم يكن مناسبًا للتطوير، ولا يمكن أن يكون التطوير والتقدم مستمرا إذا لم يسانده نظام كفء وفعال.

يبنى النظام الاجتماعى نفسه فى رأى عالم الاجتماع الفرنسى أوجيست كونت - وفقا لقوانين الطبيعة، فهى التى تشكل النظام الأساسى، الذى قد يحتاج إلى تصحيح وتغيير عن طريق التدخل الإرادى للإنسان. إن الحقيقة الأساسية فى النظام الاجتماعى تتمثل فى الاتساق العام، وهو الارتباط الضرورى بين عناصر المجتمع. يعد الاتساق العام الأساس الحقيقى للتضامن، كما يعد كذلك أساس تقسيم العمل الاجتماعى. كتب تيما شيف فى كتابه "نظرية علم الاجتماع" عن مذهب أوجيست كونت فى البناء الاجتماعى: (ميز كونت بين ثلاثة مستويات موجودة فى المجتمع: الفرد، والأسرة، والاتحادات الاجتماعية... وقد استبعد الفرد من الدراسة السوسيولوجية، حيث ينبغى أن يتكون النسق من عناصر متجانسة فقط، ولذلك فإن الأسرة هى الوحدة الاجتماعية الأساسية لا الفرد. لكنه واجه المشكلة السوسيولوجية الأزلية التى تدور حول العلاقة بين المجتمع والفرد. وقد لاحظ تقاربًا منتظمًا ومستمرًا فى أوجه النشاط التى يؤديها عديد من الأفراد فى المجتمع، ومع أن كل فرد يحيا حياته الخاصة فإن لديه أيضًا ميلاً تلقائيًا للمشاركة فى التقدم المشترك بين الجميع دون استشارة الآخرين، معتقدًا أنه يطاوع دفعاته

الخاصة. . . وقد انتهى كونت إلى عدد من الأحكام المهمة حول الوحدة الاجتماعية الرئيسية - الأسرة - فقد أشار إلى أن الأسرة تتمتع بدرجة خاصة من الوحدة وبطابع أخلاقى يميزها عن الوحدات الاجتماعية الأخرى، كما لاحظ عدم وجود درجة كبيرة من الفكر والتصور فى حياة الأسرة حيث تشبع الحاجات إشباعًا سريعًا على أساس من التعاطف). وفيما يتعلق بالدولة، ذهب كونت إلى أن النظام السياسى نظام مصطنع Artificial إلى حد ما، ولكنه من ناحية أخرى هو نظام معدل للنظام الطبيعى الذى تميل إليه كل المجتمعات الإنسانية. والنظام السياسى طبيعى لأن أى مجتمع لا يمكن له البقاء دون حكومة تحكمه وتوفر له الأمن والأمان. لقد أصبحت فكرة الحكومة مقبولة نظرًا لوجود رغبة من الشعب فى الحكم والقيادة، فكثير من الأفراد يرغبون فى التخفيف من عناء اتخاذ القرارات المصيرية بالنسبة لهم.

عرض كونت نظريته السوسيولوجية الخاصة بعوامل التقدم فى أن التقدم ظاهرة فى جميع جوانب المجتمع. إن الجانب العقلى من التقدم جانب أساسى وظاهر، فالتاريخ يحكمه نمو الأفكار ويوجهه. والإنسان يبدو غالبًا مشغولاً بإشباع حاجات مادية، ولذلك فإن التقدم يكون ظاهرًا وواضحًا فى مجال السيطرة على قوى الطبيعة، ولكن يؤدى النمو العقلى دائمًا إلى النمو المادى. افترض كونت أن العوامل الرئيسية للتقدم العقلى تكمن فى السأم، والملل من الرتابة. إن الإنسان يبذل أقصى جهده من أجل تأمين وجوده واستمرار بقائه، ثم من أجل التجديد والتغير. ونظرًا لوجود تفاوت وتباين طبيعى بين قدرات الأفراد، لذا يجب على المجتمع أن يأخذ فى اعتباره الفروق الملموسة بينهم من أجل أن يتفاعل الجميع مع النظام.

فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظهر اتجاه جديد فى علم الاجتماع وهو ما يسمى بعلم الاجتماع التحليلى. ذهب الألمانى تونيز إلى أن كافة العلاقات الاجتماعية هى نتاج للإرادة الإنسانية التى تتخذ نمطين متميزين، الأول هو الإرادة الرئيسية وهى تمثل اتجاهًا أساسيًا وغريزيًا وعضويًا

يكمن وراء النشاط الإنسانى كدافع له، والنمط الثانى هو الإرادة التحكمية وهى الشكل المتعمد والقصدى للإرادة والذى يحدد النشاط الإنسانى بالنظر إلى المستقبل. تدخل الإرادات الإنسانية فى أشكال عديدة من العلاقات، فإما أن تؤكد استمرار النظام الاجتماعى بالمحافظة عليه، أو تعمل على هدمه وتحطيمه. ذهب الألمانى جورج زيمل إلى أن العلاقات المتبادلة بين الناس قد تنشأ نتيجة لدوافع نوعية، قد تكون غريزية أو اجتماعية، أو غايات أخرى مثل الدفاع أو الرياضة. إن علم الاجتماع يدرس ضروبًا من العلاقات المتبادلة غير المحدودة والتى تطلب دراية وافية بتحليل التفاعل النفسى، تتركز النظرية السوسيولوجية عند الفرنسى جبريل تارد حول عملية المحاكاة. تميل كافة ظواهر الحياة نحو المحاكاة، أى تكرار أفعال مشابهة. إن كل الظواهر الاجتماعية ترجع بصفة نهائية إلى العلاقة بين شخصين، يمارس أحدهما تأثيرًا عقليًا على الآخر، ويأخذ المجتمع فى الظهور حينما يتجه الفرد نحو جعل سلوكه على نمط سلوك الآخرين، أى نمط سلوكى متكرر. حاول تارد أن يكشف أهمية المحاكاة عن طريق تحديد معناها فى أربعة ميادين. فالمحاكاة بالمعنى الفلسفى تعتبر نموذجًا لمبدأ التكرار الكونى، ومن الناحية العصبية هى وظيفة للذاكرة، أما بالمعنى السيكولوجى فمن الممكن أن ترد إلى الإيحاء، أما من زاوية علم الاجتماع فإن الأفراد يحاكون نموذجًا معينًا بالذات لأنهم يعتقدون أنه أكثر نفعًا، أو أكثر توافقًا مع النماذج السائدة من قبل، ومتمشيًا مع ثقافتهم وميولهم. إن المحاكاة بصفة عامة تنتقل من الطبقات العليا إلى الطبقات الدنيا، ومنها يأتى مصطلح "محاكاة النماذج الجديدة" أو مصطلح "انتشار الموضة".

كان علم الاجتماع عند الفرنسى إميل دوركايم - نهاية القرن التاسع عشر/بداية القرن العشرين - هو دراسة الظواهر الاجتماعية. يمكن الكشف عن الظواهر الاجتماعية بطريقتين: الأولى من خلال القوة القاهرة التى تمارس

على الأفراد. والتى تتجلى فى الجزاءات المصاحبة لأنماط السلوك. أما الطريقة الثانية فتمثل فى انتشارها وعموميتها فى الجماعة. ذهب دوركايم أيضًا إلى أن المحاكاة ليست ظاهرة اجتماعية حقيقية، ذلك أنها عملية فردية تكمن فى الفرد ذاته برغم ما قد يترتب عليها من نتائج اجتماعية. كان كتاب "قواعد المنهج فى علم الاجتماع" من الأعمال الرئيسية لدور كايم، والذى قدم فيه تصورًا جديدًا للضمير الجمعى، الذى ينتج من تجمع عقول الأفراد ذاتهم. هذا النتاج الجمعى ليس هو مجموع الأجزاء، ذلك أن الجماعة تمارس أنماطًا من التفكير والشعور والسلوك مختلفة تمامًا عن الأفراد الذين يكونونها. لذا من الضرورى أن يبدأ تحليل سلوك الجماعة بدراسة ظواهر جمعية بدلا من دراسة الأفراد.

أصبح مذهب التطور فى مطلع القرن العشرين عقيدة تحظى بالقبول العام، فقد أكد علماء الاجتماع على أن تطور الأسرة قد بدأ بمرحلة الجنسية الإباحية أى الشيوعية الجنسية، ثم مر بمرحلة الأسرة القائمة على سيطرة الأم ثم الأسرة القائمة على سيادة الأب، واستمر التطور أخيرًا عند الأسرة ككيان ناتج من زواج وأطفال ومشاركة من جميع الأطراف. مع ظهور اتجاه جديد فى علم الاجتماع أطلق عليه اسم النزعة الوضعية المحدثة Neo Positivism توارى المذهب التطورى. كان هدف النظرية الوضعية الفلسفية/الاجتماعية هو تحويل جميع فروع العلم إلى فلسفة العلوم اليقينية. تقدمت النزعة السلوكية فى علم الاجتماع فى النصف الأول من القرن العشرين بواسطة كارل بيرسون، وتطورت بعد أن منحها عالم النفس الأمريكى جون واطسن صيغة أساسية ومحددة، طور واطسون أفكار عالم النفس الروسى الشهير إيفان بافلوف الذى كان أول من اكتشف الأفعال الشرطية المنعكسة. أكد واطسون على أن الشعور Consciousness غير معروف موضوعيا، وبالتالى فإن الاستبطان لا يمكن أن يكون مصدرًا للمعرفة العلمية. وعليه فإن علم النفس، وبالتالى علم الاجتماع يدرسان فقط السلوك القابل للملاحظة، وإن

كافة ضروب السلوك الإنسانى يمكن إرجاعها إلى مجموعات الأفعال الشرطية المنعكسة، بحيث يمكن أن نميز داخل هذه الأفعال بين مواقف الإثارة (وهى ظروف معينة يحدث خلالها السلوك)، وبين الاستجابات أى محتوى السلوك المثار. من هذا المنظور يمكن تفسير كافة مظاهر السلوك الإنسانى وصوره، بعد القيام بتحليل كافة المثيرات والاستجابات.

ظهر عالم الاجتماع الأمريكى تشارلز كولى فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين باتجاهه نحو المذهب العضوى، والذى يقوم على أن المجتمع كائن عضوى. ذهب كولى إلى أن المجتمع شىء أكبر من المجموع الكلى للأفراد، لأن وحدة المجتمع ترتبط بوحدة العقل الاجتماعى، الذى يتكون نتيجة لاتفاق الأفراد فحسب، بل يتحدد فى المقام الأول عن طريق التنظيم الذى يشكله العقل البشرى. أكد كولى على أن الشخصية الإنسانية تنشأ وتنمو من خلال التفاعل مع المجتمع. يعتبر وليم توماس من رواد علم الاجتماع النفسى فى النصف الأول من القرن العشرين. أدى اهتمام توماس بالمظهر الذاتى للسلوك الاجتماعى إلى إدخال مجموعتين جديدتين من المفاهيم فى علم الاجتماع. أطلق توماس على المجموعة الأولى، الرغبات الأربع وهى: الرغبة فى الخبرة الجديدة، والأمن، والاعتراف بالذات، والرغبة فى السيادة والتى استبدلها بعد ذلك بالرغبة فى الاستجابة. أما المجموعة الثانية فى المفاهيم فهى تشير إلى أنماط الشخصية الثلاثة وهى: الشخصية المحافظة، والشخصية البوهيمية، والشخصية الإبداعية. أما الشخصية المحافظة فتتميز بالاستقرار الذى قد لا يسمح بتقبل اتجاهات جديدة، تنطوى الشخصية البوهيمية على اتجاهات غير مستقرة وغير مترابطة بحيث تجعل الفرد خاضعاً لمؤثرات متنوعة. وأخيراً تمتاز الشخصية الإبداعية بالاستقرار والنظام وقدرتها على التطوير.

كان من أهم مساهمات عالم الاجتماع الإيطالى فلفريدو باريتو فى القرنين التاسع عشر/العشرين، فى النظرية السوسيولوجية تصوره للمجتمع

باعتباره منظومة System تتألف من أجزاء متساندة، وتحقق توازنًا. إن التغير فى جزء معين من المنظومة الاجتماعية يؤثر على بقية الأجزاء والكل معا. أما العناصر المادية التى تتألف منها المنظومة فهى الأفراد الذين يخضعون لتأثير قوى اجتماعية. يتحقق النسق الاجتماعى فى المنظومة بالبيئة، ومجموعة من العوامل تشمل المجتمعات الأخرى، الثقافة، مجموعات الضغط والتأثير.... إلخ. يتميز توازن المجتمع بأنه توازن ديناميكى أى قابل للتغير، ولكن إذا خضعت المنظومة الاجتماعية إلى ضغوط/تأثير قوى من الخارج فإنه سيحدث فى المجتمع تغير ما، ولكن القوى الداخلية للمنظومة ستعمل على استعادة التوازن، وإرجاع المجتمع إلى وضعه المستقر. تتألف القوى الداخلية من عاطفة الثورة على أى شىء يعوق التوازن الداخلى. كان باريتو يرى أن السلوك/الفعل المنطقى هو الذى يحقق غاية موضوعية، وغير ذلك من الأفعال أو السلوك لا يعتبر منطقيًا. يذهب باريتو إلى أن بعض العواطف قد تدفع الأفراد إلى تبرير أفعالهم عن طريق صياغة غير منطقية، يظن أصحابها أنها منطقية.

يعد الألمانى ماكس فيبر الذى برز فى الربع الأول من القرن العشرين من أعظم علماء الاجتماع فى هذا القرن. كان فيبر يأمل لعلم الاجتماع أن يحتفظ بميزان العلوم الروحانية Spiritual فضلا عن ميزان العلوم الطبيعية. ذهب فيبر إلى أن دراسة الفعل الاجتماعى تتطلب وجود أداة منهجية أطلق عليها (النموذج المثالى أو الخاص Ideal / Pure Type). والنموذج المثالى هو بناء عقلى Mental Construct يتشكل من خلال ظهور سمات أو وجهات نظر يمكن ملاحظتها فى الواقع. وهذا النموذج ليس فرضًا Hypothesis ولكن أداة ووسيلة لتحليل الأحداث التاريخية الملموسة، ونقارن به المواقف الواقعية فى الحياة. تعتبر العلاقات الاجتماعية، والجماعة المنظمة Organized Group من النماذج المثالية التى قدمها فيبر، فالعلاقات الاجتماعية تمثل مفهومًا يرتبط بالفعل ارتباطًا منطقيًا، وهى السلوك الذى

يصدر عن مجموعة من الفاعلين إلى المدى الذى يكون كل فعل آخذًا فى اعتباره المعانى التى تنطوى عليها أفعال الآخرين. أما الجماعة المنظمة فهى تمثل علاقة اجتماعية من خلالها يقوم أفراد معينون - بشكل منظم - بمهمة تدعيم النظام فى الجماعة. وحينما يخضع أعضاء الجماعة المنظمة - بحكم عضويتهم - إلى ممارسة شرعية ترتكز على الانضباط والالتزام بفكر الجماعة، يطلق عليها مصطلح الجماعة السياسية Political Group. تصبح الجماعة السياسية دولة State إذا ما تمكن جهازها الإدارى من احتكار الاستخدام الشرعى للعقاب فى تدعيم النظام.

حقق علم الاجتماع تقدمًا سريعًا منذ بداية الربع الثانى من القرن العشرين، وبرز علم الاجتماع التحليلى Systematic Sociology بعد أن ظهرت بداياته فى أواخر القرن التاسع عشر. أيضًا تم الاستعانة بالعلوم الرياضية المتقدمة، وبعلم الإحصاء فى الدراسات الاجتماعية، وتحليل معاملات الارتباط بين الظواهر السلوكية المختلفة. من خلال هذا التقدم تشكلت النظرية الوضعية المحدثة المعتدلة التى أدخلت باقى فروع العلم فى علم الاجتماع، حتى إن بعض علماء الاجتماع استعان بالمنهج التجريبى المعملى. والفكرة الأساسية التى يرتكز عليها هذا المنهج تدور حول استخدام التجربة المعملية، وتثبيت كل الظروف باستثناء ظرف واحد، يحاول الباحث الاجتماعى أن يدرس تأثيره على باقى الظروف الثابتة.

هيمن فكر تالكوت بارسونز على النظرية الاجتماعية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى ستينيات القرن العشرين. تطورت نظرية بارسونز فى "الوظيفة البنائية" كرد على الشيوعية الماركسية التى تدين الرأسمالية. يرى بارسونز الحياة الاجتماعية من خلال أفكار البشر، خاصة من خلال معاييرهم وقيمهم، فالمعايير هى تلك القواعد المقبولة اجتماعيًا والتى يستخدمها البشر فى تقرير أفعالهم، أما القيم فهى ما يعتقده البشر عما يجب أن تكون عليه الحياة، والتى لها تأثير فى تحديد أفعالهم. كانت أهم العمليات الاجتماعية

عند بارسونز هى عملية توصيل المعانى، أى توصيل الرموز والمعلومات وإدراك معانيها. كان بارسونز يرى أن جميع النظريات الاجتماعية تتجه نحو "النظرية الطوعية للفعل"، حيث يقوم البشر - شعوريا أو لا شعوريا - بالمفاضلة بين أهداف مختلفة والوسائل التى تؤدى الى تحقيق هذه الأهداف، فجميع سلوك البشر يتم من خلال عملية المفاضلة والاختيار والتى تشكل فى بيئة مكونة من عدد من العوامل المادية والاجتماعية التى تحدد الاختيارات المتاحة. تحتوى البيئة أيضًا على المعايير والقيم التى تحظى بالقبول العام، وعلى الأفكار التى تؤثر فى اختيار الفرد للأهداف. إن أكثر المعايير العمومية والرسمية هى النظام القانونى للمجتمع. تتكون وحدة الفعل إذًا من الفاعل، والوسائل والغايات، والبيئة التى تضم أمورًا اجتماعية ومادية، ومعايير وقيمًا، ثم تتحول وحدة الفعل بعد ذلك إلى نسق اجتماعى عام. يفترض بارسونز أن هدف كل فاعل هو الحصول على أقصى درجة من الإشباع، وإذا ما دخل الفاعل فى تفاعل مع آخرين، وحصل نتيجة لهذا التفاعل على الإشباع، فذلك يؤدى إلى تكرار التفاعل، ثم يصل الأمر بعد ذلك إلى أن الفاعلين يتوقعون استجابات معينة من بعضهم البعض، وبذلك تتشكل بينهم قواعد ومعايير اجتماعية مع قيم متفق عليها من المجتمع.

ظهرت فى ستينيات القرن الماضى عدة نظريات تتناول عملية التفاعل الاجتماعى، وبرز فى هذه الفترة علم الاجتماع الظاهراتى Phenomenological Sociology والذى يبحث فى وصف الظواهر الاجتماعية وتصنيفها، وتأويلها وشرحها وتقيمها. أيضًا ظهر علم الاجتماع الوجودى، وعلم اجتماع الحياة اليومية التى تهتم بالمشاكل اليومية للإنسان والمجتمع. إذا كان إدموند هوسول هو مؤسس الفلسفة الظاهراتية فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين إلا أنها لم تتبلور كنظرية اجتماعية إلا فى بدايات النصف الثانى من القرن العشرين. أيضًا ظهرت خلال ستينيات وسبعينيات القرن الماضى "النظرية البنيوية"، والتى تفترض أن العالم الذى

نراه من حولنا هو نتاج لأفكارنا. لما كان الذهن هو جزء من هذا العالم، فإن النظرية البنيوية تركز على الترتيب المنطقى أو البنية الكامنة فى المعانى العامة، والتى هى جزء من بنى العالم، يهاجم البنيويون بدلا من ذلك تصوراً مفاده أن البشر هم صانع لأفكارهم، وأن أفعالهم لا تتحدد بواسطة اختياراتهم وقراراتهم، بل هى نتيجة للبنية الكامنة فى أفكارهم، أى فى منطق تلك الأفكار. معنى ذلك إذا كان الفرد يعتنق عقيدة معينة، فإنه لا يتكلم ولا يعبر- فى آرائه وأفكاره عن هذه العقيدة - بل إن العقيدة تعبر عن نفسها وتتكلم من خلال الفرد، بمعنى آخر، أن البشر فى الحقيقة لا يتحدثون من ذاتهم الداخلية، بل هم يتحدثون بواسطة البنية الكامنة فى اللغة، وأنهم لا يقرءون كتبًا، بل يقرءون بواسطة الكتب، وأنهم لا يخلقون المجتمعات بل المجتمعات هى التى تخلقهم.

وأخيراً ظهر علم الاجتماع ما بعد الحداثة Post - Modernism Sociology، وذلك نتيجة للتغير فى تركيب الطبقات الاجتماعية، أيضًا ظهرت فى ثمانيات القرن العشرين نظرية فعل التواصل The Theory of Communicative Actions بواسطة هابر ماس، الذى دعى إلى ضرورة التحرر مما أسماه (بفلسفة الوعى) التى ترى العلاقة بين اللغة والفعل كالعلاقة بين الذات والموضوع، أى التحرر من منظومة الفكر التجريبى. أيضًا رأى هابر ماس أن الفعل يتخذ صورتين، وهما الفعل الاستراتيجى وفعل التواصل. الأول يتضمن الفعل الغائى العقلانى، فى حين أن فعل التواصل هو ذلك الفعل الذى يرمى للوصول إلى الفهم. ركز هابر ماس - خاصة مع أنصار ما بعد الحداثة - على أن العقلانية تستلزم نسقا اجتماعيا ديمقراطيا يشمل الجميع، وهدفه ليس الهيمنة بل الوصول إلى التفاهم بين أفراد المجتمع. كان هابر ماس يرى أيضًا أنه يوجد نظام أخلاقى كامن فى البشر، بمعنى (الأخلاق الكلية). لم ترق فكرة الأخلاق الكلية لعلماء الاجتماع، فقد تساءلوا عن كيفية وجود نظام أخلاقى ينطبق على جميع البشر بشتى مشاربهم

وأنماط حياتهم. كان هابر ماس يرى فى الرأسمالية مرحلة من مراحل التطور، قد تنحرف فتؤدى إلى كارثة ولكنها بصفة عامة هى ليست بالشر المستطير.

إذا كان السلوك Behavior بصفة عامة هو الموضوع الرئيسى فى علم النفس، والذى يشمل نشاط الإنسان فى تفاعله مع بيئته وعناصرها، فإن السلوك الاجتماعى Social Behavior هو السلوك الذى يقوم به الفرد متأثراً بعلاقاته أو تواجده مع آخرين، أو مؤثرًا فى سلوك الآخرين أو فى علاقاتهم بعضهم مع البعض. من هذا السلوك ينبع السلوك الجماعى Group Behavior، وهو الذى يعبر عن الصيغة الاجتماعية التى تطبع سلوك الأفراد حين ينتمون إلى جماعة واحدة، بحيث يتغير السلوك الفردى لكى يلائم سلوك الجماعة كضرورة لاستمرار تمتعه بالانتماء الاجتماعى، والاستفادة من وضعه كعضو عامل وفعال فى المجتمع. يعتبر السلوك الجمعى ظاهرة اجتماعية تعكس نواتج عملية التفاعل الاجتماعى بين الأفراد، وتشكل تفكيرهم، وتحدد رؤياهم الخاصة، وتقارب بين وجهات نظرهم.

العقد الاجتماعى:

انتشرت نظرية العقد الاجتماعى، أى فكرة وجوب وجود اتفاق أو عقد بين فرد يحكم وآخرين خاضعين له فى أواخر العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة على أيدى مارسيلو دى بادورا، وجيوم دوكان، ونيقولا ديكوزا، وإيناس سلفيوس، وهوكر وفرانسيسكو، وخوان ماريانا وغيرهم. فى القرن السابع عشر ومع ظهور عصر العقل والحضارة الحديثة وجدت فكرة العقد الاجتماعى فى كتابات الفلاسفة الاجتماعيين، مثل: هوبز وسبينوزا ولوك. ذهب هوبز إلى أن الحاكم وفق عقد لا رجوع فيه تنازل الأفراد للملك عن كل حق لهم، وكان هذا تبريراً كافيًا لطغيان الحاكم. كان رأى سبينوزا مشابه لرأى هوبز بدون الحكم المطلق للحاكم أو الملك، فالأفراد لا يفقدون كل حقوقهم كما نادى هوبز، بل لهم أن يتمتعوا بحريتهم فى التفكير وفى التعبير عن آرائهم، وللأفراد أن يثوروا على الطغيان لضمان حريتهم.

رفض الفيلسوف الإنجليزى جون لوك آراء هوبز، فكان يرى أن الإنسان وجد حرا بطبيعته، ولكن له سلوك عقلانى خفف وكبح حريته المطلقة. إن الحالة الطبيعية للبشر عند لوك لم تخل من المتاعب والأخطار بسبب فساد بعض الأفراد، لذلك كان لا بد من وجود ثلاثة أشياء مهمة: قانون مستقر واضح، وقاض عادل يحكم بين الأفراد، وأخيرًا قوة سيادية أو قوة عليا تنفذ القانون، وعليه وجدت الحياة المدنية الحضارية وفق عقد أبرم بين الحاكم والأفراد، فى هذا العقد لا يكون الحاكم إلا مجرد حكم بين الأفراد، فهو يتمتع بحقوق أعلى وأسمى من حقوق الأفراد المحكومين الذين يستطيعون باستمرار استخدام حقوقهم الطبيعية ضده عن طريق الثورة على الحاكم الطاغية، لأنه فى هذه الحالة يكون قد أخل بشروط العقد وجعل للمحكومين فى حل من الارتباط بهذا العقد. تأثر الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو بآراء لوك وكتب فى القرن الثامن عشر كتاب (العقد الاجتماعى)، الذى يحتوى على أربعة أجزاء هى: فى الميثاق الاجتماعى، فى السلطان، فى الحكومة، وأخيرًا فى كيفية تسير الأمور فى المدينة الفاضلة.

أثار فلاسفة العصر الحديث، بدءًا من القرن الثامن عشر عن الإرادة العامة، التى لها وحدها الحق فى قيادة الدولة وتوجيهها نحو الغاية التى أنشىء من أجلها النظام السياسى لما فيه صالح وفائدة للمجموع، أو على الأقل للأغلبية. إن الإرادة العامة يجب أن تكون مصدرًا للقانون والحاكم الذى يحكم وينظم. تتشكل الإرادة العامة عندما يضحى الفرد بمصلحته الفردية فى سبيل مصالح أسمى تعود على الجميع بالخير وهو الصالح العام. إنها روح المجموعة التى يجب أن تعى الفائدة الفردية والتى تنظم من خلال إرادة عامة متفق عليها تمثل الأغلبية، وأن الإرادات الفردية قد تتعارض وغالبا ما تتعارض، وتنتهى إلى الخسارة لمجموع الأفراد الذين يتشكل منهم المجتمع. إن المصلحة العامة لا تأتى من فراغ، بل من تفاعل الإرادات الفردية التى تصنع الأهداف العامة، والقوانين والتشريعات، والمنظومات الحياتية التى تنظم

العلاقات بين الأفراد بعضهم البعض وبين الأفراد والدولة، وسياسات متفق عليها مسبقًا. عندما يتم وضع الإرادة العامة يجب أن يتجرد أفراد الصفوة الفكرية - وهى المفروض لها أن تحدد الإرادة العامة ومنظومات وسياسات المجموعة - تتجرد من المصلحة الفردية، أى ينسى أو يتناسى الفرد كونه ووضعه الاجتماعى والاقتصادى وما يملك وما يصبو إليه حتى لا يؤثر وضع الفرد فى قرارات لها طابع شخصى قد لا يخدم الجماعة أو يخدمها بدرجة أقل.

فى عام ١٧٦٢ نشر الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو كتاب "فى العقد الاجتماعى، أو مبادئ القانون السياسى" مستهلا الفصل الأول فيه بالجملة التالية: (ولد الإنسان حرا وهو فى كل مكان مكبل بالأغلال). ذهب روسو إلى أن فى بداية البشرية كانت توجد حالة طبيعية بدائية لم تكن فيها قوانين، ثم جاءت فكرة الدولة لتدمر هذه الحرية، اقترح روسو إيجاد شكل من المجتمع يدافع عن شخص كل عضو فيه وعن متاعه ويحميها بكل ما أوتى ذلك المجتمع من قوة المجموعة، مجتمع يظل الإنسان فيه - رغم اتحاده مع الجميع - يطيع نفسه فقط، ويبقى حرا كما كان من قبل. كان حل هذا التناقض فى فكر روسو فى "العقد الاجتماعى"، الذى لا يعتبر تعهدًا من المحكومين بإطاعة الحاكم، بل اتفاق الأفراد على أن يخضعوا رأيهم وحقوقهم، وسلطانهم لحاجات ورأى مجتمعهم ككل. وكل فرد يدخل ضمنًا فى مثل هذا العقد بقبوله حماية القوانين العامة، والسلطة العليا فى أى دولة لا تستقر فى أى حاكم - فردًا كان أو جماعة - بل فى الإرادة العامة للمجتمع، وتلك السيادة لا يمكن التخلى عنها أبدًا وإن جاز تفويضها جزئيًا إلى حين. إن الإرادة العامة أو روح الجماعة يجب أن تكون الصوت المعبر لا عن المواطنين الأحياء فحسب، بل الذين لم يولدوا بعد، الذين سيولدون فى ظل قوانين وقيم وأعراف قائمة تمس معيشتهم وحريتهم.

وصف روسو بعض الشعوب التى رسخت فيها عادات وتقاليد جمدت

مع الزمن بأنها شعوب شائخة أى كبرت وهرمت، وأنها أقل استعداداً لقبول تشريعات جديدة، لذا فكل شعب له ظروفه العقائدية والتاريخية والثقافية التى تحتم على المشرع ألا يتجاهلها عند سن القوانين. . وفى كل الأحوال ما المشرع إلا مقترح للقوانين التى يجب أن تخضع فى النهاية إلى موافقة الإرادة العامة أو رفضها، والتى تمثل إرادة الشعب بالإجماع. أكد روسو على المساواة، حيث إن المساواة ضرورية ولازمة للوصول إلى الحرية، وليس معنى المساواة أن يتساوى جميع الأفراد فى مكانتهم الاجتماعية وثرواتهم، ولكنها تعنى المساواة فى الحقوق والالتزامات، والثروة فى رأيه يجب أن تكون موزعة بحيث لا يستطيع الغنى أن يشترى الفقير، أو أن يلجأ الفقير إلى بيع نفسه للغنى (البيع بمعنى الخضوع، أو التزلف والتملق والرياء). قسم روسو القوانين إلى ثلاثة، أولهم القوانين السياسية التى تحدد علاقات الدولة من حيث هى هيئة ذات سيادة وسلطان بالشعب، وهو ما يسمى بالقوانين الدستورية أو القانون العام. ثانيا القوانين التى تحدد علاقة الأفراد بعضهم ببعض أو علاقة كل منهم بالدولة، وهى القوانين المدنية. وأخيراً قوانين تحدد علاقة الفرد بالقانون بحيث يعاقب الخارج على القانون عقابًا محدوداً وموضوعًا وتلك هى القوانين الجنائية. نوَّه رسو إلى القوانين غير المكتوبة، الراسخة فى مكنون الأفراد، وهى العادات والتقاليد المستقرة.

ذهب روسو إلى أن الحكومة هى مجرد هيئة مفوضة من الشعب للقيام بنوع خاص من الأعمال وهى أعمال التنفيذ، ويجب أن يظل الشعب محتفظًا بحقه فى التشريع، فتشكيل الحكومة أو تفويضها يتم وفق قانون يصدر عن الإرادة العامة للشعب، وأعضاؤها ليسوا سادة الشعب، بل هم مجرد موظفين يعملون فى خدمة الشعب، وأن أى حكومة تكون مؤقتة يستطيع الشعب أن يغيرها، سواء بتغير أعضائها أو بتغير شكلها فى أى وقت يراه مناسبًا. إذاً فالحكومة هى هيئة وسيطة بين الشعب والحاكم لها أن تتولى تنفيذ القوانين وصيانة الحريات المدنية، والحاكم هو الذى اختاره الشعب وفقًا لعقد حكم،

فيه يفوض الشعب الحاكم بالحكم، أو بمعنى آخر إدارة نظام الدولة ككل، والحكم الديمقراطي السليم يستند على الإرادة العامة بما فيه الصالح العام.

شرح روسو أيضًا في الميثاق الاجتماعي، العلاقة التي يجب أن توجد بين الأفراد بعضهم البعض: (لا بد من إيجاد نوع ما من الاتحاد من شأنه استخدام قوة المجتمع كلها في حماية كل فرد من أعضائه، وممتلكاته، وذلك بطريقة تجعل كل فرد، إذ يتحد مع قرنائه، إنما يطيع إرادة نفسه ويظل حرا كما كان من قبل). إن الميثاق الاجتماعي هو وثيقة اجتماع تقوى الفرد وتحميه دون الحد من حريته الشخصية، وإرادته الفردية. ومن المنطقي أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال تحقيق معادلة الانتساب الكامل للمجموع. والحرية الفردية الكاملة، ولكن يمكن الوصول إلى التوافق الذي يحمي ويقوى الفرد والمجموع. إن المجتمع يستطيع حل هذه المعادلة التي ليس لها حل رياضي محدد بقليل من التنازل والمرونة، للمجتمع ككل، أو الشعب كإرادة عامة وأهداف مشتركة، مثل: تحقيق العدالة، والمساواة، والحرية، والديمقراطية، والرفاهية، . . . . إلخ، للشعب عن طريق الجمعيات الأخرى أو الأفراد الذين ليس لهم جمعية أو كيان لا ينتمون إليه، قد يتنازل الفرد عن جزء من حريته وسلطاته، ولكن القدر الذي يتنازل عنه الفرد يجب ألا يزيد عن ما يتطلبه خير المجتمع ورفاهيته واستقراره، وتطوره المستمر إلى الأفضل. أيضًا يجب أن يشعر الفرد بالمساواة في تطبيق القوانين دون وجود لطبقة الصفوة والحظوة والسلطان.

في عام ١٩٧١ تناول جون رولز في كتابه "نظرية في العدل" مبادئ العدل باعتبارها أساس النظام الاجتماعي، طارحًا نظريته التي هي إحياء لنظرية العقد الاجتماعي. يرى رولز أن أول المجالات التي ينصرف إليها العدل هو توزيع الطيبات بمعنى كل ما يمكن أن تصبو إليه نفس الإنسان من المال والجاه والحرية والفرص واحترام الذات، وأن توزيع مثل هذه الطيبات في مجتمع عادل يعتمد على مبادئ العدل المعمول بها ضمن نسق متكامل من

الحقوق والقوانين والإجراءات والأوضاع التى يتألف منها المجتمع باعتباره كيانا سياسيا فاعلا، وعلى هذا فإن كان للمجتمع قائما على مبادئ المنفعة العامة فسوف يستهدف تحقيق أكبر قدر ممكن من الرفاهية لأوسع قاعدة ممكنة من المواطنين من منظور الخير الأقصى للمجتمع. أما إذا كانت معايير المجتمع قائمة على مذهب الكمال فسوف يستهدف تنمية ورعاية المتفوقين من أبنائه، وسوف يتغاضى عن استغلال أغلبية أبنائه، بل قد يعمل على تكريس الاستغلال من أجل مصلحة المتميزين والمتفوقين. كان رولز يرمى إلى بناء نظرية تتفق نتائجها مع المفاهيم العامة للعدل من منظور المنفعة العامة، وأن يترتب عليه فى الوقت ذاته نتائج عملية تصلح أن تكون إطارًا للحياة الاجتماعية، وموجهًا للسياسات الاقتصادية. ذلك المنظور يختلف فى بعض جوانبه عن الديمقراطية الليبرالية، كما يختلف كذلك عن الرأسمالية التقليدية المحافظة على حرية العمل وحرية المشروعات. كان رولز يرى أن لكل إنسان أهدافًا يتوقف تحقيقها على ما أطلق عليه رولز "الخيرات الأولية" Primary Goods، وأن إشباع الحاجات الإنسانية يعتمد على تفاعل الإنسان فى النشاط الاجتماعى مع الآخرين. أما فيما يتعلق بالحرية فقد كان رولز يرى أن لكل شخص الحق المتكافئ فى النسق الشامل من الحريات الأساسية المتكافئة وعلى نحو يتسق مع نسق مماثل من الحرية للجميع.

النظام الطبقى

فطن الإنسان - حتى قبل ظهور الحضارات - إلى نواحى الاختلاف بين البشر وخاصة فيما يتعلق بالكفاءة الجسدية، والذكاء، ومقدار الامتلاك (غنى- فقير) أما فى العصر الحالى فقد ظهرت نواح أخرى فى الاختلاف، مثل: المهنة والثقافة ومستوى المعيشة وخلافه. قسم أفلاطون سكان مدينته الفاضلة إلى طبقات، الطبقة العاملة وطبقة الموظفين والجنود والطبقة الحاكمة، كما قسم أرسطو الشعب فى كتابه "السياسة" إلى ثلاث طبقات: الغنية جدا،

والفقيرة جدا، والمتوسطة، أما فى العصور الحديثة فقد قسم آدم سميث الأمة إلى ثلاثة أقسام رئيسية: أصحاب الأراضى الذين يعيشون على إيجارها للغير، والعمال الذين يعيشون على ما يحصلون عليه من أجر، وأخيراً التجار وأصحاب الأعمال الذين يعيشون على ما يحققونه من أرباح. بجانب نظرية كارل ماركس الاقتصادية فقد اشتهر أيضًا بنظريته فى الطبقات الاجتماعية Stratification. رأى ماركس أن التاريخ ينقسم إلى مراحل متعددة، مثل: مرحلة المدنيات القديمة ومرحلة الإقطاع ومرحلة الراسمالية، وأن كلا من هذه المراحل يتميز بطابع معين فى الإنتاج يقوم على أساسه نوع من البناء الطبقى يتمثل فى طبقة مسيطرة وأخرى خاضعة لها، وتحتل الطبقة المسيطرة مركزها الاجتماعى من خلال ملكيتها وسيطرتها على أدوات الإنتاج، مما يجعلها تهيمن أيضًا على الحياة الأخلاقية والفكرية فى المجتمع. وعلى هذا الأساس فإن الوضع الذى يحتله الفرد فى التنظيم الاجتماعى للإنتاج هو الذى يحدد الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها. كانت الطبقة الاجتماعية عند ماركس هى أى حشد من الناس يقوم بوظيفة واحدة فى تنظيم الإنتاج كالأحرار والعبيد والنبلاء والعامة، والإقطاعيين والفلاحين، والتجار والموزعين، وهم على هذا الأساس المسيطرون والخاضعون، وتتميز كل طبقة على الأخرى باختلاف وضعها الاقتصادى. كان تنظيم الإنتاج هو الأساس لوجود الطبقات الاجتماعية فى فكر ماركس والذى يقوم على الصراع حول المكاسب الاقتصادية وسهولة انتقال الآراء بين الأفراد ونمو الشعور الطبقى. وازدياد التذمر بسبب الاستغلال.

كان وما زال النظام الطبقى ظاهرة فى جميع المجتمعات يميز طبقة عن أخرى، ويعطى حقوق الطبقة دون طبقة أخرى، أى نظام قائم على عدم المساواة بين البشر ولا يعترف بمبدأ تكافؤ الفرص. يأخذ النظام الطبقى أشكالاً متعددة يعتبر أهمها ظهوراً فى المجتمعات الإنسانية:

أولاً: النظام الطائفي Caste System

وهو أكثر النظم الطبقية تطرفًا وجمودًا، وأساسه دينى/عقائدى، أو عرقى. ينتشر هذا النظام فى الدول المتخلفة اجتماعيًا فى أفريقيا وآسيا، وعلى الرغم من أن النظام الطائفى عقائدى أو عرقى - أى أن الفكر هو الذى كان له الدور الرئيسى فى هذا النظام - إلا أنه قد اتخذ بمرور الزمن طابعًا اجتماعيا يتعلق بالحياة نفسها، وبذلك أصبح من العسير على الفرد الذى ينتمى لطائفة معينة العيش خارج نطاق هذه الطائفة. فى العادة لا تتبع الطوائف هيئة معينة أو رئاسة معينة. كما لا تقوم حولها حقوق أو التزامات قانونية. يرجع الولاء للطائفة إلى العقيدة القوية التى تملك صاحبها، وإلى الشعور بالذات والاطمئنان للارتباط بالطائفة، وأخيرًا الخوف من العقاب الدينى الذى يمكن أن يتطور إلى الطرد من الطائفة أو إنزال العقاب الجسدى أو العزل.

ثانيًا: النظام القانوني Estate System

يأخذ هذا النظام من التميز بين الطبقات أو الأفراد أو المراتب المختلفة التى تدخل فى تشكيله عن طريق الحقوق والالتزامات التى تحددها القوانين. يتميز هذا النظام بمظهرين رئيسين أولهما دينى أى فى نطاق رجال الدين، والآخر مدنى، كان رجال الدين فى الماضى ينقسمون إلى عدد من الفئات التى لا ترتكز إلى أساس دينى فحسب بل على تميز قانونى أيضًا. أما النظام المدنى فقد كان يتميز بطبقاته أو فئاته الأربع التالية: البيت المالك Royal Family والذى يتوارث الملك والحكم، وطبقة النبلاء Noblemen أعضاء الأسرة المالكة والطبقة الأرستقراطية المميزة، وعامة الشعب Commoners وأخيرًا عمال الأرض والعبيد والأرقاء Slaves and Serfs.

ثالثًا: النظام العرفي Social Classes System

يقوم هذا النظام نتيجة لاختلال التوازن الاجتماعي الذى ظل موجودًا حتى بعد قيام المساواة بين الأفراد قانونًا. يمكن أن يرجع قيام الطبقات الاجتماعية إلى:

- أسس بيولوجية: مثل الجنس (ذكر/أنثى)، والذكاء، والموهبة، والصفات الجسدية.... إلى آخره.
- أسس اقتصادية مادية من عدم مساواة فى الدخل، وأملاك ومدخرات، ومركز وظيفى، ووضع اجتماعى، ومستوى تعليمى، وامتلاك مقومات القوى.
- أسس سياسية: مثل الانتماء للأحزاب الحاكمة، أو الطبقة الحاكمة.

يذهب علماء الاجتماع إلى وجود فروقًا واضحة فى كثير من نواحى الحياة بين الطبقات الإجتماعية المختلفة، والتى تتبلور فى وجود ثقافات متعددة داخل الثقافة العامة للأمة. تنعكس ثقافة الطبقة على المجالات الحياتية التالية:

* **السلوك**: بالرغم من اختلاف نماذج السلوك الفردى داخل الطبقة الواحدة، إلا إنه يوجد غالبًا سلوك يتفق والقيم السائدة فى الطبقة التى ينتمى إليها الفرد.
* **اللغة**: تتميز كل طبقة اجتماعية بأسلوبها فى الكلام، وفى لهجتها وألفاظها، وفى الأمثلة التى تستخدمها.
* **لكل طبقة طريقتها الخاصة فى**: تربية أطفالها، وفى نظرتها إلى المرأة كمتزوجة/غير متزوجة/أرملة/مطلقة، وإلى العلاقة بين الزوج والزوجة، والعلاقة بين الأبوين والأبناء.
* **الثقافة العامة**: كل طبقة اجتماعية لها فى العادة ثقافة خاصة تتميز بها

فى جميع المجالات: من تعليم وفنون وآداب وعقائد، ونظرة الفرد للمجتمع / نظرة المجتمع للفرد، .. إلى آخره.

إن الطبقات الاجتماعية هى حقيقة قائمة، ولكن تختلف أشكالها وصورها من مجتمع لآخر، ومهما حاول الإنسان أن يطبق نظم العدل والمساواة، ومهما حاول البشر فى انتهاج المذاهب الإنسانية، إلا أنه لن يستطيع القضاء على النظام الطبقى فى منظومة أساسها الاختلاف والتباين، وحتى تكتمل المنظومة بتناقضاتها التى تعطى للمنظومة مذاقًا بعيدًا عن الملل والرتابة.

العبوديــة

وجد الصراع الغريزى منذ بدء الخليقة الإنسانية، أو منذ أن تبين للإنسان القوى / الذكى التفوق النسبى فى الذكاء وفى القوة الجسدية بينه وبين أقرانه، وظهر الأسْر كمحصلة طبيعية لتغلب فرد على آخر أو تغلب مجموعة على أخرى. كان الغالب فى وضع يسمح له بقتل الأسير أو استخدامه. تنازل المهزوم عن حريته للإفلات من موت محتوم ورضى بالعمل لدى الغالب مقابل الحد الأدنى للمعيشة وأصبح الأسير عبدًا لسيد قد يضعه القدر فى نفس الموقف. تعرف العبودية بكونها عرفًا اجتماعيًا يتخذ الشكل الجبرى اللاإرادى للاستخدام الإنسانى، ويعتبر العبد ملكية خالصة للسيد أو المالك الذى يستطيع إرغامه على العمل، أو بيعه، أو رهنه، أو التنازل عنه، أو إهداءه بدون أى اعتراض من العبد أو من أى فرد آخر. فيعتبر العبد كيانًا خاضعًا لمشيئة المالك، حتى حياته كانت تعتبر فى بعض الأحيان ملكًا للسيد المالك.

ساعد الرق فى قيام الإنسان بالصناعة وزيادة إنتاجه. لقد نظر أسلافنا القدامى، حتى الفلاسفة منهم مثل الفيلسوف الإغريقى أرسطو إلى الرق كنظام فطرى لا غنى عنه، ويعود بالنفع والفائدة على البشر. تطورت العبودية وسادت فى العصور القديمة والعصور الوسطى، وكان العبد قديما يقيم ماديا

حسب جنسه وسنه وقدرته، فالأنثى تعمل خادمة فى المنزل أو تعمل كوصيفة لصاحبة المنزل أو قد تعمل فى البغاء، والذكر يعمل فى الزراعة أو الصناعة أو خادمًا مطيعًا لسيده، أصبح الحفاظ على العبد كالحفاظ على الأملاك مثل الماشية أو العقار أو الأرض، وانتشرت تجارة الرق لما لها من عائد اقتصادى يدر على السيد مالا أو ينهل منها لذة. لقد تحول الإنسان إلى حيوان بشرى يقوم بتربيته وتهذيبه وتهجينه من له حق الملكية الذى كان يشجع تخصيب النساء حتى يزيد من رأس ماله، وقد وصل الحال أن الإغريق اعتبروا أن عملية تخصيب وتربية العبيد أكثر نفعًا وجدوى من تربية الماشية. عرف العرب أيضًا من العصر الجاهلى وحتى عصر المماليك نظام الرق والنخاسة. حتى نهاية القرن التاسع عشر كان الرق الأسود من زنوج أفريقيا مباحًا فى الأمريكيتين خاصة فى الولايات الجنوبية من أمريكا الشمالية وفى البرازيل نظرًا لحاجة هذه الولايات الزراعية إلى الأيدى العاملة فى زراعة القطن فى الولايات المتحدة أو زراعة القصب فى البرازيل.

بدأ الغرب فى عصر العقل والتنوير فى مهاجمة نظام الرق، فكتب آدم سميث فى كتاب "ثروة الأمم": (إن العامل الحر متفوق على العبد لأن الإكراه لا يجعل الإنسان مبتكرا، متحمسًا، وذكيًا). وأرجع سميث غلاء المنتجات إلى استخدام العبيد فى العمل. حتى نظرة آدم سميث إلى العبودية لم تكن إنسانية بل نظرة مادية تؤدى إلى معاناة السيد من الغلاء. فلم يكن السيد أبدًا ولن يكون رحيمًا لأن طبيعة السيد المالك دائمًا بلا رحمة أو شفقة حتى وإن وجدت الرحمة فلأجل الحفاظ على القيمة المادية للعبد، ومن أجل كسب شهرة زائفة من الرحمة والأخلاق.

ذهب كلود شتراوس وهو أحد علماء الأنثروبولوجيا، إلى أن العنصرية اختراع قديم، وأن فكرة الأخلاق والإنسانية المشتركة بين البشر جديدة نسبيا، كما كتب المؤرخ الأمريكى كافين رايلى فى كتابه "الغرب والعالم - تاريخ

الحضارة": (لم يحدث أن تصورت قبيلة بدائية واحدة أن كل الدنيا أبناء يتسبون إلى الآباء أنفسهم أو الإله نفسه، وإنما آمنوا بأن لكل قبيلة أسلافها وآلهتها الخاصة ولم تظهر الأديان التى تنادى بالأخوة الشاملة بين البشر إلا فى الألفى سنة الأخيرة). سرد رايلى فى كتابه مثالين للعنصرية القديمة، أولهما عنصرية قدماء المصريين التى صورت الناس فى ثلاثة ألوان كمؤشر على أفكار المصريين عن التفوق النسبى أو الدونية النسبية. كان أقرب البشر إلى الإله المصرى من الشمال أسمر البشرة، يليه مصرى من الجنوب أسود البشرة، وأخيرًا أوروبى أبيض البشرة، أما المثال الثانى عن العنصرية القديمة فكان عن العنصرية فى الصين فى عهد أسرة "هان" التى اعتبرت أهل أوروبا من ذى الشعر الأصفر والعيون الخضراء من نسل القرود. يرى كافين رايلى أنه بالرغم من استرقاق المصريين أو الصينيين أبناء الأجناس الأخرى، فإنهم لم يجعلوا الرق العنصرى أسلوبًا فى الحياة كما حدث فى الأمريكيتين.

ظهر فى القرون الوسطى فى أوروبا المظلمة، وفى الشرق والدول الشيوعية فى القرن العشرين نوع آخر من الاستعباد والعبودية، وهو الاستعباد الفكرى أو الأيدلوجى، لا يسمح للفرد أن يعبر عن رأيه الذى يخالف النظام السائد، اعتقلت السلطة الديكتاتورية الإنسان الحر، ومارست فيه كل أنواع العذاب البدنى والنفسى حتى لا يغير من أفكارها ومعتقداتها. كان الموت أو السجن مدى الحياة هو البديل لحرية الإنسان الذى حرر أفكاره من معتقدات الجدود الموروثة أو من أفكار جديدة لا تلائم ذاته الفردية.

لقد استعمر الغرب البلاد العربية والآسيوية والأفريقية وعاملهم كالعبيد، وغزا العرب بلاد الفرنجة وشرق أفريقيا وجلب منها الكثير من العبيد، واستخدم الإقطاعى الصينى أو اليابانى أو الهندى العبيد فى العمل أو المتعة. لم يكن الاستعباد مقصوراً على عرق بشرى أو بلد معينة أو جنس دون جنس آخر، ولكن ارتبط دائمًا بالحضارة، فالثقافات البسيطة غير المتحضرة - مثل بعض الثقافات الأفريقية وبلاد الإسكيمو - لم تعرف نظام الرق والعبودية.

إن السـيد والعبد وُجدا - تقريبًا - فى كل مكان وفى كل زمان. لقد تقدم الزمن، وتطورت الحضارات، واكتشف الإنسـان أشكالاً أخرى للطاقة غير الطاقة الجسدية للإنسـان - مثل الفحم والبترول والكهرباء - ولكن ما زال البعض يمتهن جسد البعض الآخر. ظن بعض المفكرين أن اختراع الآلات - فى عصر الثورة الصناعية - سيبيح إلغاء الرق، ولكن تغير الشكل وتبقى مضمون العبودية كما هو، بل زادت سوءة النظام بأن أصبح الإنسـان - بجانب عبوديته لإنسـان آخر - أصبح عبدًا للآلة ولمؤسسـات صناعية ومالية وتجارية عملاقة، تستنفذ جهده وآدميته فى سبيل رفاهية عدد قليل من الأفراد يمتلكون هذه المؤسسـات.

حقـوق الإنسـان Human Rights

اصطبغ القانون الرومانى بروح الفلسفة الإغريقية، فأفرز ما يسمى "القانون الطبيعى" كمفهوم عام يتضمن: (وجود قانون ثابت لا يتغير، يعتبر المثل الأعلى الذى يجب أن تنسج على منواله قوانين المجتمع لأنه قائم على مبادئ لم تؤخذ من تقاليد متفق عليها ولا من قواعد محدودة فى كتاب، بل مصدره الطبيعة ويكشفه العقل من روح المساواة والعدل الكامنة فى النفس). انتقلت فكرة "القانون الطبيعى" إلى إنجلترا عن طريق الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى ثم بدأت فكرة العدالة تبرز منذ القرن الثالث عشر. اتجهت فكرة العدالة فى إنجلترا إلى أنها يجب أن تتفوق على مبادئ القانون العادى، وأن الضمير - ممثلا فى ضمير الملك - هو الذى يرشد إلى مبادئ العدالة. تبلورت المرحلة التالية من خلال كتابات الفلاسفة الاجتماعيين عن نظرية "العقد الاجتماعى"، التى استقى منها إعلان الاستقلال الأمريكى، وكذلك مبادئ الثورة الفرنسية.

نص إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية الصادر فى ٦ يوليو عام ١٧٧٦ على: (أن كل الرجال قد ولدتهم أمهاتهم سواسية)، وتضمن الإعلان

فى صدره ذكر حقوق الإنسان فى المساواة والحرية والحياة والسعادة وتغير الحكومات التى لا ترعى تلك الحقوق. على إثر قيام الثورة الفرنسية صدر إعلان حقوق الإنسان والمواطن فى ٤ أغسطس عام ١٧٨٩ تتصدره عبارة: "يولد الناس أحراراً ومتساوين فى الحقوق". ركز هذا الإعلان على الحقوق دون الواجبات وعلى الحرية فى مدلولها السياسى والقانونى بوجه خاص، ثم صدر الإعلان الذى سبق دستور ٢٤ يوليو من عام ١٧٩٣ الذى ركز بصفة خاصة على المساواة وأشار إلى الواجبات. سادت مبادئ الإعلان الفرنسى الصادر عام ١٧٨٩ الدساتير الفرنسية التالية وكثيراً من دساتير دول أوروبا الغربية الصادرة خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

يعرف الحق Right بأنه الرابطة القانونية التى بمقتضاها يخول لشخص على سبيل الانفراد والاستئثار التسلط على شىء أو اقتضاء أداء معين من آخر. تقسم الحقوق إلى سياسية ومدنية، والحقوق المدنية إما عامة وهى الحقوق اللازمة للفرد كحماية شخصه وكفالة حريته، وإما خاصة وهى حقوق الأسرة والحقوق المالية. والحقوق العامة هى موضوع القانون العام ومن أمثلتها الحريات أو الرخص العامة كحرية التنقل وحرية الاجتماع وحرية الرأى وحرية العقيدة وحرية المسكن، وهى حقوق مشتركة بين الناس فلا يستأثر بالتمتع بها أحد ومن ثم لا تتفق مع المعنى الاصطلاحى الدقيق للحقوق لكنها تعطى للأفراد سلطات معينة يسبغ عليها القانون حمايته من أى اعتداء يقع عليها.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٤ صدرت دساتير جديدة لبعض الدول الغربية، مثل: فرنسا وإيطاليا وألمانيا الاتحادية وقد سبقتها إعلانات جديدة لحقوق الإنسان أو مقدمات للدساتير تتضمن هذه الحقوق. أعقب ذلك صدور دساتير الدول الإفريقية، ودول أمريكا اللاتينية التى نالت الاستقلال أو التى قامت بها ثورات تحريرية، والتى نصت على حقوق الإنسان ولكنها كانت ناقصة ومقيدة. أخذت تتجلى فى تقارير حقوق الإنسان النزعة إلى تأكيد الحقوق الاجتماعية والاقتصادية إلى جانب الحقوق السياسية والقانونية

والفكرية، وإلى تأكيد النزعة الإيجابية ومسئولية الدولة تجاهها.

فى ديسمبر من عام ١٩٤٨ صدر الإعلان العالمى لحقوق الإنسان عن الجمعية العامة للأمم المتحدة (Universal Declaration of Human Rights) باعتبار أن هذا الإعلان يمثل التطور المحورى فى صياغة حقوق الإنسان فى العصر الحديث. فى ١٦ ديسمبر من عام ١٩٦٦ صدر العهد الدولى بشأن الحقوق المدنية والسياسية (International Convenant on Civil and Political Rights) والذى اعتبر سارى المفعول من ١٥ يوليو ١٩٦٧، وألحق بروتوكول اختيارى بشأن شكاوى الأفراد من المساواة بحقوقهم المقررة فى الوثيقة. فى نفس تاريخ صدور وثيقة ديسمبر ١٩٦٦، صدر العهد الدولى بشأن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية عن الجمعية العامة للأمم المتحدة. أما العهد الأوروبى لحماية حقوق الإنسان فقد صدر عن المجلس الأوروبى المنعقد فى روما عام ١٩٥٠ . وبالنسبة للدول العربية، فقد اتخذ مجلس الجامعة العربية فى ٣ سبتمبر عام ١٩٦٨ قراراً بإنشاء "لجنة إقليمية عربية دائمة" لحقوق الإنسان بناء على توصية اللجنة السياسية فى هذا الشأن.

لم يحدد الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨ الوسائل والضمانات لمنع أى اعتداء على حقوق الإنسان، واكتفى بنص عام يقرر أن: (لكل فرد الحق فى التمتع بنظام اجتماعى دولى تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها فى هذا الإعلان تحقيقًا تامًا). تضمن الإعلان أيضًا تحذيراً من التحايل على نصوصه أو إساءة تأويلها دون تحديد جزاء Sanction للمخالفة. ألحق بالعهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية لعام ١٩٦٦ بروتوكول اختيارى بشأن الشكوى التى يتقدم بها الفرد من المساس بحقوقه المقررة، كما تضمن العهد الدولى تأليف لجنة لحقوق الإنسان تضطلع بدراسة تقارير الدول الأطراف عن إجراءاتها لتأمين الحقوق المقررة فيه، وتبذل اللجنة مساعيها الحميدة لدى الدول الأطراف المعنية للتوصل إلى حل ودى أو تقدم

تقريراً يبلغ للدول المعنية عند تعذر الحل، ويجوز أن يحيل الأمر إلى لجنة خاصة للتوفيق بناء على موافقة مسبقة من الدول المعنية. أما بروتوكول ١٩٦٧، فإن الدولة التى تختار أن تكون طرفًا فيه تقر باختصاص لجنة حقوق الإنسان فى تسلم تبليغات الأفراد الخاضعين لولايتها الذين يدعون أنهم ضحايا انتهاك تلك الدولة لأى من الحقوق المقررة فى العهد ودراسة تلك التبليغات، وتبعث اللجنة بوجهات نظرها إلى كل من الدولة المتعاقدة المعنية والشخص المعنى.

يوتوبيا... حلم الإنسان

كان كتاب الفيلسوف الإغريقى أفلاطون "الجمهورية" فى القرن الخامس قبل الميلاد أول الكتب التى تبحث فى المدينة المثالية الفاضلة، كما كان كتابه الذى لم يتمه "القوانين" قواعد لقوانين يمكن أن تطبق فى مدينته الخيالية، واستمرت مسيرة الإنسان، وظهر الكثير من المذاهب الفلسفية والاجتماعية، وتعددت الاتجاهات ولكن لم ينس أن يحلم بمدينة الأحلام، حيث يعم المودة والسلام، والحب والوئام.

فى القرن السادس عشر صور توماس مور فى أسلوب تخيلى جزيرة يوتوبيا التى تحتوى على المدينة الفاضلة والجمهورية المثالية. اشتقت كلمة يوتوبيا من مقاطع يونانية قديمة ومعناها البلد الذى لا وجود له، إنه البلد الخيالى الذى تمنى وجوده توماس مور وصار بعد ذلك حلمًا يأمل فى تحقيقه دون جدوى سكان كوكب الأرض بالرغم من وجود الكثير من النظم الاجتماعية التى تحاول تطبيق القيم والمبادئ الأخلاقية من عدل ومساواة وحرية وديمقراطية. كتب مور كتابه عن مدينته الخيالية يوتوبيا لينقد ويصلح الأوضاع الخاطئة فى ذلك العصر، ويشير بتهكم إلى ما يسود إنجلترا خاصة وأوروبا بصفة عامة من مساوئ اجتماعية وأخلاق ذميمة. لقد رسم مور

صورة خيالية لدولة مثلى ليقارن بين العادات والأخلاق الحميدة السائدة فى مدينة أحلامه، وفساد الأخلاق والعادات السيئة فى مجتمعه.

فى جزيرة يوتوبيا يتكلم الناس بلسان واحد، ويلبسون طرازاً واحداً، ولهم جميعًا خلق واحد ويسود مدنها نظام واحد. يختار أبناء كل مدينة ثلاثة من الشيوخ يمثلون المدينة، ويجتمع شيوخ مدن الجزيرة معا للتشاور فى شئون الدولة. تقسم المدينة إلى أسر، تختار كل ثلاثين أسرة ممثلا لها، ثم يختار كل ثلاثين ممثلا رئيسًا، ويشترك الممثلون جميعًا فى انتخاب أمير البلاد الذى يظل فى منصب الحكم طوال حياته، إلا إذا ارتكب خيانة تستحق العزل. فى حالة الخصومة بين الأفراد ينظر فى شأنها قاضيان من الرؤساء. وفى يوتوبيا تعرض أمور الدولة جميعها على مجلس الشورى.

واجب دولة يوتوبيا أن تكلف كل فرد بعمل يؤديه، ومن حق الفرد أن يتصرف فى وقت فراغه كما يريد على ألا يشوب سلوكه رذيلة أو سوء. يتناول أفراد الشعب طعامهم فى قاعات فسيحة حيث يأكلون معًا طعامًا واحداً. من يريد السفر إلى مدينة غير مدينته فعليه أن يستأذن السلطات المختصة فى المدينة لتسمح له بالمدة التى يجوز له أن يقضيها فى رحلته، وليس ما يدعو المسافر إلى أن يصطحب معه زاداً أو متاعًا، فأينما حل هو بين أهله وعشيرته على شرط ألا يمكث بغير عمل فى مكان ما أكثر من يوم واحد، فإن أراد البقاء أكثر من ذلك عليه أن يزاول مهنته فى المدينة الجديدة، فإن زاد الإنتاج فى مدينة ونقص فى مدينة أخرى، سد النقص بالزيادة التى توافرت فى المدينة التى بها إنتاج زائد.

أهم ما يعنى دولة يوتوبيا سعادة الإنسان، فكل إنسان له الحق فى أن ينشد سعادته على شرط ألا تكون سعادته الفردية على حساب سعادة المجتمع. شعب يوتوبيا لا يحب الذهب ولا يسعى إليه، والذهب يقيم بما يساوى الحديد. فى يوتوبيا يعد من علامات الجنون أن يجد الإنسان سعادته فى إذلال غيره. ترجع سعادة يوتوبيا إلى السعادة الروحية التى يلتمسونها فى

البحث عن الحقيقة، والسعادة الجسدية التى يجدونها فى الاحتفاظ بصحة الأبدان، وهم لا يقرون وجهة النظر التى تحتقر الجمال وتدعو إلى التقشف والزهد، فهم يهتمون بصحتهم، لذلك فهم يمثلون نشاطًا وقوة. كل من اجرم من شعب يوتوبيا يصبح عبدًا لا تحل عنه الأغلال، ويكلف بأشق الأعمال. وترجع هذه القوة إلى أن الدولة قد هيأت للجميع كل الفرص الممكنة لعمل الفضيلة وطاعة القانون فإن أغرت الرذيلة أحدًا بارتكابها رغم كل ذلك فهو خليق بأن يستذل بدون رحمة. أما المرضى فيجدون فى يوتوبيا كل عناية ورعاية وعطف، فإن أصيب المريض بمرض لا يرجى شفائه، سارع الجميع إلى مجالسته ومؤانسته ليرفهوا عنه. إن أهل يوتوبيا يرفضون المرأة التى تحتقر الجمال الطبيعى فتصبغ وجهها وجسدها بألوان الطلاء والمساحيق، لقد علمتهم التجربة أن حب الزوج لزوجته لا يتوقف على جمال الوجه بقدر ما يتوقف على الشرف والفضيلة والسلوك المتحضر والأخلاق الكريمة، إن فضيلة المرأة وطاعتها لزوجها هما اللذان يعملان على بقاء الحب ودوامه. إن المحبة والاحترام يسودان معاملة الناس بعضهم لبعض، ولا فضل لرئيس على مرءوس، فلا زهو وكبرياء، ولا رياء أو نفاق.

قوانين دولة يوتوبيا قليلة العدد جدا، لأن الشعب الذى يبلغ درجة عالية من التقدم والرقى لا يحتاج إلا قليل القليل من مواد القانون، وهم يعيبون على سائر الشعوب التى تزيد وتطيل فى قوانينها حتى تملأ المجلدات، وهم لا يجيزون أن يلجأ أحد إلى محام يدافع عنه أمام القضاء، فكل فرد يحفظ القانون ويدافع عن نفسه. وأهل يوتوبيا يمقتون الحرب لأنها نكبة على الإنسانية، فالحرب همجية ووحشية، وهم لا يعتبرون الفوز فى الحروب نصرًا، ولكنه قضاء على عدوان. بالرغم من ذلك فإنهم يدربون أبناءهم جميعًا، رجالا ونساءً على القتال حتى يحافظوا على استقلالهم وحريتهم.

فى أرض يوتوبيا أديان وعقائد كثيرة ومختلفة، ولكن الغالبية تعتقد فى إله قوى قادر، أبدى خالد، وإليه ينسبون الخلق. إذا هاجم فرد أو جماعة

إحدى الأديان أنزلت به أو بهم الدولة عقابًا صارمًا، قد يصل إلى إبعاد من يهاجم دين الآخرين من الجزيرة. فدولة يوتوبيا تبيح لكل فرد أن يعتنق ما يشاء من العقائد، وأن يشر الناس بمذهبه ما استطاع، بشرط أن يكون ذلك من غير اعتداء على سواه من الأفراد أو دياناتهم وعقائدهم. يرجع ذلك إلى مؤسس دولة يوتوبيا الذى وجد البلاد ممزقة بالخلاف الدينى، فشرع للشعب الحرية فى الدين، فإن لم يستطع الفرد أن يقنع غيره بالقول والحجة، فلا يجوز له البتة أن يلجأ إلى القوة والإرهاب. ليس بين أهل يوتوبيا من يخصص نفسه لدراسة الدين كى يجعل الدين مهنة وصنعة، إذ الشائع عندهم تلائم العقائد على اختلافها، وليس فيها إشارات لدين بعينه، لذا فالناس جميعًا يحتشدون فى دور العبادة جنبًا إلى جنب، وإن اختلف الإله المعبود، كل يصلى لربه، وذلك كى يؤاخَى بين العقائد ما أمكن ذلك.

تداول مصطلح يوتوبيا كفكرة خيالية لدولة مثالية تنتشر فيها السعادة والإخاء والمحبة، دولة لا يوجد بها حقد أو كراهية أو ضغينة، حتى الضرر أو المرض يعتبرونه قدرًا يتعايشون معه ويحيوا به. فى هذه الدولة يعمل الجميع من أجل المجموع وليس من أجل الفرد، فلا مكان فيها للنفاق والرياء، ولا يوجد بها طغيان أو استعباد. بلد يسوده العدل والمساواة، لا فرق بين كبير أو صغير، أو بين غنى أو فقير، لا حراسة للحاكم أو استخفاف للمحكوم، لا بيروقراطية عفنة يعذب بها الإنسان أخيه الإنسان، ولكن يوجد فقط أخلاق حميدة، ومعايير ثابتة وعادلة للتقيم، وشفافية فى العمل والمحاسبة. خيال لم يستطع الإنسان حتى الآن أن يحوله إلى حقيقة قائمة، وظل وسيظل حلمًا يداعب مخيلة الإنسان.

الفكر السياسى

النظم السياسية

كانت الأسرة فى فلسفة أرسطو هى النواة الأولى فى بناء المجتمع، وظهرت الدولة كتطور تاريخى بعد المرور بمرحلتى القرية ثم المدينة. فالدولة هى الهدف النهائى للحياة البشرية، توفر للإنسان الحاجات الأساسية لحياته المعيشية، وتوفر له الأمان فى الداخل والخارج. ذهب أرسطو إلى أن الإنسان مدنى بطبعه، وأنه يميل إلى حياة جماعية، سياسية، منظمة بفطرته. خالف الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز فكرة أرسطو فى مدينة البشر، فقد أشار إلى أن حالة الفوضى هى الحالة الطبيعية فى حياة الإنسان، وأن المجتمع المنظم هو "مجتمع مصطنع" خلقه الإنسان بإرادته وليس بفطرته. فالإنسان فى فلسفة هوبز ليس سياسيًا، ولا يميل بطبعه إلى الجماعة المنظمة ولكن النشأة الاجتماعية هى التى تشكل شخصيته بحيث تصبح صالحة للحياة فى المجتمع السياسى، ذلك لأن الحالة الطبيعية الفطرية للإنسان هى حالة من الفوضى يحاول كل فرد فيها المحافظة على حياته بما يملكه من قوى عضلية أو ذهنية أو مادية، وكلما كانت قوى الأفراد متقاربة، كان الصراع أكثر احتمالا وأكثر ضراوة. إذا كان الإنسان يحتاج إلى تنظيم، فالتنظيم يحتاج إلى سلطة تخضع لها الجماعة، أى قوة أعلى تحكمه وتنظمه وتضع له القواعد والقوانين. لقد تدعمت هذه السلطة السياسية على مر السنين داخل الجماعة وسميت بالدولة بأشكالها وصورها المختلفة. يعيش سكان عالمنا الأرضى - فى العصور الحديثة - فى دول بينها علاقات فى شتى الأنشطة، وتسمى هذه العلاقات بالعلاقات الدولية، أو السياسة الدولية International Politic. تعرف هذه العلاقة بأنها العوامل وأوجه النشاط المختلفة التى تؤثر على السياسات الخارجية وعلى مراكز القوى التى تشترك فى تقسيم العالم.

ذهب البعض إلى أن الإنسان اخترع فكرة الدولة ليتخلص من الخضوع وإطاعة إنسان آخر، أو كما كتبت أستاذة القانون الدكتورة سعاد الشرقاوى:

(قبول فكرة الدولة يخفف من وطأة الخضوع للسلطة الذى يضطر الإنسان إليه يوميا ويحس بثقله. وهذا التخفيف من ناتج النقل أو التحول من طاعة إنسان إلى طاعة الدولة، أى أن الدولة كفكرة تضفى نبلا وسموا على الخضوع لأنها تقدم تبريرا معقولا للتميز بين الحكام والمحكومين معتمداً على أساس القوة). فى اتجاه آخر يرى البعض أن الدولة تجلب مع الخير المتاعب والقيود، ويناصر هذا الرأى اليوتوبيون والفوضويون والماركسيون. أما وجهة نظر الواقعيين فهى أن النظام البشرى يحوى القوى والضعيف، أفراد يأمرون، وآخرون يطيعون، يوجد مع الإنسان السادى الذى يتلذذ بالعنف، إنسان آخر ماروكى يتشى عندما يتعذب، حتى لو كان هؤلاء غير السويين أقلية فى المجتمع. إن الدولة كما جاء فى المرجع السابق هى تجمع بشرى مرتبط بإقليم محدد يسوده نظام اجتماعى وسياسى وقانونى موجه لمصلحتها المشتركة، وتقوم على المحافظة على هذا التجمع سلطة تمكنها من فرض النظام ومعاقبة من يهددها بالقوة.

حرص أرسطو فى كتاب "السياسة" أن يميز بين سلطة القائد السياسى فى دولة المدينة Polis، عن أشكال أخرى للسلطة مثل سلطة السيد على عبده، أو سلطة الزوج على زوجته، أو سلطة الأب على أبنائه. عرف أرسطو دولة المدينة أو الرابطة السياسية بأنها أكثر الروابط تسيداً واحتوائية، كما عرف الدستور أو نظام الحكم Polity بأنه تنظيم لدولة المدينة بشأن المناصب الموجودة بها بصفة عامة. منذ زمن أرسطو اتفق الفكر الإنسانى على أن العلاقة السياسية تتضمن السلطة أو الحكم أو القوة بشكل ما. . . وفى بدايات القرن العشرين رأى العالم الاجتماعى الألمانى ماكس فيبر أن الرابطة يجب أن تسمى سياسة إذا كانت هناك استمرارية فى فرض نظامها داخل نطاق إقليمى محدد عن طريق استخدام القوة المادية من جانب الهيئة الإدارية أو التهديد باستخدامها. عرف هارولد لازويل - وهو من علماء السياسة فى منتصف القرن العشرين - علم السياسة بوصفه نظاماً معرفياً تجريبياً، وبوصفه دراسة

تشكيل واقتسام القوة، كما عرف العمل السياسى بوصفه عمل يتم إنجازه من منظور القوة. عرف روبرت دال فى كتاب "التحليل السياسى الحديث" النظام السياسى فى الفقرة التالية: (أى نمط مستمر للعلاقات الإنسانية يتضمن التحكم، والنفوذ، والقوة، أو السلطة بدرجة عالية). من التعريف السابق الفضفاض كما أقر صاحبه، يتضح أن الكثير من الهيئات والمنظمات والجماعات... إلى آخره، تملك نظامًا سياسيًا، ولكن تظل السلطة والقوة والنفوذ والتحكم هى أساس بناء النظم السياسية. يعتبر الإقناع الخداعى والقوة والقسر والتهديد باستخدام الإجبار المادى من مظاهر الحياة السياسية. والإقناع الخداعى صورة من صور الاتصال العقلانى ولكن من خلال طرق غير أمينة للاتصال، فهو لا يتضمن نقل المعلومات الصحيحة فحسب، وإنما أيضًا تكون المعلومة فيه خادعة ومضللة. القوة تستخدم أحيانًا بواسطة الدولة لتأمين الإذعان لسياسة الحكم القائم. والتهديد والحرب كثيرًا ما يستخدما فى السياسات الدولية كبديل للجمود أو لتصحيح أو تغيير أوضاع قائمة.

يعبر النظام السياسى للدولة عن مبادئ نظام الحكم المطبقة من الناحية القانونية النظرية ومن الناحية الواقعية والتطبيقية. يرتبط النظام السياسى بظروف كل دولة، وبثقافتها، والقوى الفكرية والسياسية المتواجدة، وتأثير كل منها على الشعب. عَدَّد كتاب "النظم السياسية" نظم الحكم فى العصور الحديثة وصنفها فى أربعة نماذج:

• النموذج الديمقراطى الغربى

وهو النموذج الذى يستند إلى فلسفة الثورة الفرنسية، وفلسفة المذهب الفردى الذى ينظر إلى المصلحة الفردية كغاية للنظام السياسى، والذى يطبق النظم الليبرالية والديمقراطية فى الحكم، نعتبر الدولة ديمقراطية إن هى أعطت شعبها حق اختيار حكومته فى انتخابات دورية متعددة الأحزاب سرية الاقتراع، على أساس من حق الاقتراع العام والمتكافئ للمواطنين البالغين.

النموذج الماركسى:

وهو الذى يتخذ من الفلسفة الشيوعية لكارل ماركس وأنجلز منهجًا للحكم، وقد طبق هذا النموذج فى الاتحاد السوفيتى السابق، ودول أوروبا الشرقية التى كانت تدور فى فلكها، والصين الشعبية، وبعض الدول فى أمريكا اللاتينية وفى أفريقيا.

• النموذج الاستبدادى / الديكتاتورى

تعنى الاستبدادية أو النظرية الاستبدادية Absolutism السلطة المطلقة، أى الحكم بدون وجود قيود قانونية أو أخلاقية على الحاكم. بدأ الحكم الاستبدادى مع الحضارات القديمة فى مصر الفرعونية، وبابل، وأشور، وسومر. إن كانت الحضارتان اليونانية والرومانية قد مرتا بعهود عديدة من الديكتاتورية إلا أنها لم تبلغ مرحلة الاستبدادية. أما الديكتاتورية Dictatorship فتعنى شكلاً من أشكال الحكم فيه يملك شخص أو مجموعة القوى المطلقة دون وجود مؤسسات دستورية مؤثرة. نبعت كلمة الديكتاتورية من اللقب اللاتينى ديكتاتور Dictator والذى كان يطلق على الحاكم الذى يمنح فى حالات الطوارئ قوة أو سلطات استثنائية لفترة محدودة من الوقت، أما فى العصور الحديثة فلم يعد يوجد حاجة للطوارئ لتطبيق الحكم المطلق أو امتلاك السلطات والقوى المطلقة.

• النموذج السياسى الإسلامى:

وفيه ينهض نظام الحكم على مبادئ الشريعة الإسلامية، حيث ينص دستور الحكم على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع، ويطبق هذا النموذج فى بعض الدول الإسلامية.

من مدخل آخر قسم السياسى الأمريكى هنرى كيسنجر نظم الحكم إلى ثلاثة نماذج:

• **نموذج القيادة النفعية البيروقراطية**

Bureaucratic - Pragmatic Leadership

وفيه ترتكز الواقعية على أن القرائن ستؤدى إلى أحد الحلول، وعليه فالتأنى والمماطلة هى الطريقة المثلى لتبين الشكل الذى سوف تتخذه الأحداث، ثم تتحول المشكلة أو الأزمة إلى الخبراء لإيجاد الحل لها، ويتميز هذا النموذج بالحلول الوسطى، والمرونة وأسلوب المفاوضات. يتواجد هذا النموذج فى المجتمع الخالى من الفروق الاجتماعية الصارخة، أو يقل فيها الصراع الاجتماعى، مثل المجتمعات الغربية ذات الناتج القومى المرتفع.

• **النموذج الأيدلوجى Ideological Type**

وتعنى الأيدلوجية المذهب الاجتماعى أو السياسى الذى تتبعه السلطة وتسير على هداه فى حكم الشعب.

• **النموذج الثورى / الإصلاحى Revolutionary Charismatic Type**

يتواجد هذا النموذج عادة فى الدول الصاعدة/ الدول الناشئة/ دول العالم الثالث/ الدولة المتخلفة.

يذهب بعض فقهاء القانون إلى أن تعبير النظم السياسية يرادف ويكمل تعبير القانون الدستورى، فالنظام السياسى للبلد يقصد به نظام الحكم القائم فيه والذى يتناول شرحه علم القانون الدستورى. توجد وجهة نظر أخرى ترى أن مدلول النظم السياسية أشمل من مدلول القانون الدستورى، لأن علم القانون الدستورى ينظر إلى نظام الحكم من خلال قواعده القانونية النظرية المجردة، أما النظم السياسية فإنها تنظر إلى مختلفة الجوانب التى تحيط بنظام الحكم، كالنظام الاجتماعى أو الاقتصادى، بالإضافة إلى الجوانب القانونية.

يرجع تعريف الحكومات إلى الفلاسفة الإغريق، فأفلاطون قسم الحكومات إلى ثلاثة أنواع على أساس المعرفة وهى: حكومات تقوم على

أساس المعرفة الكاملة، وحكومات لا توجد فيها المعرفة الكاملة وإنما فيها قانون تحترمه وتنفذه، وأخيراً حكومات خالية من المعرفة وأفرادها يحترمون القانون. أما أرسطو فقد قسم الحكومات إلى نوعين: الأول حكومات فاسدة وهي التى تستهدف نفع الطبقة الحاكمة، والثانى الحكومات الفاضلة والتى تستهدف أغراضًا فاضلة. تعنى كلمة الحكومة فى العصر الحديث الهيئة الحاكمة فى الدولة، وتطلق أحيانًا على السلطات الثلاث التى تسير الأمور فى الدولة وتوجه سياستها، وهى: السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية. أيضًا قد يقصر استخدام كلمة الحكومة على السلطة التنفيذية فقط، أى رئيس الدولة، ملكًا كان أو رئيس جمهورية، ومجلس الوزراء.

جاء فى كتاب "النظم السياسية" شرح للتقسيمات الرئيسية لأنواع الحكومات: (درجت مؤلفات النظم السياسية والقانون الدستورى على تقسيم الحكومات إلى أنواع شتى، ويرجع ذلك إلى اختلاف الأساس الذى يبنى عليه كل تقسيم من هذه التقسيمات، وإلى اختلاف وجهات النظر لدى علماء السياسة والفلاسفة بالنسبة للحكومات. فهناك من أجرى تقسيمًا للحكومات إلى حكومات ملكية وأخرى جمهورية، وهناك من أجرى تقسيم الحكومات إلى حكومات فردية وحكومات أقلية، وحكومات ديمقراطية، وذلك بالنظر إلى عدد من يجوز له السلطة فى الدولة، أو مصدر السيادة فى الدولة. وثمة تقسيم يتحرى الخضوع للقانون، فهناك الحكومات القانونية والحكومات الاستبدادية، ومن التقسيمات ما يقوم على أساس النظر إلى مدى تركز السلطات فى يد الحاكم أو الهيئة الحاكمة أو توزيعها على هيئات متعددة. ومن ثم كانت الحكومات المطلقة والحكومات المقيدة. وهناك تقسيم للحكومات ينظر إلى مدى العلاقة بين السلطات العامة الحاكمة فى الدولة، فهناك الحكومات الرياسية والحكومة البرلمانية وحكومة الجمعية النيابية). وعلى محور آخر تقسم نظم الحكم إلى نظم جمهورية وأخرى ملكية:

أولاً: النظام الجمهورى

فى هذا النظام يتم اختيار رئيس الدولة عن طريق الانتخاب، ويظل فى منصبه لمدة معينة تختلف من دولة لأخرى طبقًا لنظامها الدستورى، ويتكفل الدستور باختصاصات رئيس الدولة ومسئوليته ومداها. تتنوع أساليب انتخاب رئيس الجمهورية تبعًا للدستور، فقد يتم هذا الانتخاب بواسطة البرلمان الذى ينتخبه الشعب، أو يتم انتخاب رئيس الدولة بواسطة الشعب مباشرة، أو يتم الاختيار بواسطة البرلمان والشعب معا، يقوم الأسلوب الأخير فى اختيار رئيس الدولة على الجمع بين الأسلوبين السابقين، وذلك بأن يختص البرلمان بترشيح رئيس الجمهورية، ثم يعرض الترشيح على الشعب فى استفتاء عام للموافقة أو عدم الموافقة على اختيار الرئيس.

ثانيا: النظام الملكى

فى النظام الملكى يتقلد رئاسة الدولة الملك/ السلطان/ الإمبراطور/ الأمير/ عن طريق الوراثة ولمدى الحياة، استناداً إلى كونه من عائلة معينة تتولى زمام الحكم وتوجيه شئون البلاد. يعتبر النظام الملكى من أقدم النظم السياسية، وقد كان سائداً فى العصور الماضية. لا يخضع الملك لسيطرة الأحزاب السياسية إن وجدت، وعلى ذلك يقوم بحفظ التوازن بين السلطات السياسية عندما يحتدم الخلاف وينشب النزاع بينها.

الفصل بين السلطات

كانت النظم السياسية فى المجتمعات القديمة تقوم على أساس تركيز السلطة فى يد الحاكم، لأن السلطة كانت حق شخصى وامتياز خاص له. نتج عن تركيز السلطة، جنوح الحكام إلى الاستبداد والانفراد بالرأى، فساد الظلم والفساد. اتجهت نظم الحكم الحديثة إلى الفصل بين السلطات، ويعنى الفصل

بين السلطات، توزيع وظائف الدولة على هيئات منفصلة، تستقل كل هيئة عن الأخرى فى مباشرة وظائفها. استقرت التقاليد الدستورية على أن السلطات العامة التى تمارس مهام الحكم فى الدولة هى ثلاث: السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية. تتعاون السلطات الثلاث من أجل المصلحة العامة، أما رقابة كل هيئة على الأخرى فمن أجل منع استبداد أى سلطة وتجاوزها لحدودها.

١- السلطة التشريعية:

هى السلطة التى يناط بها سن القوانين فى الدولة، من أجل تنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات، وبمقتضاها يعيش المجتمع فى نظام وأمان. تضطلع البرلمانات الحديثة بإعداد التشريعات وإبرامها، وقد يشارك رئيس الدولة الممثل فى الملك أو رئيس الجمهورية - بدرجة متفاوتة - طبقًا للدستور خاصة فى حالة تعطل الحياة النيابية وفيما بين دورات انعقاد البرلمان. إن الهيئة النيابية أو البرلمان الذى يتولى مهمة التشريع قد يتشكل من مجلس واحد أو من مجلسين. أما فى النظام الفيدرالى فيوجد إلى جانب البرلمان الاتحادى أى المجلس النيابى الذى يشرع للدولة الاتحادية مجلسًا نيابيًا فى كل ولاية يتولى مهمة التشريع داخل الولاية عضو الاتحاد الفيدرالى.

إلى جانب الوظيفة الرئيسية للسلطة التشريعية - وهى سن القوانين - فإنها تمارس أيضًا الرقابة السياسية والمالية على السلطات التنفيذية. تتمثل هذه الرقابة فى حق أعضاء البرلمان فى توجيه الأسئلة والاستجوابات إلى أعضاء الحكومة، وحقهم فى طلب إجراء تحقيق برلمانى حول موضوع معين، ومن حق البرلمان سحب الثقة بالوزراء مجتمعين أو منفردين. تتمتع المجالس النيابية أو البرلمانات، باعتبارها ممثلة للشعب بالولاية العامة على أموال الدولة، فتراقب جبايتها وتحصيلها وأوجه إنفاقها، وإقرار موازنة الدولة مقدمًا والتصديق على الميزانية بعد نهاية السنة المالية. من المهام الأخرى للمجالس

النيابية، الموافقة على اتفاقيات المنح والقروض العامة، والموافقة على منح احتكار أو امتياز لاستغلال واستخراج ثروات البلاد للمصلحة العامة، وكذلك إقرار فرض الضرائب.

إن المجالس النيابية هى الممثلة للدولة، ولكى يمارس أعضاء المجلس مهامهم فإن الدستور يوفر لهم ضمانات تامة تكفل قيام المجلس بواجبه فى تمثيل الأمة، وتتمثل هذه الضمانات بصفة أساسية فى الحصانة البرلمانية. بمقتضى هذه الحصانة، لا يجوز اتخاذ أية اجراءات جنائية قِبل عضو البرلمان إلا بعد أن يأذن المجلس النيابى، ويستثنى من ذلك حالة التلبس بالجريمة. إن أعضاء المجالس النيابية لا يسألون عما يبدونه من آراء فى أداء واجبهم البرلمانى، بشرط ألا يصل الأمر إلى حد السب أو القذف أو التعدى بالضرب. تقوم هذه الحصانة من مبدأ حماية العضو من أى اتهام كيدى قد يكون وراءه دوافع حزبية، فالحماية لعضو المجلس ضرورية حتى يقوم بمهامه بحيدة تامة. يمثل أعضاء المجالس النيابية/ البرلمانات - فى النظم الديموقراطية - الأحزاب السياسية التى ينتمون إليها. تعرف الأحزاب السياسية Political Parties، بأنها مجموعات منظمة ومكونة من أفراد أو مجموعات أصغر، والتى تحاول ممارسة حقها الدستورى والقانونى لتكون قوة سياسية مؤثرة من خلال الفوز فى انتخابات حرة للحصول على مقاليد الحكم أو معارضة الحكم.

٢- السلطة التنفيذية:

تتكون السلطة التنفيذية من رئيس الدولة - ملكًا أو رئيسًا للجمهورية - ثم الوزراء ونوابهم وجميع العاملين فى الأجهزة الإدارية. يعهد إلى السلطة التنفيذية تنفيذ القوانين التى تسنها السلطة التشريعية. تباشر السلطة التنفيذية اختصاصات عديدة لتحقيق المصلحة العامة، ذات أوجه سياسية، وتشريعية، وتنفيذية، وإدارية.

أ) الاختصاصات السياسية: تنقسم هذه الاختصاصات إلى مجالين، أولهما داخلى والأخر خارجى. فى المجال الداخلى تتولى السلطة التنفيذية رسم السياسة العامة للدولة، والرقابة على السلطة التشريعية ومنها الحق الذى يصل إلى حل البرلمان. أما فى المجال الخارجى فتضطلع السلطة التنفيذية بإبرام المعاهدات، وتعيين الممثلين السياسيين واعتماد ممثلى الدولة الأجنبية، وإعلان الحرب الذى قد لا يتم - وفقا للدستور المطبق - إلا بموافقة الهيئة التشريعية.

ب) الاختصاصات التشريعية: تساهم السلطة التنفيذية فى التشريعات التى يسنها المجلس النيابى عن طريق الاقتراح والتصديق والإصدار. قد تستقل السلطة التنفيذية بسن القوانين فى حالة تعطل الحياة النيابية وفض الدورة التشريعية. يعتبر إصدار اللوائح من الاختصاصات الأصيلة للسلطة التنفيذية. تنقسم اللوائح إلى لوائح تصدر فى الظروف العادية، ولوائح تصدر فى الظروف الاستثنائية. أما عن اللوائح التى تصدر فى الظروف العادية، فهى لوائح تنفيذية وهى التى تفصل أحكام القانون وتبين الشروط والإجراءات اللازمة لتنفيذها، واللوائح التفويضية وهى القرارات التى تصدر من السلطة التنفيذية بناء على تفويض من المشرع فى مسائل تشريعية معينة، ولوائح مستقلة وهى التى تصدرها الجهات الإدارية دون استناد إلى تشريع سابق. أما لوائح الظروف الاستثنائية فهى تشتمل على لوائح الضرورة التى لا تحتمل التأخير أو انتظار انعقاد المجلس النيابى، ولوائح الطوارئ أى الأحكام العرفية وهى اللوائح التى تضعها السلطة التنفيذية فى حالة حدوث طوارئ أو ظروف استثنائية كالحروب أو الكوارث الطبيعية وعن طريق هذه اللوائح تستطيع الحكومة أن تعطل حكم القانون العادى لتفرض قيوداً على التمتع بالحقوق والحريات العامة كما قد تنقص منها.

ج) الاختصاصات التنفيذية والإدارية: ومنها إعداد مشروعات القوانين

والقرارات التى تنظم المرافق العامة والأجهزة الإدارية وتحقق سياسات الأجهزة التنفيذية. أيضًا ينصب تحت هذه الاختصاصات تعين الموظفين وعزلهم، وإعداد مشروع الميزانية العامة وخطة الموازنة العامة للدولة، ومتابعة تنفيذ القوانين والمحافظة على أموال الدولة ومصالحها.

٣- السلطة القضائية:

هى السلطة المنوط بها الفصل بين المتخاصمين، وتقوم بتطبيق القانون فى المنازعات التى تطرح عليها فى ساحة القضاء. ينص فى معظم دساتير الدول، أن السلطة القضائية هى سلطة مستقلة من سلطات الدولة، ولا يكون للسلطة التنفيذية نفوذ عليها. يوجد وظيفة أخرى للسلطة القضائية وهى تفسير نصوص الدستور، وإمكانية القضاء ببطلان القوانين المخالفة للدستور، وهو ما يسمى بالقضاء الدستورى. تتكون السلطة القضائية عادة من القضاء ورجال النيابة العامة. قد يتنوع القضاء وينقسم إلى:

* قضاء عادى: وهو يقوم بحسم المنازعات بين الأفراد، أو بينهم وبين السلطة العامة، ومن صوره القضاء الإدارى.
* القضاء الاستثنائى: مثل القضاء العسكرى ومحاكم أمن الدولة.
* القضاء السياسى: والذى يناط به الفصل فى المنازعات ذات الطابع السياسى.

القوانين الوضعية هى قواعد وضعها الإنسان لتنظيم أسلوب معيشته، ولتيسير حياته، ولحفظ حقه والحصول عليه. بدأت النشأة الأولى للقانون مع تكوين الأسرة والقبيلة، فكانت كلمة رب الأسرة هى قانون الأسرة، وكلمة شيخ القبيلة هى قانون القبيلة، وأخذ القانون يتطور مع الجماعة حتى تكونت الدولة، التى وحدت العادات والتقاليد المتباينة للجماعات المختلفة التى تكَوِّن الدولة فى قانون ملزم لجميع الأفراد والجماعات التى تدخل فى نطاق الدولة. يعتبر قانون حمورابى الذى حكم بابل حوالى ٢٠٨٣ ق.م - فى عصر

حضارات ما بين النهرين - من أقدم وأهم القوانين فى تاريخ البشرية ثم بدأت الحضارات الأخرى فى وضع مواد قانونية خاصة بها.

لم يتفق قانون كل دولة مع قوانين الدول الأخرى، وظل هذا الاختلاف حتى بدأت المرحلة المهمة فى التطور القانونى فى أعقاب القرن السابع عشر على هدى النظريات الفلسفية والعلمية والاجتماعية، وأصبح القانون الوضعى قائمًا على نظريات أساسها العدالة والمساواة. كان الفيلسوف الإنجليزى جون لوك فى القرن السابع عشر يرى أن الإنسان وجد حرا بطبيعته، ولكن له سلوك عقلانى خفف وكبح من حريته المطلقة. إن الطبيعة البشرية عند لوك لا تخلو من المتاعب والأخطار بسبب فساد بعض الأفراد، لذلك فقد أوصى بوجود ثلاثة أشياء مهمة وهى:

* قانون مستقر واضح.
* قاضى عادل بين الأفراد.
* قوة سياسية أو قوة عليا تنفذ القانون.

دعى مونتسكيو فى القرن الثامن عشر إلى مناقشة علاقة القوانين بالمبادئ التى تُكَوِن الروح العام فى المجتمع، على أن الروح العام يتكون فى المجتمع من تعادل العوامل الطبيعية والثقافية التى تكتنفه، فالناس يخضعون فى حياتهم لعدة عوامل: المناخ، الدين، القوانين، مبادئ الحكومة السائدة، والعادات والتقاليد، ومن كل هذه الأشياء يتكون الروح العام فى فكر مونتسكيو. فى رأيه أيضًا أن على المشرعين أن يراعوا الروح العام فى تشريعاتهم، فلا يصدرون من التشريعات ما يتنافى معه، لأنه يمثل الذوق العام للمجتمع، فالإصلاح السياسى والاجتماعى يجب أن يكون متمشيًا مع ثقافة المجتمع وإلا فشل وجاءت النتيجة بعكس المقصود منه. إن إصلاح وتقويم العادات والتقاليد السائدة فى المجتمع - وغير المناسبة للعصر القائم - يجب ألا يتم من خلال تشريعات تحرم هذه العادات والتقاليد الراسخة

الجذور، حيث يكون من العسير جثها واقتلاعها بواسطة القوانين، ولكن من المناسب والأفضل أن يتم التغيير عن طريق المصلحين والمفكرين.

دعى الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو إلى مناصرة قدسية القوانين، فكان يرى أنه إذا عبر القانون عن الإرادة العامة، وإذا لم يتفق فرد ما مع تلك الإرادة كما يعبر عنها فى القانون، فللدولة الحق فى إكراهه على الخضوع للقانون، وليس هذا انتهاكًا للحرية بل صيانة لها، لأنه بفضل القانون وحده يستطيع الفرد فى الدولة المدنية أن يتمتع بتحرره من العدوان، والسرقة، والاضطهاد، وتشويه السمعة، والعديد مما يحمله البشر من شرور. إن المجتمع بإكراهه الفرد على طاعة القانون إنما يكرهه على أن يكون حرًا، والحكومة جهاز تنفيذى تفوض فيه الإرادة العامة - مؤقتًا - بعض سلطاتها. كان روسو يرى أن أفضل حكومة هى تلك التى تضع القوانين وتنفذها وفيها أقلية من الأفراد ينتخبون دوريا لتفوقهم الفكرى والخلقى.

يهدف القانون إلى حماية المصالح الاجتماعية سواء كانت من المصالح العامة التى تمس كيان الدولة أو المجتمع، أو من الحقوق والحريات والمصالح الخاصة التى تتعلق بالأفراد. تتميز القوانين بأن لها قواعد تتسم بقوة التأثير على السلوك الاجتماعى، خاصة قانون العقوبات الذى يفرض أنماطًا من السلوك ويترتب عقوبات على مخالفتها. كتب الدكتور فتحى سرور فى كتاب "القانون الجنائى الدستورى" عن القانون الجنائى: (أن قوة التأثير الذى تتسم به قواعد القانون الجنائى على السلوك الاجتماعى لا تخفى طابعه الحقيقى، وهو حماية المصلحة الاجتماعية. وتتجلى هذه المصلحة فى قانون العقوبات بما يفرضه من أنماط السلوك المختلفة لحماية المصالح والقيم الاجتماعية وحماية الحقوق والحريات، بما يفرضه من جزاء قانونى لضمان هذه الأنماط. وتتوقف فعالية قانون العقوبات فى أداء هذه الوظيفة على معيارين، هما: مدى حسن تعبيره عن المصالح والقيم الحالية للمجتمع، ومدى تنظيمه للجزاء الجنائى). يقتضى المعيار الأول مواجهة التغيرات السريعة التى تمس المجتمع وقيمه، وأن

يداوم على التفاعل مع تطور المجتمع. أما بالنسبة للمعيار الثانى، فإن الجزاء يجب أن يخضع لسياسة تكفل خدمة هذا الجزاء للهدف الاجتماعى من قواعد التحريم، وحتى يكفل احترام المصالح والقيم الاجتماعية التى تعبر عنها هذه القواعد وحماية الحقوق والحريات التى تنظمها. يهدف قانون الإجراءات الجنائية إلى حماية المصلحة الاجتماعية من خلال ما ينظمه من إجراءات لكشف الحقيقة وإقرار حق الدولة فى العقاب. يوازن القانون الجنائى بين المصلحة الخاصة للفرد والمصلحة العامة لضمان حسن سير وفعالية المجتمع. إذا كانت الحماية الجنائية للحقوق والحريات، وحماية النظام العام تتم من خلال التجريم والعقاب، وكانت الإجراءات الجنائية تتخذ لتمكين الدولة من اقتضاء حقها فى العقاب، فإن ذلك لا يعنى التضحية بحقوق وحريات الأفراد الذين يتم تجريم أفعالهم والعقاب عليها واتخاذ الإجراءات الجنائية فى مواجهتهم. وإذا كانت حماية الحقوق والحريات تتقرر بحسب الأصل بالدستور، فإن الشرعية الدستورية هى الضمان الأعلى لهذه الحقوق والحريات.

كفل مبدأ استقلال القضاء حمايته من التأثير الخارجى من جانب سائر سلطات الدولة لضمان عدم تأثره بغير حكم القانون، فحيدة القضاء تعتبر عنصراً مكملاً لاستقلاله. حرصت المواثيق الدولية على تأكيد مبدأ حيدة القضاء. فنص عليه الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨ . أكدت المبادئ الأساسية بشأن استقلال السلطة القضائية التى أقرتها الأمم المتحدة بقراريها الصادرين فى عام ١٩٨٥ ، ضرورة أن تفصل السلطة القضائية فى المسائل المعروضة عليها بطريقة محايدة، وعلى ضوء وقائعها ووفقًا لأحكام القانون بشأنها مع تجردها من عوامل التأثر والتحريض، وكذلك من كل صور الضغوط أو التهديد أو التدخل غير المشروع - مباشراً كان أو غير مباشر - وأيا كان مصدرها أو سببها. يتوفر الحياد بوجه عام بالقدرة على التقدير والحكم على الأمور دون تحيز مسبق لصالح أو فى غير صالح شخص

معين تتعلق به هذه الأمور. يعتبر الاحتجاج ظاهرة صحية اجتماعيًا وسياسيًا لوجود الإنسان فى مجتمع حر يحوى مختلف الآراء والأفكار، وتتباين فيه - إلى حد ما - المعايير والقيم، وذلك لوضع حد للتوتر بين السلطة والقوى المعارضة لها.

يظهر الاحتجاج فى الواقع السياسى عندما تجد المعارضة نفسها فى وضع العجز التام عن المساهمة فى الحياة السياسية. يؤدى قبول السلطة للاحتجاج إلى جعل الاحتجاج يفقد صفته المطلقة الكاملة للسلطة ويحوله من احتجاج إلى معارضة. تعتبر المعارضة رفضًا مؤقتًا وليس رفضًا جذريًا أو مطلقًا، بمعنى وجود اتفاق على المواضع الأساسية واختلاف على الأهداف الثانوية وعلى وسائل تحقيق الأهداف. فى النظم الديمقراطية لا يكون للمعارضة أن تتولى السلطة إلا عن طريق الوسائل المشروعة والمقبولة من جميع الأطراف، أى يتم تبادل السلطة بين الأغلبية والمعارضة وفقًا لقواعد متفق عليها دون السماح للعنف والقوة كطريق لوصول المعارضة إلى السلطة. تتميز الحضارة الغربية بقبولها فكرة الاحتجاج على السلطة، وتحويله إلى معارضة منظمة، بينما تستمر أغلب النظم السياسية الأخرى فى رفض الاحتجاج، وتقيم نظمها على أساس الإجماع.

السياسة الدولية

نبعت الفلسفة السياسية Political Philosophy أو الفكر السياسى فى بلاد الإغريق. إذا كانت كلمة فلسفة تعنى الحكمة أو حب الحكمة، فإن كلمة Polis أو Politics كانت تشير فى اللغة اليونانية القديمة إلى "نشاط المدينة". كان السؤال الحاسم فى الفلسفة السياسية القديمة هو طبيعة العدل. مع تقدم الحضارة أخذت الفلسفة السياسية الحديثة مسارين أساسين، اختص المسار الأول بالسياسة الداخلية، التى أصبحت القضية الأولى فيها حرية الإنسان وحقوقه فى المشاركة فى تشكيل السياسة العامة، والتزاماته نحو الأمة،

وواجباته نحو الدولة التى يعيش فيها. أما المسار الثانى فقد اختص بالسياسة الدولية، والعلاقات بين الدول المختلفة، وهيئات الضغط التى لها صفة رسمية أو غير رسمية، والمؤسسات الدولية.

شاع مصطلح الجغرافيا السياسية "الجيوبولوتيكا" بعد تكرار استخدامه من قبل وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق هنرى كيسنجر. تعنى الجيوبولوتيكا عملية إدارة التنافس الكونى من أجل تحقيق التوازن بين القوى العالمية المتصارعة. هناك مدرستان فى دراسة العلاقات الدولية وهما: المدرسة الواقعية، والمدرسة المثالية. تستند المدرسة الواقعية - التى سادت العلاقات الدولية لفترة طويلة من الزمن - إلى الحجج الكلاسيكية التى تدور حول فن السياسة والطرق التقليدية للمنافسة بين الدول. يعتبر ميكيافيللى فى القرن السادس عشر، وكلاوزفتس فى القرن التاسع عشر من رواد هذه المدرسة التى كانت تؤكد على مشاعر الخوف وعدم الأمان، ومن ثم زيادة الإنفاق العسكرى للتصدى لأى عدوان محتمل، وهو ما أدى إلى "سياسة القوة" أى أن تقوم الدول القوية بإملاء إرادتها على الدول الأضعف. كانت الحرب أو التلويح بها تمثل نقطة محورية فى توصيف أنصار السياسة الواعية وتفسيراتهم للعلاقات الدولية، وكان ذلك السبب فى إدانة أصحاب المدرسة المثالية للفكر الواقعى باللاأخلاقية. حين تركت المدرسة الواقعية مسئولية تسيير الأمور الدولية فى أيدى القوى العظمى، فإن المدرسة المثالية طالبها بوضع أمور العالم تحت مظلة الإرادة الجماعية لكل دول العالم، ومن هذا المفهوم ولدت عصبة الأمم بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها. فى الخلاصة كما قال بيتر تيلور، وكولن فلنت: (أن الواقعية تسعى فى الأساس إلى الحفاظ على مصالح القوى العظمى، أما المثالية فإنها تقوم على مبادئ ليبرالية، يسعى أصحابها إلى إقامة العلاقات الدولية على أسس دستورية صلبة).

ترتبط الدولة بالأرض والسيادة، وكلمة الأراضى Territory مشتقة من الكلمة اللاتينية Terra وكانت تعنى الأحياء التى تحيط بالمدينة والتى تخضع

لها فى الحكم والتشريع. أقرت "معاهدة وستفاليا" عام ١٦٤٨م - والتى تعتبر ميلاد القانون الدولى الحديث - بأن كل دولة "صاحبة سيادة" على أراضيها، بحيث يصبح أى تدخل فى الشئون الداخلية لأى من الدول خرقًا للقانون. من نتاج هذه المعاهدة أن برزت إلى الوجود خريطة أوروبية مقسمة إلى قرابة ثلاثمائة من الكيانات ذات السيادة على أراضيها، وقد مثل ذلك الأساس الإقليمى الأول لمنظومة العلاقات بين الدول الحديثة، أو رسم خريطة سياسية للعالم. لم يكن الاستقرار هو الطبع الغالب على الخريطة السياسية للعالم، فلقد حدثت تغيرات كثيرة نتيجة لمزاعم سياسية ونزاعات حول الأراضى وجاءت هذه النزاعات لتطغى على الشرعية. من دراسة العديد من المزاعم والنزاعات السياسية وتصنيفها تبين أن ثلاثة منها قد أثرت فى تشكيل خريطة العالم وهى كما ورد فى كتاب "الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر" مرتبة حسب أهميتها: (السيطرة الفعلية على الأراضى، وحدة أراضى الدولة، المزاعم التاريخية والثقافية. أما السيطرة الفعلية على الأرض كحجة لتبرير حق دولة ما على مساحة ما من الارض، فهى دائمة التبرير الذى تحتج به الدول لإضفاء الشرعية على غزوها المسلح لارض ما. وهناك عرف فى ساحة القضاء المحلى والدولى بأن وضع اليد يمثل تسعة أعشار القانون. ورغم كل المثاليات التى يحفل بها خطاب الأمم المتحدة وسائر الهيئات الدولية الأخرى، فإن سياسة القوى لا تزال تتحكم فى العلاقات الدولية).

يختلف صراع الدول عن صراع الأفراد. فإذا حدث صراع بين اثنين من الأفراد، فسيحاول الطرفان كسب تأييد بعض من أعوانه، وإذا وجد أحد الطرفين أنه سيهزم فإنه سوف يوسع نطاق الصراع بدعوة المزيد من أعوانه من أجل مزيد من الدعم والمؤازرة، وقد يلجأ الطرف الآخر إلى مركز الشرطة إذا وجد أن النتيجة فى غير صالحه. فى عالم صراع الدول تختلف الصورة تمامًا، فالصراع هنا يتكون من شد وجذب سياسى، وحشد للقوى العسكرية، وتخطيط للموارد واحتياجات البلد إذا تأزمت الحالة واضطرت الدولة إلى

الدخول فى حرب قد يطول أمدها. لن تنسحب الدولة الخاسرة من المسرح السياسى ولكن قد تتغير وجوه القادة والطبقة الحاكمة. إن العنصر المهم فى الصراع كما كتب بيتر تيلور مؤلف كتاب "الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر" هو مراكز القوى الممثلة فى الدول الأخرى والتى قد تكون طرفًا فى النزاع، أو كما ورد فى كتابه السابق ذكره: (أن محصلة أى صراع فى العالم لا تتوقف فقط على قوة الطرفين المتصارعين، وإنما هى مرهونة أيضًا بالأطراف الأخرى التى تتدخل فى الصراع كلما اتسعت ساحته. فإن أهم عنصر فى الاستراتيجية السياسية هو تحديد ساحة الصراع وتوسيع دائرته لتغيير ميزان القوى، خاصة بالنسبة للدول التى لا تتمتع بالقوى الكافية).

قبل الانطلاق خارج حدود الدولة للمشاركة بفاعلية وتأثير فى لعبة الأمم، يجب أن يستتب الاستقرار السياسى والاجتماعى داخل الحدود. ليس من الضرورى أن يقوم النظام الداخلى على عدل كامل أو مساواة مطلقة ولكن من الضرورى وجود قدر كبير من القيم، مثل: الحق والعدل والمساواة، والحرية والديمقراطية،... والتماسك بين فئات وطبقات الشعب المختلفة حتى لا يُضعف الصراعُ الداخلى القوى اللازمةَ للصراع الخارجى. كمثال على ذلك من العهد القديم فى مصر الفرعونية، لقد استطاعت فراعنة الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة من أحمس وتحتمس الثالث، والرعامسة فى بسط يدها وسيطرتها على بلاد الشام وبلاد بين النهرين وحتى تركيا بعد أن تكونت سلطة مركزية قوية وقادرة على إدارة شئون مصر من جنوبها إلى شمالها، فانطلقت الفراعنة بعد ذلك تغزو وتسيطر وتجلب ثروات البلاد الأخرى إلى داخل مصر. مثلما حدث فى حضارات بين النهرين (البابلية والأشورية والسومرية)، ثم الحضارات العربية، واليونانية والرومانية. أيضًا من الأمثلة الحديثة لفرض الهيمنة على دول أخرى خارج حدود الدولة، الإمبراطورية البريطانية فيما وراء البحار، ثم الإمبراطورية الأمريكية فى النصف الثانى من القرن العشرين ثم الهيمنة الأمريكية المنفردة فى القرن الواحد والعشرين.

ترتبط العلاقات بين الدول بنظرية "المؤثر والاستجابة"، أو الفعل ورد الفعل، من منطلق السلوك القومى للدولة، وذلك انعكاساً من نفس النظرية فى السلوك الفردى التى ارتكزت عليها المدرسة السلوكية فى علم النفس. إن الجانب الأكبر لسياسة الدولة نابع من رد فعلها لمسلك الدول الأخرى، أو كرد فعل لأفعال أو ضغوط بعض الهيئات أو المؤسسات، أو حتى أفراد يعملون لحسابهم الخاص وإن كان تصرفهم يترك أثراً على النظام الدولى. هناك دائماً تأثير متبادل للأفعال السياسية للدول، وهناك دائماً تأثير ملموس لشخصيات القادة والزعماء وحكام الدول، وكذلك مجموعات الضغط الرسمية وغير الرسمية. إن الضغوط هى صورة من صور القوى التى تؤثر لتغير. ظهر فى العصور الحديثة فى مجال السياسة المحلية والإقليمية والدولية مصطلح "مجموعات الضغوط" والتى تلعب دوراً ملموساً من وراء الستار لتنفيذ تصرفات معينة أو الإيحاء بها، تخدم مصالح تجمُّع معين. أخذ هذا التجمع شكل الأحزاب والنقابات فى شتى الأنشطة (القانونيين، المهندسين، الإعلام، الأطباء،.... إلخ)، أو جمعيات دينية، أو حركات دينية، أو تجمعات مصالح تجارية ومالية، أو نشاط قومى، أو حركات ثورية، أو تنظيمات رياضية، أو تجمعات ثقافية وفكرية. تبرز قوة هذه التجمعات فى قدرتها على التأثير والتغير، من خلال مراكز القوى المحلية والدولية. قد تكون لهذه التجمعات الصفة العلنية، أى تعمل بصورة قانونية لها أجهزتها الإدارية والمالية، أو فى كثير من الأحيان تمارس بعض هذه التجمعات نشاطها بسرية وحذر مثل الحركات أو الخلايا الدينية الثورية، أو معتنقى الأيدولجيات المتطرفة.

كتب جان مينو أستاذ العلوم السياسية بجامعة مونتريال بكندا عن بداية تطور هذه التجمعات فى كتابه (مجموعات الضغوط الدولية Les Groupes de Pression Internationaux): (إن القرار الذى صدر فى لندن فى شهر سبتمبر عام ١٨٦٤ بإنشاء الاتحاد الدولى للعمال يمكن أن نعتبره نقطة الانطلاق

لتطور حركة المجموعات الدولية للضغوط الخفية. كان كارل ماركس هو القوة المحركة وراء إصدار هذا القرار. وكان هذا القرار يدعو إلى تعبئة عامة لقوى العمال بقصد تحقيق وتنفيذ ثورة الطبقة العاملة - البروليتاريا). بالرغم من ضعف النتائج المباشرة لقرار لندن ١٨٦٤، إلا أن هذا القرار كان له نتائج مهمة على المدى البعيد، فقد انتصرت النظريات الماركسية في المؤتمر الخامس للعمال الذى عقد في مدينة لاهاى في عام ١٨٧٢ . أصدر المؤتمر قراراً بتكوين حزب سياسى في كل دولة يهدف إلى تجميع قوى العمال لمواجهة الأحزاب الأخرى التى تمسك زمام السلطة، وبواسطة هذه الأحزاب خلق ماركس فكرة الضغط على الدول تحت ستار العمل على تحسين حالة العمال المكافحين.

تجمع آخر ظهر عام ١٩٤٦ بإنشاء ما يسمى (المؤتمر الاشتراكى العالمى)، ففى عام ١٩٤٧ انشأ المؤتمر الذى عقد فى مدينة أنفرس لجنة تنفيذية للمؤتمر الاشتراكى العالمى وفى المؤتمر الذى عقد بمدينة فينا عاصمة النمسا عام ١٩٤٨ وافق المجتمعون بالإجماع على مبادئ كانت تعتبر عكس المبادئ الشيوعية ومنها اعتبار الاشتراكية جزءاً لا يتجزأ من الديموقراطية. أنشئت عدة هيئات تابعة للاشتراكية الدولية منها الاتحاد الدولى للشبيبة الاشتراكية، وكذلك المجلس الدولى للسيدات الاشتراكيات الديموقراطيات الذى تأسس فى لندن عام ١٩٥٥ .

بدأت العلوم السياسية الحديثة فى تصنيف (مجموعات الضغط) كعناصر قوى يمكن أن تؤثر فى القرار السياسى على المستويين المحلى والدولى. تأخذ هذه المجموعات شكل الجمعيات الوطنية أو الدولية غير الحكومية Non-Governmental Organization. لا تعتبر وسائل الإعلام كمجموعة ضغط فى نظر السياسيين، ولكن يمكن استخدامها كأداة واسعة الانتشار، سريعة النفاذ والتأثير على الرأى العام. يمكن تقسيم قوى الضغط السياسية إلى التجمعات التالية:

- منظمات لها هدف معين تسعى لتحقيقه عن طريق التدخل المباشر أو غير المباشر فى مراكز اتخاذ القرارات الحكومية، وكمثال لهذه التجمعات: المنظمات التى تحارب التفرقة العنصرية.
- مجموعات الضغط الدائمة والتى لها مصالح مادية وفى نفس الوقت لها أهدافها المعنوية، مثل النقابات الفئوية التى تسعى إلى تحسين الفئة التى تمثلها، والارتفاع بمستواها المعيشى وتقديم مساعدات وخدمات، وقد يكون لها أيضًا أهداف علمية أو أدبية.
- مجموعات الضغط المؤقتة التى تباشر ضغوطًا مؤقتة، وتكون قد تكونت لتحقيق عملية معينة أو الوصول إلى هدف ثابت لا تتعداه إلى غيره، ويدخل فى هذه الطائفة الجماعات التى تسعى إلى التمهيد لعقد معاهدات السلام أو غيرها من الارتباطات الدولية.
- مجموعات لا تهدف إلى الربح **Non-Profit Organization** مثل منظمات حماية المستهلك من سلبيات السوق، كارتفاع الأسعار، والغش التجارى، ورداءة التصنيع والتغليف.
- مجموعات تهتم بالقيم المعنوية والعقائد، مثل الهيئات الدينية الدولية.
- منظمات ترتكز على وجود خصائص مشتركة لدى أعضائها بصفة دائمة، كالمتجين والعمال والمحاربين القدماء.
- تجمعات أساسها المواقف الفكرية أو الأدبية التى يعتنقها الأعضاء بملء حريتهم، كمحاربة عقوبة الإعدام، والدفاع عن حقوق الطفل.

توجد تجمعات عديدة تستمد قوتها وقدرتها على التدخل والنفاذ إلى مراكز اتخاذ القرار الحكومى أو الدولى من كيانها الذاتى ولا تعتمد إلا على نفسها وتعتبر مسئولة فقط أمام أعضائها. ومثل هذه المجموعات تتمتع بقدرة ذاتية على الحركة، وحرية فى وضع أهدافها واتخاذ قرارتها ويمكن أن يطلق عليها صفة الأهلية المستقلة، مثل (غرفة التجارة الدولية). بينما توجد

تجمعات أخرى مرتبطة بمراكز معينة تمدها بالقدرة على التحرك، وفيها تعود الفوائد أو العوائد التى تجنيها من وراء تدخلها وتأثيرها إلى تلك المراكز التى تتباها، ومثل هذه التجمعات تتلقى غالبًا معونات مالية بطرق غير ظاهرة من المراكز الرئيسية التى تحركها. تأخذ هذه التجمعات صفة الأهلية التبعية. تتخفى كثيرًا من الجمعيات أو المنظمات التى ليس لها صفة الربح وراء منظمات تسعى إلى المكاسب المادية. أيضًا تتوارى العديد من المنظمات التى لها سمة اقتصادية/ اجتماعية/ سياسية/ دولية، وراء منظمات محلية أو هيئات استشارية أو مؤسسات وطنية، وذلك درءًا للشبهات ومنعًا للشائعات، والأقاويل التى قد تثار، مثل: التدخل الأجنبى/ ضغوط القوى المعادية/ الخيانة والجاسوسية/ .... إلخ. تعمد هذه التجمعات/ المنظمات/ الهيئات/ المؤسسات، أو أيا كان اسمها إلى استغلال الرأى العام، ومن خلال ذلك تمارس نشاطها والسعى فى تعميق نفاذها وتشعب نفوذها لدى الهيئات الحاكمة.

منظمة الأمم المتحدة

تعتبر منظمة الأمم المتحدة United Nations من أهم وأقوى المنظمات الدولية الرسمية. كان من نتائج الحرب العالمية الثانية إحداث تغيرات فى ميزان القوى لدول العالم، وتحالفات جديدة بين دول لها أيدلوجيات مختلفة، فحاربت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بجانب الاتحاد السوفيتى، والصين ضد ألمانيا وإيطاليا واليابان، وخرجت الولايات المتحدة من عزلتها لتحل محل مستعمر تقليدى مثل بريطانيا وفرنسا، وانتهت الحرب بخروج ألمانيا واليابان من سباق التسليح وبناء القوة العسكرية، بالرغم من مشاركتهما فى السباق الاقتصادى الذى تلا الحرب وتفوقتا فيه.

فى سبتمبر ١٩٤٣ وافق مجلس النواب الأمريكى على مشروع مقدم من وليام فولبرايت لإنشاء نظام جديد لحفظ السلم والأمن الدوليين، وفى

منتصف ١٩٤٤ بدأت المشاورات الخاصة بإنشاء منظمة دولية جديدة تحل محل عصبة الأمم، كما جرت مباحثات فى برايتون وودز لإنشاء صندوق النقد الدولى والبنك الدولى فى يوليو ١٩٤٤، وتعاقبت الاجتماعات والمشاورات حتى يتم أخذ قرار إنشاء منظمة الأمم المتحدة فى مؤتمر سان فرانسسكو بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٥، ثم يعقد أول اجتماعات "منظمة الأمم المتحدة" فى يناير ١٩٤٦ بمدينة لندن، وتم فى هذا الاجتماع الموافقة على أن تصبح نيويورك مقرًا دائمًا للمنظمة.

يتكون ميثاق الأمم المتحدة من ديباجة قصيرة ومائة وإحدى عشرة مادة بالإضافة إلى النظام الأساسى لمحكمة العدل الدولية. تحتوى هذه المواد على الغرض من إنشاء منظمة الأمم المتحدة ومبادئها وآليات تحقيق أهدافها وقواعد التصويت لها.

حددت المادة الأولى من ميثاق الأمم المتحدة الأهداف التالية:

١- حفظ السلام والأمن الدوليين.

٢- إنماء العلاقات الودية بين الأمم.

٣- تحقيق التعاون الدولى فى الميادين الأخرى.

٤- تنسيق الأنشطة الدولية وتوجيهها نحو خدمة أهداف المنظمة.

نصت المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة على المبادئ التى يجب أن تلتزم بها الدول الأعضاء وهى:

١- مبدأ المساواة السياسية بين الدول الأعضاء.

٢- تنفيذ الالتزامات بحسن نية.

٣- حل المنازعات الدولية بالطرق السلمية.

٤- تحريم استخدام القوة أو التهديد بها فى العلاقات الدولية.

يتضمن ميثاق الأمم المتحدة عددًا من العناصر تشكل فى مجموعها نظامًا

متكاملاً لإدارة الأزمات الدولية، منها القواعد والمبادئ العامة التى يتعين على الدول احترامها والسير على هديها وفى مقدمتها التعهد بعدم استخدام القوة أو التهديد باستخدامها كأسلوب لحل المشكلات والمنازعات الدولية وعلى ما يترتب على ذلك من ضرورة اللجوء إلى الوسائل السلمية لحل المشكلات أو المنازعات، كما يتعين على الأمم المتحدة والدول الأعضاء عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول مع بذل جميع الجهود لتجنب المواجهة المسلحة والحروب. أنشأ الميثاق أيضًا محكمة العدل الدولية التى تعتبر آلية من الآليات الأساسية للأمم المتحدة التى يمكن أن تلجأ إليها الدول الأعضاء وغير الأعضاء لحل المنازعات ذات الطبيعة القانونية. فوض الميثاق مجلس الأمن بالتدخل باسم المجتمع الدولى - فى حالات وقوع عدوان أو تهديد للسلم أو الإخلال به - سواء لقمع العدوان أو ردعه أو للعودة بالوضع إلى سابق ما كان عليه قبل اندلاع الأزمة. وحرص الميثاق على تزويد مجلس الأمن بكل السلطات والصلاحيات التى تمكنه من التعامل مع جميع الأزمات بفاعلية، وتزويده بالأداة العسكرية التى تمكنه من التدخل العسكرى واستخدام القوة المسلحة فى حالات الضرورة وفقًا للترتيبات المنصوص عليها فى المادة ٤٣، وتزويده بالآلية التى تضمن له حسن استخدام هذه الأداة، وهى لجنة أركان الحرب التى أسند إليها الميثاق تقديم المشورة إلى مجلس الأمن فى كل ما يتصل بالشئون العسكرية.

الفكـــر الاقتصادى

الاقتصاد Economics هو علم اجتماعى يتعامل مع كل المواضيع المادية المتعلقة بالمعيشة، ويقوم بدراسة وتحليل وتوزيع الموارد المتاحة. فالاقتصاد هو علم الاختيار لتحديد:

- ماذا ننتج؟

المستهلك والموارد المتاحة ومحددات الإنتاج يحددون المنتَج.

- كيف ننتج؟

آليات الإنتاج والتكنولوجيا المتاحة وتكلفتها يحددون الكيفية.

- مقدار الإنتاج؟

العرض والطلب يحددان الكمية والسعر أيضًا.

- لمن يكون الإنتاج؟

يتوقف على قدرة الفرد/الفئة على الشراء، ويتوقف أيضًا على ذوق المستهلك.

يتكون النظام الاقتصادى من وحدات إنتاجية، ووحدات استهلاكية. تشمل الوحدات الإنتاجية المنشآت التى تقوم بشراء واستئجار موارد الإنتاج أو خدماتها لإنتاج وبيع السلع والخدمات المختلفة، وقد تأخذ المشروعات عدة أشكال، مثل: الشركات المملوكة بالكامل للدولة، أو الشركات والمؤسسات العامة التى قد يشارك فيها القطاع الخاص أو الشركات المساهمة، أو الفردية، أو التضامنية، أو شركات التوصية. تتضمن الوحدات الاستهلاكية كافة الأفراد والأسر التى يتكون منها الاقتصاد والتى تمتلك بدورها الموارد الإنتاجية. فى سوق السلع والخدمات الاستهلاكية تقوم الوحدات الاستهلاكية بشراء السلع والخدمات التى تنتجها الوحدات الإنتاجية. تشكل أسعار السلع والخدمات الحلقة التى تربط بين البائعين والمشترين، كما أن قيمة تيار هذه السلع والخدمات تساوى عادة تيار النقود. أما فى سوق الموارد الإنتاجية، فيتدفق

تيار خدمات الموارد من الوحدات الاستهلاكية إلى الوحدات الإنتاجية فى صورة عمل (عمال وإداريين. . إلخ) وفى صورة رأس المال. الاتجاه العكسى يتمثل فى النقود التى تدفع فى صورة أجور، وفوائد رأس المال المستثمر، وأرباح. من التحليل السابق يتضح أن تداول النقود يتم بصفة دائمة بين الوحدات الإنتاجية والوحدات الاستهلاكية، فعملية بيع السلع والخدمات توفر النقود لدى المنشآت الإنتاجية لغرض شراء خدمات الموارد، كما أن عملية بيع أو تأجير خدمات الموارد توفر النقود لغرض شراء السلع والخدمات الاستهلاكية.

يصبح الاقتصاد علمًا عاديًا وغير ذى معنى إذا كانت احتياجات البشر محدودة، مع توافر المصادر بلا حدود بحيث تشبع احتياجات جميع البشر فى كل زمان وكل مكان. ولكن مع وجود الندرة فى الموارد والثروات الطبيعية، ومع وجود النهم الإنسانى، فإن علم الاقتصاد يتحول إلى علم مهم وأساسى لتدبير احتياجاتنا اليومية. لقد ساعد التقدم التكنولوجى فى تخفيف حدة الندرة - خاصة مع الزيادة المستمرة فى السكان.

إذا نحينا المذاهب الاقتصادية جانبًا، يمكن القول بوجود شكلين رئيسين للتنظيم الاقتصادى وهما: الاقتصاد المخطط Planned Economy، والاقتصاد القائم على حرية العمل والمشاريع Free-Enterprise Economy. دائمًا تثار معضلة مهمة ورئيسية فى الفكر الاقتصادى وهى الاستثمار للمستقبل، وتقسيم الموارد المتاحة بين الاحتياجات اللحظية والاحتياج المستقبلى. تنشأ هذه المعضلة من باب الندرة أيضًا، فالطاقة التقليدية - مثل النفط والفحم - ستؤول مصادر إنتاجها فى المستقبل إلى النضوب، وعليه تثار دائمًا قضايا الاستهلاك من هذه المصادر، إما بالترشيد فى الاستهلاك أو الاتجاه إلى مصادر الطاقات الجديدة والمتجددة - مثل الطاقة الشمسية وطاقة الرياح وطاقة الكتلة الحية والطاقة الهيدروليكية - أو مراعاة الاتجاهين معًا. مثال آخر: هل تخصص الشركة أو المؤسسة اعتمادًا ماليًا كبيرًا لمجال التدريب من أجل تحسين

نظم العمل فى المستقبل، أو توجه الاعتمادات المالية إلى التوسع الرأسمالى. إن علم الاقتصاد يتعلق بالمستقبل، وإن كان ينظر إلى الماضى، فمن أجل اكتساب خبرات تفيده فى التطبيق المستقبلى يجب أن يهتم بالتدريب ورفع كفاءة نظم العمل والإدارة.

لم يكن الفيلسوف الإغريقى أفلاطون على خطأ تمامًا فى الصورة المجازية التى ساقها للذهن، كسائق عربة يقودها حصانين توأمين هما العقل والعاطفة. بعد آلاف السنين لم يدرك معظم الاقتصاديين أنه بالرغم من مقولة أفلاطون، فإن أحد الحصانين - وهو العقل هزيل وضعيف، والآخر - وهو العاطفة - قوى ومسيطر. إن معظم البشر لا يطيقون الحسابات العقلانية على القرارات الاقتصادية، ولا يتحكم فى حياتهم النماذج الرياضية التى يكون هدفها هو معظمة دالة المنفعة Optimize the Objective Function للفرد أو للمجتمع أو للدولة. إن الكثير من البشر تقودهم العاطفة فى اتجاه بعيد عن المسار الاقتصادى. لذا اهتم الباحثون حديثًا بما يسمى "علم الاقتصاد السلوكى"، لتحليل سلوك الأفراد والجماعات فيما يخص المجال الاقتصادى من اتخاذ قرارات اقتصادية، أو قدرة تقبل المخاطرة، أو تطبيق مفهوم القيمة المتوقعة Expected Value، بمعنى المردود المحتمل لمسار عمل معين، مضروبًا بفرصة نيله أو احتمال حدوثه. إن الآثار التى تنتج عن إصدار قرارات لتغير الظروف القائمة تلعب دورًا أساسيًا فى كل من الفكر والسلوك الاقتصادى، ويشير الاقتصاديون إلى مثل هذه القرارات بأنها قرارات حدية Marginal Decision. إن الاختيارات الحدية تشمل كل الآثار الناتجة عن الإضافات الصافية أو النقص الصافى فى مستوى الظروف القائمة. تؤدى القرارات الاقتصادية غالبًا إلى آثار ثانوية بالإضافة إلى الآثار المباشرة، والقرار الجديد يكمن فى الأخذ فى الاعتبار الآثار الثانوية أو ما يسمى بالآثار غير المباشرة، أو التأثير الجانبى Side Effect للقرار والذى قد يؤثر بالسلب أو بالإيجاب على اتخاذ القرار. هناك حقيقة فى الاقتصاد تقول: إن اختيار فعل

شىء ما يعنى فى نفس الوقت اختيار عدم فعل شىء آخر، وعليه فإن اتخاذ القرار فى عالم الواقع يتأثر بتكلفة الفرصة البديلة Opportunity Cost من منطلق أن ترجيح اختيار ما يتغير عكسيًا مع تكلفته بالنسبة لمتخذ القرار، كمثل الارتباط الإيجابى مع الفائدة العائدة منه.

يعتبر إجمالى الناتج القومى Gross National Product هو مقياس للنبض الاقتصادى للدولة. والناتج القومى الإجمالى هو القيمة السوقية للسلع والخدمات النهائية التى أنتجتها الدولة خلال فترة زمنية محددة وهى سنة فى العادة. إن المقصود بالسلعة النهائية، السلعة التى بين يدى مستخدمها النهائى، والقيمة السوقية للمنتج النهائى هى الكمية المضافة Value Added لقيمة السلعة فى كل مرحلة من مراحل الإنتاج، من أجور عمال ومصروفات إدارية، وأرباح رأسمالية. إن الناتج القومى الإجمالى هو مقياس للإنتاج الجارى، وعلى ذلك فإن تبادل السلع أو الأصول التى تم إنتاجها خلال فترات زمنية سابقة لا تدخل فى حساب إجمالى الناتج القومى الجارى. هناك طريقتان لحساب إجمالى الناتج القومى أولهما عن طريق جمع كل ما ينفق على السلع والخدمات المشتراة، والطريقة الثانية من خلال حساب تكاليف إنتاج وعرض تلك السلع والخدمات.

واكبت الثورة الصناعية فكرًا إنسانيًا جديدًا فى مجال وضع خطط اقتصادية لتنفيذ المشروعات. تستخدم حديثًا فى التخطيط الاقتصادى برامج المعظمة Optimization Programming للوصول إلى الحد الأعلى للفائدة Profit Maximization أو الوصول إلى الحد الأدنى للتكلفة Cost Minimization. فى العادة تتكون العناصر الرئيسية للخطة من:

- الأهداف النهائية للخطة.
- اختيار السياسات والبرامج والمسارات التى توصل إلى الأهداف الموضوعة.

• مصادر تنفيذ الخطة: من تكنولوجيا، وتمويل، وقوى بشرية، وخلافه.

• الإجراءات التنفيذية للخطة.

• المراجعة والتقيم.

يعتبر التخطيط Planning من أهم وظائف الإدارة، لتشكيل وتحقيق الأهداف التى تتحول بعد ذلك إلى خطط محددة ومشروعات إنتاجية أو خدمية. بجانب التخطيط يأتى نظام الفحص والمراقبة والتحكم Control System والذى يقوم بعمل إشارة تنبيهية فى حالة اختلاف الأداء الفعلى عن الخطة الموضوعة على محورى الوقت والتكلفة، أو حالة تطبيق أى معايير أخرى فعالة وضرورية لإنجاز العمل بدقة وكفاءة. فى حالة وصول انحراف الأداء الفعلى عن الخطة الموضوعة لدرجة غير مقبولة للإدارة ستقوم الإدارة بأخذ قرارات تصحيحية لتوفيق الأداء الفعلى مع الخطط الموضوعة.

نبذة تاريخية:

اشتقت كلمة اقتصاد Economy فى اللغات الأوروبية من كلمتين فى اللغة اليونانية القديمة وهى Oikos بمعنى منزل، Nemein بمعنى إدارة، وذلك لإرجاع فضل علم الاقتصاد إلى المرأة كمدبرة للمنزل بالرغم من عدم وجود رائدات فى الاقتصاد - لا فى العصر القديم أو فى العصر الحديث. ولكن ربما يكون السبب اتجاه المرأة للشراء والصرف والإنفاق، الذى قد يؤدى إما إلى إنعاش قطاع الأعمال أو إلى تدهور النشاط الاقتصادى.

بدأ الإنسان نظامه الاقتصادى البدائى من عملية الإنتاج/الاستهلاك اللحظية، صيد الحيوانات والأسماك بغية الاستفادة من لحومها فى الطعام، واستخدام عظامها فى تصنيع بعض الأدوات البدائية أو التزين بها. ثم بدأت المرحلة الثانية عندما عرف الإنسان الاستيطان والزراعة والحصاد وتخزين الغلال، ثم كانت عمليات التجارة البسيطة من خلال التبادل السلعى. كانت نقطة التحول الثانية بعد الزراعة، هى عمليات التصنيع والإنتاج بكميات

وافرة، وبظهور الثروة الصناعية بدأ المفكرون فى استنباط نظريات اقتصادية ناتجة عن ملاحظاتهم من العمليات التجارية الجارية فى الأسواق ومن مراحل التصنيع المختلفة، بدءًا من الحصول على المواد الخام وحتى إكمال عملية التصنيع ثم التخزين أو البيع. قبل قيام الثورة الصناعية، كان استعمال أو استهلاك السلع، والمواد الغذائية الأولية، وبعض العصائر أو المشروبات الروحية، وبعض الملابس أو أشياء أخرى قليلة، هى المتاحة لأقلية حاكمة صغيرة وأتباعهم. كان الاستهلاك الأكبر فى مجال الخدمات الذى كان يقوم به أرقاء الأرض والعبيد.

كان الاقتصاد فى عصور الحضارات القديمة قائمًا على استعمال وتبادل السلع، وكذلك الخدمات التى كان يقوم بها عادة العبيد. كانت المجادلات الأخلاقية - فيما يخص الرقيق - لها الأولوية والأهمية عن المسائل الاقتصادية، فذهب الفلاسفة فى تأكيد التبرير الأخلاقى للرق وشروط معاملة الرقيق، أو كما يقول أرسطو فى دفاعه عن العبودية: (إن الرقيق هم بحكم الطبيعة النوع الأدنى، ومن الخير لهم مثل ما هو لكل الفئات الأقل شأنًا، أن يكونوا تحت حكم الأسياد... والحقيقة أنه ليس هناك فرق كبير بين استخدام الرقيق واستخدام الحيوانات المستأنسة). كانت الفائدة على القروض مشكلة أخلاقية - أيضًا - بالنسبة للحضارات القديمة. يقترض الناس الأموال ويدفعون فائدة لسببين، أولهما أنهم يريدون أن تكون لديهم سلع رأسمالية (مثل المنازل والحيوانات الأليفة)، أو رأس مال تشغيلى مثل الآلات والمعدات والسلع التى فى مرحلة التصنيع وذلك بغرض إتمام عملية التصنيع أو التجارة لتحقيق مكاسب والحصول على أرباح. أما السبب الثانى لدفع الفائدة هو رغبة الفرد لإشباع احتياجاته فيقترض من شخص آخر موسر بفائدة، وفى هذه الحالة لا ينظر إلى الفائدة كتكلفة إنتاج وإنما هى "ربا" يفرضه الأسعد حظا والأكثر مالا على الفقير المحتاج.

كانت النقود فى العصور القديمة هى مجرد سلعة تشغل دورًا وسيطًا فى

عملية تبادل السلع، بسبب قابليتها للتقسيم وتوفرها بقدر كاف، فقد كانت المعادن الثمينة في ذلك الوقت، مثل: الذهب والفضة والنحاس تسك لإصدار النقود. لم توجد نظرية للأسعار في العصور القديمة، فالأسعار تشتق بطريقة أو بأخرى من تكاليف الإنتاج التي لم يكن لها معنى منظور في الأسر القديمة المالكة للعبيد.

قد يرجع التاريخ المبكر للنقود إلى الحضارة الفرعونية، فقد استخدم قدماء المصريين منذ حوالي أربعة آلاف وخمسمائة عامًا الحلقات المعدنية كنقود. أيضًا عرفت الحضارات البابلية، والفينيقية النقود المعدنية، والتي انتشرت وازدهرت في ليديا في غرب آسيا الصغرى في القرنين السادس والسابع قبل الميلاد. يعتقد المؤرخون أن طبع النقود الورقية بدأ في الصين في بداية التاسع الميلادي، فقد كتب الرحالة ماركو بولو بعد عودته من الصين عام ١٢٩٥م أن كيولا خان قد اصدر أوراقًا مالية من الجلد الرقيق المشابه للورق. لم تصدر الأوراق المالية في أوروبا إلا في نهاية القرن الثالث عشر بعد انتشار صناعة الورق.

كانت الفضة والذهب كمعادن يستخدمان لسك النقود، ثم استخدمت بعد ذلك السبائك المعدنية من هذين المعدنين الثمينين. يرجع جذور تطور النقود والأعمال المصرفية إلى إيطاليا في الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر، في فينيا أولا ثم مدن وادى نهر البو الذى ينبع من جبال الألب ويجرى شرقا مارا بتورينو ويصب في بحر الأدرياتيك. كان للاقتراض وما يترتب عليه من إصدار للنقود شكل آخر مختلف عما يحدث في العصور الحديثة، فبدلا من الوديعة التي يمكن تحويلها كان يوجد ما يسمى إعطاء أمر أى إعطاء تعليمات كتابية أو إصدار شيك مصرفي. كان في استطاعة المقترض أن يحصل على قرضه في شكل أوراق بنكية (بنكنوت)، وكانت هذه الأوراق تؤكد أن لديه المعدن المقابل لها مودعًا في البنك، وأن باستطاعة متلقيها عندئذ أن يذهب إلى البنك للحصول عليها، أو تحويلها إلى

مورد آخر أو مقترض آخر، مع الاحتفاظ بالنقود المعدنية فى أقبية البنك.

منحنى آخر من منحنيات الفكر الاقتصادى وهو عصر التجار بصورته الحديثة نسبيا، والذى يسمى بالرأسمالية التجارية وأحيانا بالمركنتيلية. يمتد هذا العصر لمدة ثلاثمائة عام، منذ حوالى منتصف القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر، أى ينتهى ببداية الثورة الصناعية فى أوروبا - خاصة فى بريطانيا - وقيام الثورة الأمريكية والإعلان الأمريكى للاستقلال فى عام ١٧٧٦ . لم تكن المركنتيلية نظامًا فكريًا أو مذهبًا فلسفيًا، وإنما كانت نتيجة تطبيقات عملية لرجال الدولة وكبار الموظفين ورجال المال والأعمال فى ذلك العهد. كانت السفن فى تلك الأيام تقوم بنقل المنتجات والسلع، وظهرت البنوك لأول مرة فى إيطاليا ثم بعد ذلك فى أوروبا الشمالية. أصبح للتاجر شخصية مميزة جديرة بالاحترام، بعد أن كان متواريًا فى العصور الوسطى لأوروبا، لذلك كان للتاجر احترامه ومقامه المميز فى المدن التجارية الأوروبية. لم يكن كبار التجار مجرد ذوى نفوذ لدى مراكز الحكم وإنما كانوا هم أصحاب اتخاذ القرارات. زاد من قوة قطاع التجارة اكتشاف العالم الجديد فى قارة أمريكا واستراليا. كانت أول رحلات كشف أمريكا والشرق الأقصى فى عام ١٤٩٢م، والتى قام بها كريستوفر كولمبس، ثم توالت الرحلات الاستكشافية بواسطة فاسكو دى جاما وآخرين. كانت من نتيجة هذه الرحلات تدفق منتجات جديدة وغير مألوفة إلى أوروبا من الأراضى المكتشفة ومن الشرق الأقصى (الصين والهند). كان من أثر تدفق المعادن إلى أوروبا حدوث ارتفاع عام فى الأسعار، وظهور نظرية كمية النقود Quantity Theory of Money، والتى تربط الأسعار بالمعروض من النقود فى حالة ثبوت حجم التجارة.

تعتبر سياسة الإغراق من أهم المشاكل التى واجهت كثير من دول العالم. كتب د. نبيل حشاد فى كتاب "الجات ومنظمة التجارة العالمية" وتعرض اتفاقية الجات لسياسة الإغراق ورسوم التعويض: (يقصد بالإغراق قيام دولة

بتصدير منتج معين بسعر يقل عن قيمته المعتادة أو يقل عن السعر المقابل لناتج مماثل يباع فى دولة التصدير. ويمكن للدولة المستوردة أن تكافح عملية الإغراق عن طريق فرض رسم معين لمكافحة الإغراق، بحيث لا يزيد هذا الرسم على الفرق بين سعر السلعة المصدرة وسعر السلعة المماثلة فى السوق المحلية للمصدر. ويجوز إخضاع الدعم الحكومى على صنع أو سلعة أو إنتاجها أو تصديرها بما يؤدى بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى زيادة الصادرات أو خفض الواردات لرسوم تعويض، ورسم التعويض تفرضه الدولة المستوردة لإفساد أثر الدعم المقدم من المصدر، ولا يجب أن تتجاوز قيمته مبلغ الدعم. وتقتصر مكافحة إغراق السوق ورسوم التعويض على الحالات التى تسبب فيها الواردات ضررا ماديا لصناعة محلية). يعتبر موضوع الدعم والرسوم التعويضية من الموضوعات التى تمت مناقشتها فى اجتماع أورجواى، وقد تم وضع ضوابط وأسس لاستخدامها.

تذهب نظريات التجارة الخارجية إلى إمكانية استفادة الدول من تقسيم العمل الذى يؤدى إلى الاستخدام الأفضل للموارد الاقتصادية وزيادة الكفاءة الإنتاجية. شهد العقدين الماضيين انفتاحا تجاريا وماليا بين الدول على مستوى الدول المتقدمة أو الدول النامية. ساعد اندماج كثير من الدول النامية فى الأسواق العالمية قيامها بتحرير أسواقها المالية مما أدى إلى تدفق رءوس الأموال إليها للاستفادة من انخفاض تكلفة العمالة لديها. قامت كثير من الدول النامية بإزالة العوائق التى تحد من تدفق رأس المال بقبولها الالتزامات المتعلقة بقابلية الحساب الجارى للتحويل. شجع الإصلاح الاقتصادى الذى انتهجته الكثير من الدول النامية ودول أوروبا الشرقية التى كانت تسير فى درب الاتحاد السوفيتى سابقا، إلى قيام الدول الصناعية المتقدمة بإنشاء فروع لمصانعها فى هذه الدول تمهيدًا لانضمام بعض من دول أوروبا الشرقية إلى الاتحاد الأوروبى بعد تحقيق المؤشرات التى تؤهلها للانضمام.

نشأت النظريات الاقتصادية من كيفية تصرف الإنسان فى مواجهة مشكلة

الندرة، وفى استجابته للتغير. لما كانت الموارد الإنتاجية التى تستخدم فى إنتاج السلع محدودة، فإن السلع والخدمات تعتبر أيضا محدودة، وعلى العكس من ذلك فإن رغبات الإنسان واحتياجاته الأساسية والترفيهية غير محدودة، كل هذه الحقائق تضع عنصرين أساسين فى علم الاقتصاد وهما: الندرة Scarcity، والاختيار Choice. والندرة هى اصطلاح يستخدمه الاقتصاديون لإيضاح أن رغبة الإنسان فى شىء ما تفوق المتاح منه فى الطبيعة، لذا فإن الإنسان فى صراع دائم مع الطبيعة لإشباع حاجته. إن الندرة تفرض قيوداً على قدراتنا، ولكن يمكن استخدام مهارات الإنسان فى إنتاج سلع اقتصادية، فالطاقة البشرية تعد دائمًا أحد مقومات إنتاج السلع الاقتصادية. الاقتصاد كما بين رائد الاقتصاد الحديث جون كينز: (وسيلة أكثر منه نظامًا، إنه جهاز يعتمد على العقل، وأسلوب فنى يستند إلى التفكير الذى يمكن صاحبه من استخلاص نتائج صحيحة). ظهر فى الفكر الاقتصادى ثلاث نظريات رئيسية وهى الرأسمالية، والشيوعية، والاشتراكية، لكل منها مزاياها وعيوبها، ولكل منها مؤيديها ومناهضيها.

الرأسمالية Capitalism

إن الرأسمالية هى نموذج أو نظام من النظم الاقتصادية، يكون فيها رأس المال ملكية خاصة، ويستخدم فيها رأس المال فى حرية كما يشاء المالكين من أجل جنى الأرباح من مشاريعهم الاقتصادية. وتفترض كل أشكال الرأسمالية وجود أسلوب فعال لتبادل السلع والخدمات وكذلك وجود نظم مالية Financial ونقدية Monetary من أجل بناء نظام اقتصادى متكامل. يعنى الاقتصاديون بمصطلح رأس المال - والذى يستخدم فى جميع النظم الاقتصادية:

١- رأس المال المادى، من خدامات طبيعية، ومعدات تستخدم فى عمليات التصنيع والخدمات.

٢- رأس مال نقدى متاح للاستثمار فى شكل سلع.

فى الواقع إن الرأسمالية ليست بمصطلح حديث، فبالرجوع إلى العصور القديمة، نجد أن تصنيع الإنسان لأدواته البدائية وعملية الصيد والرعى كانت كلها مشروعات خاصة، بالرغم من وجود الخدمات، أو الحيوانات والأسماك لجميع البشر كمشاع عام. وتطورت الملكية الخاصة مع تعرف الإنسان على الزراعة، وفى عصور اكتشافه للمعادن واستخدامها فى تصنيع معداته.

عرف العربى الملكية الخاصة فى التجارة ورعى الأغنام والإبل، وطورت الحضارتين الإغريقية والرومانية الرأسمالية فى الإنتاج والتجارة. بعد انحدار الحضارة الرومانية تقلصت فى أوروبا العناصر الرئيسية لقيام الرأسمالية بصورتها القديمة وأهمها التجارة والصناعات البسيطة. مرت قرون عديدة قبل انتعاش المدن الأوروبية بالتجارة والتصنيع فى المجال غير الزراعى، وتبادل السلع بين المدن والمقاطعات المختلفة. استمر ازدهار الرأسمالية خاصة فى أوروبا الغربية تحت نظام المركنتلية Mercantilism فى أوروبا خلال تدهور النظام الإقطاعى، وذلك لتعزيز ثروات الدولة من خلال نظام حكومى صارم لجميع قطاعات الاقتصاد، وانتهاج سياسات تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية بتكوين الشركات متعددة الجنسيات فى المستعمرات خارج قارة أوروبا خاصة فى آسيا وأفريقيا. تميزت المركنتلية عن النظام الرأسمالى الصرف - الذى يعطى الحرية الكاملة لتصرف رأس مال دون قيود أو تحكم الحكومة - بأنها كانت نظامًا رأسماليًا له سياسات رأسمالية وطنية تحت سيطرة الدولة.

خلال القرن التاسع عشر تطور مذهب الاقتصاد الحر بواسطة مفكرين فرنسيين، هم أتباع رائد الاقتصاد السياسى الفرنسى فرنسوا كينيه Quesnay. يعتبر كينيه الذى عاش فى القرن الثامن عشر هو مؤسس المدرسة الفيزيوقراطية Physiocratic فى الاقتصاد، والتى نادت بحرية الصناعة والتجارة، وبأن الأرض هى مصدر الثروات. فى عام ١٧٥٨ نشر كينيه جداوله الاقتصادية Economic Tables، أو ما تسمى حاليا (بجداول المدخلات والمخرجات)

Input / Output Tables. تبين هذه الجداول العلاقات المتبادلة بين العوامل التى تؤثر فى الاقتصاد، وبإدارة هذه العوامل يمكن معظمة Optimize الاقتصاد الكلى Macro Economy للدولة. كمثال لتوضيح هذه الجداول، فإن الحديد مثلا هو عنصر يدخل فى مجال بناء المساكن والكبارى ومحطات القوى، .... إلخ، والكهرباء عنصر فى إنتاج الحديد وفى الزراعة وفى إنتاج الأسمنت، .... إلخ، والأسمنت عنصر فى صناعات أخرى، وهكذا يتكون جدول المدخلات والمخرجات من عناصر ترتب أفقيًا وتوضع بنفس الترتيب رأسيًا. ثم توضع قيم العناصر التى تدخل فى إنتاج العناصر الأخرى، ويشكل إجمالى قيم العناصر رأسيا وأفقيا الناتج القومى فى فترة معينة - عام مثلا. إن تغير أى من هذه العناصر يؤثر فى إجمالى الناتج القومى، فزيادة إنتاج الحديد بمقدار وحدة إنتاج - طن مثلا - يزيد إجمالى الناتج القومى بقدر معين، وتخفيضه يؤدى بالطبع إلى تخفيض الناتج القومى. يمكن من خلال التغير والتبديل والمناورة Manipulation فى إنتاج جميع عناصر الاقتصاد الكلى تحت محددات معينة Constrains مثل العمالة ورأس المال والتكنولوجيا المتاحة، الوصول إلى قيم العناصر التى تعطى أكبر ناتج قومى.

ذهب الفيزيوقراطين إلى أن القوانين الطبيعية Natural Laws التى اكتشفت بواسطة العالم البريطانى إسحق نيوتن والعلماء الآخرين، قد تطورت لتفسير ظواهر العالم الطبيعى. اعتقد الفيزيوقراطين أنه من الضرورى إزالة القيود الزائفة والاصطناعية من السلوك الفردى، مع حرية البيع والشراء أى حرية التجارة، وذلك لتحقيق هذا النظام الطبيعى الذى نادى به العلماء.

نادى الفيزيوقراطين أيضًا بخفض أنشطة الدولة فى مجالات: الملكية الخاصة، والإدارة الحكومية، وفى أداء العمل الجماعى. أطلق على هذا المذهب: سياسة عدم التدخل (Laissez-Faire Laisser Passer)، أى مبدأ عدم التدخل الحكومى فى الشئون الاقتصادية للدولة إلا بمقدار ما يكون ذلك التدخل ضروريا للحفاظ على الأمن وحقوق الملكية الشخصية. أمدً مذهب

سياسة عدم التدخل الاقتصادى المشهور آدم سميث الأساس اللازم لتطوير فلسفة شاملة عن الرأسمالية.

فى عام ١٧٧٦ ميلاديا، نشر الفيلسوف والاقتصادى الاسكتلندى آدم سميث كتابه المشهور: ثروة الأمم، أو تحت العنوان الكامل (بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم) (An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth) والذى انتقد فيه التحكم الاقتصادى فى الفكر المركنتلى، كما عبر فيه عن استحسانه لأفكار الفيزيوقراطيين عن سياسة عدم التدخل. عاش آدم سميث فى القرن الثامن عشر كمؤسس للمدرسة الكلاسيكية فى الاقتصاد السياسى. نادى سميث بأن تقوم الدولة بتخفيض القيود على التجارة والأسعار إلى أقل ما يمكن. بدأ سميث مجادلاته فى اعتبار العمالة أساس الإنتاج، وبمسايرة الرأى بأن للعمال أهمية فى تحسين مستوى المعيشة، ولكنه انتقد تأثيرهم المعنوى والعقلانى السلبى على المجتمع. آثار سميث التساؤل الشهير عن توزيع الإنتاج بين الأفراد. مناديا بقانون العرض والطلب وتحديد الأسعار بصفة عامة من خلال هذا القانون. كانت مسألة الأسعار تحير سميث من المفهوم الاقتصادى، فإن أفضل الأشياء وأكثرها جوهرية مثل "الماء" يمكن أن يحصل عليه مجانًا أو بسعر زهيد، فى حين أن الماس الذى لا ضرورة له إلا فى الزينة يباع بأعلى الأسعار. أجاب مفهوم "المنفعة الحدية" - والذى ظهر فيما بعد - عن هذا التساؤل، فمنفعة الماء تتناقص نتيجة لوفرته، على حين أن منفعة الماس تظل عالية نتيجة لندرته، وفى صحراء لا ماء فيها لإنسان ظمآن يصبح للماء قيمة أكبر من الماس، فالندرة هى أساس الاقتصاد وظهوره كعلم أساسى فى حياتنا الحالية. جادل سميث فى المفهوم التقليدى للأسعار مناديًا بتطبيق "الأسعار الطبيعية"، أى السعر الذى يحدده السوق وفقًا للعرض والطلب وبدون تدخل خارجى من الدولة أو الأفراد أو أى جماعات ضاغطة.

كان من رأى آدم سميث أن السعى إلى المصلحة الذاتية بصورة فردية وتنافسية هو مصدر القدر الأكبر من الخير العام، ومن أشهر أقواله: (إننا لا نتوقع غذاءنا من إحسان الجزار أو الخباز، وإنما نتوقعه من عنايتهم بمصلحتهم الخاصة، نحن لا نخاطب إنسانيتهم وإنما نخاطب حبهم لذواتهم.. إن الفرد فى هذه الحالة كما فى حالات أخرى كثيرة تقوده يد خفية نحو تحقيقه غاية لم تكن جزءاً من مقصده.. وأنا لم أعرف أبداً أن خيراً كثيراً تحقق على أيدى من يسعون إلى الخير العام). انتشر تعبير "اليد الخفية" وأصبح أشهر استعارة فى الفكر الاقتصادى فى ذلك الوقت. كانت فلسفة آدم سميث للرأسمالية الصرفة بالحرية التامة للتنافس فى مجال العمل، ومن خلال هذا التنافس يحصل المجتمع على معظمة اقتصاده.

وضع سميث مفهوم قيمة الاستعمال جانبًا مع التأكيد على قيمة التبادل، على أساس التعريف المتداول لها وهو نظرية (كمية العمل) Labour Theory of Value، فقيمة أى شىء يمتلكه الإنسان تقاس فى النهاية بكمية العمل التى يمكن أن يبادل بها. إن قيمة أى سلعة - بالنسبة للشخص الذى يمتلكها - تكون مساوية لكمية العمل التى تمكنه من شرائها أو وضع يده عليها، ولذلك فإن العمل هو المقياس الحقيقى لجميع السلع التى لها قيمة قابلة للتداول. كتب سميث فى الكلمات الافتتاحية لكتاب (ثروة الأمم): (إن ما تمتلكه أمة ما من فضة أو ذهب ليس هو مقياس ثروتها، ذلك أن العمل السنوى لكل أمة هو المصدر الذى يزودها ابتداء بكل ضرورات الحياة ووسائلها... كما أن الثروة تزيد بمقدار المهارة وحسن الأداء فى قوة العمل، وأيضًا بالنسبة بين عدد من يستخدمون فى عمل مفيد، وعدد من لا يستخدمون على هذا النحو). مع حتمية العمل لتعظيم الاقتصاد، حث سميث على ترشيد الإنفاق الترفى، والتقطير فى المصروفات الشخصية، وقصر أنشطة الدولة على النهوض بأعباء الدفاع، وإدارة العدالة، والقيام بالأشغال العامة الضرورية، كما أكد على حق الدولة فى جباية الضرائب، ولكن يجب أن تكون مناسبة وغير مرهقة فى تقديرها وتحصيلها.

بعد وفاة آدم سميث برز ثلاثة اقتصاديين كان لهم أثرا مهما فى الفكر الاقتصادى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهم الفرنسى جان ساى، والبريطانيان توماس مالتس ودافيد ريكاردو، والذين سعوا لتحسين آراء سميث وجعل الفكر الاقتصادى متمشيًا مع الثورة الصناعية التى اجتاحت أوروبا. بدأ ساى بتحسين صورة المنظم Business Developer الذى يتصور مشروعا ما ويتولى مسئولية تنفيذه. يرى ساى أن "المنظم" هو القوة المحركة للتعبير والتحسين فى الميدان الاقتصادى. كتب جون جالبريث عن ساى فى كتابه "تاريخ الفكر الاقتصادى": (كان مؤدى قانون ساى أنه من إنتاج البضائع يأتى مجموع فعال - أى ينفق من الناحية الفعلية - للطلب يكفى لشراء العرض الكلى للبضائع، لا أكثر ولا أقل. لذلك لا يمكن أن يوجد فى النظام الاقتصادى ما يعتبر إفراطًا عامًا فى الإنتاج... من سعر اى ناتج يباع يأتى عائد فى شكل أجور أو فائدة أو ربح يكفى لشراء ذلك الناتج، ويحصل عليه جميعه شخص ما، فى مكان ما... لذلك لا يمكن أن يوجد فى أى وقت نقص فى الطلب، وهو المقابل للإفراط فى الإنتاج، ومن الممكن أن يكون هناك أشخاص يدخرون، لكنهم سوف يستثمرون، وبذلك يظل الإنفاق مكفولا). رفض مالتس آراء ساى، كما شهدت العقود التى تلت ذلك فترات متكررة من الأزمات والكساد، فكانت البضائع لا تباع، وكان العمال لا يجدون فرص عمل، وواجه الاقتصاديون هذا الوضع بمفهوم وجود دورة اقتصادية. ظل قانون ساى سائداً حتى وقع الكساد الكبير فى النصف الأول من القرن العشرين - قبل نشوب الحرب العالمية الثانية - فغيرت آراء الاقتصادى جون كينز الاعتقاد فى صحة قانون ساى. بنهاية عهد (قانون ساى) تراجعت مكانة التوزيع والأسعار والأجور والقيمة ومفاهيم أخرى من الفكر الاقتصادى القديم، وحلت مكانها إدارة الطلب الكلى التى يجب أن تضطلع بها الحكومات مباشرة، أو من خلال البنوك المركزية لزيادة الدخل والقوة الشرائية أو إنقاصهما. بمعنى آخر تربع الاقتصاد الكلى Macroeconomics عرش الاقتصاد بدلا من الاقتصاد الجزئى

Microeconomics الذى ساد من قبل.

كان إسهام مالتس الأساسى هو القانون الذى رأى أنه يحكم نمو السكان مع تأثيره على الكيفية التى تحدد بها الأجور. كانت استنتاجات مالتس الأساسية هى أن السكان يزيدون عندما تسمح بذلك وسائل المعيشة وفقًا لمتوالية هندسية، فى حين أن زيادة الأغذية تسير وفقًا لمتوالية حسابية، وإن هذا الفارق سيستمر مما يترتب عليه أن النمو السكانى سيفوق الإمدادات الغذائية ما لم تكن هناك عوامل تحد من عدم زيادته. عدد مالتس بعض العوامل المختلفة لعدم زيادة السكان مثل الوازع الأخلاقى، والبؤس، والموت جوعًا، والمرض والحروب. اقترح مالتس أيضًا تأخير سن الزواج كحل مساعد للمشكلة السكانية، وعدم الوصول إلى مرحلة الانفجار السكانى.

اعتقد ريكاردو أن العوامل التى تحدد قيمة الناتج أو سعره تتمثل فى فائدته/منفعته، وأن هذه القيمة تنبع إما من الندرة أو من كمية العمل اللازمة للحصول عليه. كانت وجهة نظر ريكاردو بالنسبة للأجور هى: (الثمن اللازم لتمكين الكادحين الواحد بعد الآخر، من البقاء، ومن استمرار وجود عنصرهم، دونما أى زيادة أو نقصان). كان الفكر الراسخ لديه بالنسبة لآليات سوق العمل: (عندما يزداد عدد الكادحين نتيجة للتشجيع الذى تعطيه الأجور المرتفعة لزيادة السكان، فإن الأجور تتجه للانخفاض من جديد إلى سعرها الطبيعى، بل إنها تنخفض كرد فعل فى بعض الأحيان إلى ما دون هذا السعر). كان ريكاردو يعتقد أن ضخ رأس المال والتكنولوجيا فى الاقتصاد، وما يترتب على ذلك من أثر صعودى على السعر السوقى للعمل، يمكن أن يستمر بلا نهاية. كان ريكاردو معروفًا بسبب قانونه الحاكم الذى يذهب إلى أن البؤس أمر حتمى لمن يعيشون فى ظل الرأسمالية، وأن الأجور شأن كل العقود الأخرى، يجب أن تترك للمنافسة العادلة والحرة فى السوق، وإلا تكون محكومة بالتشريع.

صاحب التطور السريع فى الثورة الصناعية فى إنجلترا خاصة فى الربع

الأخير من القرن الثامن عشر والتى امتدت حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، صعاب اقتصادية ومشاكل اجتماعية. أدى التحول من النشاط الزراعى إلى تربية الأغنام - بغرض تحويل أصوافها إلى ملبوسات - إلى انخفاض ملموس فى الطلب على العمال الزراعيين. لم تستطع المصانع فى ذلك الوقت امتصاص القوى العاملة المهاجرة من الريف إلى مراكز الصناعات، خاصة بعد أن حلت الآلات والماكينات محل الأيدى العاملة فى العمل والإنتاج بكميات كبيرة واقتصادية، أدت البطالة فى إنجلترا إلى تدنى الأجور وزيادة ساعات العمل، وكذلك إلى أحوال معيشية شاقة وتعسة لطبقة العمال من رجال ونساء وأطفال. كان من نتيجة التدهور فى المستوى المعيشى وقسوة رأسمالية الثورة الصناعية الى انتشار الفكر الاشتراكى وبزوغ المذهب الشيوعى الذى تنبأ بأنه من خلال التقلب فى الدورة الاقتصادية سيصبح نشاط العمل - فى المجال الصناعى والتجارى - عسيرًا ومـزداد سوءًا، تنبأ ماركس أيضًا بأن البؤس الذى سيغشى الطبقة العاملة سيؤدى إلى الإطاحة بالنظام الرأسمالى وإحلال نظام اشتراكى بدلا منه. خيب المستقبل آمال الشيوعيين والاشتراكيين، فقد أدى التطور الرأسمالى فى إنجلترا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى أوضاع اقتصادية مخالفة لتنبؤات ماركس، فمن خلال سياسات حكومية كانت لا تتدخل فى النشاط الاقتصادى إلا عند الحاجة أو الضرورة، ازدهر النشاط التجارى والصناعى فى إنجلترا، وتم القضاء على مشكلة البطالة، وبدأت طبقة العمال فى حصاد نتيجة مجهودهم السابق وتعويض سنوات شقائهم وبؤسهم.

كانت القضايا الرئيسية لعلم الاقتصاد فى القرن التاسع عشر هى كيف تحدد الأسعار والأجور والفائدة والأرباح، كما وجهت عناية للنقود ودور القطاع المصرفى. كان تفسير الأسعار والإيرادات الناشئة عنها يعكس الاتجاه السائد فى تلك الفترة وهو التحول من الاهتمام بالبائع وتكلفة العمل إلى الاهتمام بالمشترى ومنفعة المستهلك، ومن الاهتمام بالعرض إلى الاهتمام بالطلب.

عندما اقترب القرن التاسع عشر من نهايته حدثت عودة إلى الاهتمام المتوازن بين العرض والطلب، ولا سيما فى أعمال الفريد مارشال الذى قام بالجمع بين الأفكار السابقة فى نموذج واحد. فى هذا القرن أيضًا أوضح أستاذ الاقتصاد السياسى ناسو سينيور أنه فضلا عن تكلفة العمل الذى يبذل فى إنتاج السلع الرأسمالية، فهناك ثمن فى صورة فائدة أو ربح يتعين أن يدفع لإقناع الناس ومن بينهم رجل الأعمال/الرأسمالى بالامتناع عن الاستهلاك الجارى، ومن هذا الامتناع عن الاستهلاك الجارى تأتى القوة الشرائية اللازمة لامتلاك المصانع أو الآلات أو المعدات أو امتلاك السلع التى فى طور البيع أو فى انتظاره، أو لأى عملية صناعية أو تجارية بصفة عامة. إن الامتناع عن الاستمتاع المتاح - كما نوه سينيور - أو السعى إلى تحقيق نتائج بعيدة بدلا من النتائج القريبة، هى عملية تضحية بالحاضر المؤكد من أجل مستقبل مجهول، لذلك تعتبر من أشد الأمور صعوبة على الإرادة البشرية.

من المنطلق السابق ظهرت نظرية العائد على رأس المال، فتكلفة القدرة على الامتناع عن الاستهلاك مع تكلفة العمل، تشكلان تكلفة إنتاج السلعة، ويحدث التوازن حول هذه التكلفة بواسطة المناورة بزيادة الإنتاج أو تخفيضه. كان هذا التفسير للأسعار والعائد على رأس المال بعيدًا عن الواقع، فلم يكن الرأسماليون يمتنعون عن الاستهلاك من أجل توفير رأس المال. فى القرن التاسع عشر تم أيضًا تصحيح خطأ آخر، بتحويل الاهتمام من التكلفة والعرض بوصفهما عاملين يحددان السعر، إلى الرغبة والطلب بوصفهما عاملين يحددان ليس السعر فقط وإنما أيضًا ما يسمى بعوامل الإنتاج. قبل نهاية هذا القرن ظهر مفهوم (المنفعة الحدية) والذى غطى على مصطلح (المنفعة العامة). تذهب المنفعة الحدية إلى: ليس ما يعطى القيمة هو الإشباع الكلى المستمد من حيازة واستعمال أحد المنتجات أو أحد الخدمات، بل هو الإشباع/الاستمتاع/المنفعة الذى تحققه الإضافة الأخيرة التى يحصل عليها الفرد من ذلك الاستهلاك، والذى تكون الرغبة فيه عند أدنى مستوياتها، إن الرشفة

الأخيرة فى كوب الماء الذى نشربه فى حالة الظمأ له قيمة / اشتياق أقل بكثير من الرشفة الأولى.

إن حدية المنفعة كانت الخطوة الأولى على الطريق نحو صياغة أخرى ونهائية، فالحدية لا ترتبط فقط بالمنفعة والطلب، وإنما ترتبط بالعرض أيضًا، ذلك أن السلع تنتج عند مستويات مختلفة من التكاليف. وكان ما سبق أن أوضحه ريكاردو فيما يتعلق بالأرض، فالإنتاج الزراعى مع تزايده يمتد إلى الأرض الأقل خصوبة، وبالتالى تزداد مدخلات العمل أو التكلفة لوحدة الإنتاج، ولكن هناك أيضًا وضع مناظر فى الصناعة، فالمؤسسات المختلفة ذات الأوضاع أو ذات الكفاءة المختلفة تنتج الإنتاج نفسه بتكلفة مختلفة، كما أن المنشأة الواحدة تتحمل تكلفة متزايدة فى سعيها لاستخلاص المزيد من معداتها وقوة العمل لديها. وعلى ذلك ففى الصناعة كما فى الزراعة، يوجد قانون بالغ الأهمية هو "قانون الغلة المتناقصة" والذى يعنى التكلفة المتزايدة، وكما أن الجدوى تستقر مع المنفعة عندما تصل إلى الحد Margin، كذلك الأمر مع التكلفة عندما تصل إلى الحد. يأتى انخفاض الاستعداد الجماعى للدفع من تناقص المنفعة الحدية للمشترين، ومن ثم نشأ منحنى الطلب الذى ينحدر نزوليا بصفة دائمة، أى ضرورة انخفاض الأسعار باستمرار حتى يمكن أن تخرج من السوق الإمدادات المتزايدة من السلع. ومن التكاليف الحدية المتصاعدة للمنتجين، والتكاليف الأعلى للمنتجين الأقل كفاءة، تأتى التكاليف المتصاعدة للإمدادات الإضافية، وكلما زاد ما يطلب زاد ما ينبغى دفعه. ومن هنا يكون منحنى العرض صاعدًا، فالأسعار التى ترتفع باستمرار تلزم لتغطية التكاليف الحدية واجتذاب الإمدادات المتزايدة إلى السوق. وعند نقطة التقاء المنحنيين يكون الإنجاز الأعلى مرتبة، وهو الثمن اللازم لحفز العرض، ويكون ذلك متوافقًا مع السعر الذى تقرره أقل الاحتياجات إلحاحًا. من هذا المفهوم تواجدت العبارة الشهيرة فى الاقتصاد وهى: (قانون العرض والطلب Supply and Demand Law).

فى بدايات القرن العشرين، اتجهت الأسعار - فى بلاد الاقتصاد الحر - إلى التوافق مع التكاليف الحدية، واتجهت التكاليف بما فيها تكاليف الأيدى العاملة إلى الانخفاض بالقدر اللازم لضمان تشغيل المتاح من المصانع والمواد والعمال. كانت تعاليم ألفريد مارشال أستاذ الاقتصاد بجامعة كمبريدج البريطانية - هى السائدة من خلال كتابه "مبادئ علم الاقتصاد". ظهر مفهوم آخر للاحتكار من خلال الأبحاث التى قام بها كل من إدوارد تشمبرلين من جامعة هارفارد الأمريكية، وجوان روبنصون من جامعة كمبريدج البريطانية، واللذان توصلا إلى الفكرة: (إنه فيما بين الحالة العامة للمنافسة الكلاسيكية حيث لا يستطيع منتج واحد أن يؤثر فى الأسعار أو يتحكم فيها، وبين الحالة الاستثنائية للاحتكار، التى يستطيع فيها بائع واحد أن يحدد أسعاره لتحقيق أكبر عائد ممكن، توجد مجموعة كبيرة من الاحتمالات الوسيطة. قد تكون لدى البائع ماركة مميزة ليس لها بديل مطابق، وهذا يعطيه قدرة محدودة - وقد تكون ضئيلة - على التحكم فى أسعاره، وقد يكون لموقع نشاطه أو ربما لتميز شخصيته أثر فى تميز المنتج الذى تقدمه أو الخدمة التى يؤديها، مما يتيح له قدراً من القدرة على تحديد سعر أعلى من المفروض تحديده. يعتبر ما سبق منافسة احتكارية، وهى حالة انتقالية بين المنافسة الخالصة والاحتكار تسمى احتكار القلة - Oligopoly). دخل هذا التعبير لغة الاقتصاد وتداول فى اقتصاديات بعض الصناعات مثل صناعة السيارات، وصناعات النفط والصلب والكيماويات، والتى يوجد فى كل منها عدد قليل من الشركات العملاقة والتى لها اسم تجارى معروف ومنتشر ويمكن من خلال تميزها رفع أسعار منتجاتها.

قام الاقتصادى واسيلى ليونتيف من جامعة هارفارد فى ثلاثينيات القرن العشرين بتطوير الجداول الاقتصادية، أو ما يسمى بجداول المدخلات / المخرجات Input/Output Tables، وهى جداول شاملة لجميع عناصر الإنتاج فى اقتصاد الدولة لتوضيح ما تتسلمه كل صناعة من الصناعات الأخرى وما

تبعه لها، ومن ثم تبين تدفق الدخل داخل النظام الاقتصادى وآثار هذا التدفق، تبين هذه الجداول أيضًا تأثير زيادة أو نقص وحدة منتج على الاقتصاد القومى ككل، حيث يؤثر التغير فى كمية إنتاج هذا المنتج على كثير من المدخلات (المنتجات) الأخرى للاقتصاد. من إجمالى عناصر الإنتاج يمكن حساب الإنتاج القومى للاقتصاد، أو ما يسمى: إجمالى الناتج القومى Gross Domestic Product.

لم يوجد فى الاقتصاد - حتى حدوث الكساد الكبير - نظرية تحلل وتفسر أسباب حدوث الكساد، ولكن كان هناك بعض الدراسات عن الدورات الاقتصادية، والتى خلصت إلى أن كل دورة تسبقها سلسلة فريدة من الأحداث التى لا يمكن تعميمها، ولا يمكن التخطيط لمنعها أو علاجها. عندما حدث الكساد العالمى الكبير، خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، بعد انهيار بورصة الأوراق المالية فى أكتوبر ١٩٢٩، كان موقف الاقتصاديين الكلاسيكيين هو التزام الصمت. كتب جالبريث فى المرجع السابق عن هذه الفترة: (بسبب ضغط الأحداث على الأفكار الاقتصادية، والضغط الهائل للكساد الكبير، كانت حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين - هى الحقبة التى شهدت أكبر التجديدات، ولا سيما فى الولايات المتحدة. كان هناك تصد مباشر للانخفاض فى أسعار المنتجات الصناعية والزراعية، وتم توفير فرص العمل فى مجالات الإغاثة والأشغال العامة، وفى عام ١٩٣٥ جاء تعويض البطالة وتأمين الشيخوخة. ولكن بقى مع ذلك الفشل الذريع للنظام برمته. وفى عام ١٩٣٦، وبعد قدر ضئيل من الانتعاش المؤقت للغاية، كانت النفقات الشخصية منخفضة، وكان ١٧ فى المائة من قوى العمل الأمريكية ما زالت تعانى البطالة. وشهد عام ١٩٣٧ هبوطاً حاداً آخر. ونظراً لأنه كان هناك كساد بالفعل، تطلب الأمر البحث عن اسم جديد فسمى تراجعا. وكان التراجع كسادا داخل كساد ولم يكن باستطاعة الأرثوذكسية الكلاسيكية أن تجيب عن شىء من ذلك. فهى ترى أن الاقتصاد يحقق توازنه فى ظل العمالة

الكاملة. ومن العمالة الكاملة يأتى تدفق الطلب الذى يوازر التوازن - "قانون ساى" - وحالات القصور المؤقت ممكنة، بل مقبولة ولكن لا يمكن قبول شىء يستمر، كما كان الوضع بحلول عام ١٩٣٦، فهو سنوات ست عجاف كاملة بلا نهاية. ومنذ قرن مضى كان توماس روبرت مالتس قد رأى ذلك بالنسبة لإجمالى إفراط الإنتاج على أنه المقابل فى الطلب. وقد نظر إليه فى هذا الصدد على أنه ربما يأخذ بمنطق "خالف تعرف"، وعلى أنه مخطئ بغير شك. وظلت الحقيقة المقبولة إلى جانب ساى ودافيد ريكاردو، ورفض ما كان الجميع يسمونه أكذوبة وقصور الاستهلاك، أو نقص الطلب. وإذا كان نقص الطلب لا يمكن أن يحدث، فمن الواضح أنه لا يمكن أن تكون هناك حاجة إلى إجراء حكومى لتعزيز الطلب. وإلى جانب أنه غير ضرورى، فإنه ينتهك قواعد المالية العامة السليمة. والحكومة مثل الأسرة، تعيش فى إطار إمكاناتها أو ينبغى لها ذلك وربما كان ممكنًا فى الحقيقة خفض أسعار الفائدة بموجب إجراء من بنك مركزى، ولكن بحلول منتصف الثلاثينيات كانت هذه الأسعار قد هبطت بالفعل إلى ما يقرب من مستوياتها الاسمية، ولم يعد فى الوسع مواصلة تشجيع الاقتراض والاستثمار بالضغط على هذا الوتر. ومن هذه الظروف - وليس فى الوسع رؤية مدى قوتها إلا على ضوئها - جاءت بتأثير هائل أعمال الاقتصادى البريطانى جون ماينادر كينز ١٨٨٣ - ١٩٤٦. وكانت الأساسيات التى دعا إليها بسيطة ومعدة بوضوح لإطلاق سياسة مكافحة الكساد من عقالها الكلاسيكى. وقد رأى كينز أن الاقتصاد الحديث لا يجد بالضرورة توازنه فى العمالة الكاملة، بل يستطيع أن يجد هذا التوازن فى وجود البطالة - ما يسمى "توازن العمالة الناقصة" - وأن "قانون ساى" لم يعد ساريًا، إذ يمكن أن يكون هناك عجز فى الطلب. ولذلك فإن الحكومة تستطيع وينبغى لها أن تتخذ خطوات للتغلب على هذا الوضع. أما فى حالة الكساد فإن قواعد المالية العامة السليمة يجب أن تستجيب لهذه الضرورة. وكان توازن العمالة الناقصة، والتخلى عن "قانون ساى"، ودعوة الحكومة للإنفاق غير المغطى بالإيرادات من أجل دعم الطلب - هو جوهر

النظام الكينزى، كما كان ذلك ما أصبح يسمى، مع بعض التعديلات غير الضارة، "الثورة الكينزية" .... وكان أقل ما يسترعى النظر فى هذه الثورة هو عدد الأشخاص الذين توقعوها. فقد كان هناك كينزيون قبل كينز بزمن طويل، منهم أدولف هتلر، الذى لم يكن تقيده أى نظرية اقتصادية، وشرع فى تنفيذ برنامج واسع النطاق للأشغال العامة عندما تقلد السلطة فى عام ١٩٣٣، وكان أوضح مظاهره هو مشروع إنشاء الطرق السريعة. وبعد فترة من الزمن تبع الإنفاق على الأشغال المدنية الإنفاق على الأسلحة. وكان النازيون أيضًا غير مبالين بالقيود على الإيرادات الضريبية، فقد كانوا يسلمون بفكرة التمويل بالعجز. وخرج الاقتصاد الألمانى من الركود المدمر الذى كان يعانيه فى السابق. وبحلول عام ١٩٣٦ كان قد قضى تقريبًا على البطالة، وهو ما كان له أثر كبير فى وصول هتلر إلى السلطة). كانت المسألة الرئيسية عند كينز هى كيف يتحدد مستوى الناتج والعمالة، فعندما يزيد الناتج والعمالة والدخل، يقل ما يستهلك من الزيادات الإضافية للدخل، أى تناقص الميل الحدى للاستهلاك وتزايد الادخار. كانت آراء كينز بديلا للبطالة والبؤس، كما كانت أيضًا بديلا لآراء ماركس الشيوعية.

كان من نتائج الحرب العالمية الثانية، دفع الاقتصاديين إلى مواقع القوة وأخذ القرار فى الولايات المتحدة الأمريكية. لقد قضت الحرب على البطالة التى تسبب فيها كساد الثلاثينيات، وتم تحقيق العمالة الكاملة من خلال توفير الاستثمار وزيادة الإنفاق. كان من العوامل التى عززت الإنفاق المحلى وفود قوة شرائية من الخارج، ذلك أن الولايات المتحدة لكونها قد نجت من التدمير، فإن ميزانها التجارى كان موجبًا، بمعنى أن الأجانب كان ينفقون على المنتجات والعمالة الأمريكية أكثر مما ينفق الأمريكيون فى الخارج.

شهدت بدايات النصف الثانى من القرن العشرين ازدهار الصياغات الرياضية للعلاقات الاقتصادية، مثل علاقة التكاليف بالأسعار، وعلاقة الدخل بالطلب، وأصبح لصياغة هذه العلاقات فرع جديد فى الاقتصاد

Econometrics. وباختراع الحاسبات الآلية وتطورها، حدث تقدم فى تخزين البيانات وتقنيات تجهيزها، ونشأ أيضاً فرع جديد فى الاقتصاد يسمى بالاقتصاد القياسى. حاول كوزنتشى وليونتيف - بمساعدة نماذج الحاسب الآلى - تحديد الآثار التى تنتشر على نطاق واسع لكل التغيرات الكبيرة فى النظام الاقتصادى، مثل: التغيرات فى الإنفاق العام، الضرائب، أسعار الفائدة الأجور، الأرباح، الإنتاج الصناعى لمختلف الصناعات والكثير غير ذلك، ودراسة تأثيرها فى ارتباطاتها المتنوعة بالتغيرات الأخرى على باقى العناصر الاقتصادية. لم يصبح التنبؤ Predicition / Forecasting ظاهرة اقتصادية موضع تقدير إلا بعد أن وضعت النماذج الكاملة للاقتصاد القياسى.

يعتبر تحليل الدالة الزمنية Time Series Analysis من أهم أساليب التنبؤ للنشاط الاقتصادى. يمكن تمثيل سلوك ظاهرة ما على مدى زمن معين بأكثر من متغير من خلال نموذج رياضى بسيط أو مركب. بامتداد محور الزمن ليشمل المستقبل المراد التنبؤ به يمكن توقع ما ستكون عليه هذه الظاهرة فى المستقبل بدرجة من القدة والثقة فى هذا التوقع، والذى يتراوح احتمالها من بعد الصفر إلى أقل من ١٠٠٪ . إن الدالة الزمنية بصفتها العمومية هى مزيج من أربع مكونات وهى:

- الاتجاه العام Trend أو اتجاه التغير طويل المدى، لأعلى أو لأسفل أو فى اتجاه الثبوت. تستخدم النماذج الرياضية فى تمثيل منحنيات الاتجاه العام مثل الارتباط النمطى Linear Regression، والارتباط المتعدد Multiple Regression، أو الدالة الإسية Exponential Function أو غيرها من الدوال.
- التغيرات الموسمية Seasonal Component، ويعنى بمدة الموسم يوم أو شهر أو جزء من السنة، أو سنة كاملة.
- التغيرات الدورية Cyclical Component، والتى لها صفة التكرار، القريبة من التماثل حول خط أو منحنى الاتجاه العام.

* التأثير العشوائى Random/Irregular Residual غير المنتظم والذى يتبع التوزيع الاحتمالى، مثل التوزيع الطبيعى Normal Distribution.

انتشرت الدراسات التنبؤية خاصة فى الاقتصاد، ودأب الاقتصاد الرياضى بتحليل والتنبؤ بزيادة الناتج الإجمالى Gross National Product-GNP ، وتوقعات التغير فى الأسعار، والتغير فى العمالة/البطالة، والآفاق المنتظرة لصناعات معينة. وفى الوقت ذاته يستمر التطوير والتحسين فى النماذج الرياضية المستخدمة فى دراسات التنبؤ من أجل مزيد من الدقة. لقد أصبح التنبوء عاملا أساسيًا فى صناعة دعم اتخاذ القرار للاقتصاديين والسياسيين، فوضع الخطط يلزمها دائمًا وأساسًا دراسات مستقبلية مبنية على بيانات تاريخية، واستراتيجية مستقبلية ونماذج رياضية تقوم بالعمل التحليلى لاستخراج نتائج تدعم اتخاذ القرار.

لم يكن التضخم Inflation أى زيادة الأسعار يسبب أى مشاكل على الجانب الاقتصادى أو الاجتماعى حتى منتصف الستينيات من القرن العشرين. وبدأت معدلات التضخم فى الزيادة حتى حدثت الصدمة الكبرى فى نهاية عام ١٩٧٣ نتيجة الزيادة الكبيرة فى أسعار النفط والتى حددتها (منظمة البلدان المصدرة للنفط - الأوبك)، كاتفاق احتكارى طبقته الدول المصدرة للنفط على الدول الصناعية. فى الفترة بين ١٩٧٢، ١٩٨١ قفز الرقم القياسى للوقود فى الولايات المتحدة إلى ستة أمثاله مما سبب كسادًا فى الدول الصناعية. استمر التضخم فى الارتفاع وظهر اصطلاح اقتصادى جديد وهو (الكساد التضخمى Stagflation) لوصف اقتصاد راكد مرتبط باستمرار التضخم. استخدمت السياسات النقدية Monetary Policies للتغلب على الكساد التضخمى، من خلال رفع أسعار الفائدة، وذلك لتحجيم الإقراض المصرفى مع زيادة الادخار الناتج عن تقييد النفقات الاستهلاكية والاستثمارية. أدت هذه السياسة إلى تخفيض الإنتاج وتعطل المصانع وإفلاس كثير من الشركات، بل أيضًا لأن تتفاوض مع أصحاب العمل على تخفيضات فى

الأجور والمزايا، مع تجاهل - إلى حد ما - الشكاوى والمشاق التى يعانيها العمال العاطلون.

أعقب الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة الأمريكية نشاط صناعى سريع، فقد كانت سياسة عدم التدخل الحكومى فى الأنشطة الاقتصادية لها أثر ملموس فى هذا التطور فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. بدأ الرأسماليين فى الاستثمار فى مجال البترول وفى صناعة الصلب والصناعات الأخرى، مشكلين تكتلات احتكارية. فى عام ١٨٩٠ وجد الكونجرس الأمريكى أنه من الضرورى سن قوانين ضد عملية الاحتكار Antitrust Legislation لحماية الشعب من الاستغلال. أدت المشاكل الاقتصادية الناتجة عن الكساد الذى عم البلاد فى عام ١٩٠٧، وفى عامى ٢١ / ١٩٢٠، وفى عام ١٩٣٠، ومن المشاركة فى حربين عالميتين، إلى انحراف الولايات المتحدة عن السياسة الرأسمالية الصرفة لعدم التدخل الحكومى فى النشاط الاقتصادى وفى مجال العمل والأعمال، فتكونت جراء ذلك النقابات القوية التى نادت بحماية طبقة العمال من استغلال أصحاب العمل. بدأت الحكومات فى الولايات المتحدة بالتحكم النسبى، والتدخل التنظيمى فى سير الاقتصاد، والتغلب على آثار كساد الثلاثينيات. بالرغم من ذلك فما زال التدخل الحكومى فى القطاع الاقتصادى الأمريكى محدوداً، وما زال التنافس فى مجال الأعمال نشيطًا وقويًا، لذلك يعتبر اقتصاد الولايات المتحدة رائدًا فى المذهب الرأسمالى، ولكن لا يعتبر رأسماليًا صرفًا حيث إن الرأسمالية الصرفة - نظريا - تحرم أى قيود أيا كان نوعها، أو أى تدخل فى الاقتصاد، أو تكوين نقابات عمالية تتدخل فى نظم العمل أو العمالة أو تطالب بتنظيم أو تحديد ساعات العمل، أو تساوم أصحاب العمل فى الحد الأدنى للأجور، لذا لا تعتبر الرأسمالية التامة بصورتها النظرية مطبقة حتى الآن.

الشيوعية Communism

يطلق هذا المصطلح بشكله العام على النظرية الاشتراكية أو النظام الاشتراكى القائم على شيوع الملكية، أما المعنى بشكله السياسى فهو نظام مضاد للنظام الرأسمالى. ينشأ النظام الشيوعى على تملك المجتمع لجميع الموارد، والسلع والبضائع المتجة، وجميع الأنشطة الحياتية، كما يقوم بالتظيم والسيطرة والتوجيه. إن القاعدة العامة للإنتاج، وتوزيع ما يملكه المجموع فى هذا النظام هو: (من حسب قدرة الفرد إلى حسب احتياجاته)، (From each according to his capacity, to each according to his needs). تختلف الشيوعية عن النظام الاشتراكى الذى يتم فيه تأميم وسائل الإنتاج الرئيسية بالتدريج، وتنظم فيه توزيع السلع والبضائع الأساسية من مبدأ مكافأة كل فرد منتج ومجد فى عمله.

تاريخيًا، بدأت المنظومة البشرية بانتهاج المذهب الشيوعى، فقد كانت الغابات بثمارها وخشبها، والأرض بزرعها وحيواناتها، والبحار والمحيطات والأنهار بمياهها وأسماكها وجميع ما تحويه ملكًا للجميع. لم يعرف الإنسان الأول الملكية الفردية إلا من خلال أدواته البدائية، فكل شىء متاح للجميع. قد يتصارع الإنسان - لحظيًا - مع حيوان أو قرينه من بنى البشر من أجل طعام أو ماء أو أنثى يشبع بها غرائزه، ولكن لم يتطلع إلى الامتلاك والحيازة. لم يتعرف الإنسان على الملكية إلا بعد ما عرف الزراعة واستقر فى مكان ثابت يبذر البذور وينتظر أيام أو شهور لحصاد نتاج كده ومجهوده، يصارع الآخر الذى قد يطمع فى السطو على محصول تعب الزمان، أو يألمه الجوع فيغير على الآخر، أو قد يكون من نوعية البشر الفاسدة بالطبيعة البشرية الشريرة التى تسطو لمجرد الصراع والقتال وإثبات الذات. وتحرك الزمان عبر عشرات الآلاف من السنين لتحول شيوعية الإنسان البدائى القديم إلى نظرية تسمى بالشيوعية Communism والتى اشتقت من كلمة Commune بمعنى عامة الشعب.

تأرجح الإنسان بين الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية كنظم اقتصادية/ اجتماعية، حتى قامت أول ثورة شيوعية بواسطة الفرنسى الثائر فرنسوا بابيوف Babeuf فى نهاية القرن الثامن عشر. آمن بابيوف - قبل إعدامه بالمقصلة - بأن الثورة الفرنسية سيتبعها ثورة أخرى ستقوم بعتق العبيد وتحرير الطبقة العاملة Proletarians. قام الثائر الشيوعى أوجستين بلانكى Blanqui فى الأعوام من ١٨٣٦ إلى ١٨٣٩ بنشر أفكار بابيوف سراً فى المجتمع الباريسى. حث بلانكى عمال فرنسا لتنظيم عصيان مسلح وإقامة تنظيم ديكتاتورى لإعادة تنظيم الحكم فى فرنسا بحيث يقوم على الجمهورية الشيوعية.

كان الفيلسوف الألمانى اليهودى كارل ماركس والمفكر الاشتراكى المؤثر فردريك أنجلز هما مؤسسا النظرية الشيوعية الحديثة كما رد فى البيان الرسمى الشيوعى The Communist Manifesto عام ١٨٤٨، وفى كتابات ماركس اللاحقة، وكتابه الشهير "رأس المال" والذى صدر عام ١٨٦٧ . تولى ماركس وأنجلز تعديل الأفكار السائدة فى ذلك الوقت عن المادية الهيجلية Hegelian Materialism من منظور التطور التاريخى كعملية جدلية Dialectical Process تحول الفرضية/الأطروحة Thesis من خلال نقيضها إلى الجمعية Synthesis، أى الجمع ما بين الفرضية ونقيضها. كمثال لذلك: تحول المجتمع الرأسمالى إلى نقيضه من مجتمع تسيطر عليه الطبقة العاملة، التى تقوم بدورها - مجتمع الطبقة العاملة - بتعويض نظامها وتحويله إلى مجتمع شيوعى. مزج ماركس وأنجلز المادية الهيجلية، مع نظرية دافيد ريكاردو عن "قيمة العمل"، مع ما جاء فى اليوتوبيا Utopia الفرنسية الاشتراكية من نقد للرأسمالية، مع الأفكار الثورية للثائر الاشتراكى الفرنسى بلانكى، وذلك لصياغة النظرية الشيوعية التجميعية والتى جاءت فى "البيان الشيوعى"، كنظرية عامة عن "التطور التاريخى" وكنظرية خاصة عن "تطور الرأسمالية".

طبقًا للنظرية العامة لماركس فإن جميع التغيرات التاريخية قد حدثت - بصفة جوهرية - من جراء تغير العلاقات المتصلة بالإنتاج، والمتسبب فيها التغير فى الظروف الفنية للإنتاج. لقد حدث بالطبع تطور فى إنتاج السلع والبضائع نتيجة لتحويل النظام الاقتصادى - للمنظومة البشرية - من الرق إلى عبودية الأرض Serfdom، ثم إلى نظام رأسمالى وحرية العمل، ولكن أيضًا - وطبقًا للنظريات الاقتصادية - فإن لكل نظام اقتصادى طبقة مستغلة تملك وتتحكم فى كل وسائل الإنتاج. كمثال لهذه الطبقات المستغلة: فراعنة مصر من حكام وبطانة، وحضارات ما بين النهرين وحضارات الشرق الأدنى، الطبقة البرجوازية فى أوروبا العصور الوسطى/طبقة أصحاب المصانع والتجار فى عصر أوروبا الصناعية. وهكذا فإن التاريخ - وفقًا لآراء ماركس وانجلز - ما هو إلا صراع طبقى بين العمال، والطبقة المستغلة لهم.

إن الرأسمالية طبقًا للنظرية الشيوعية الماركسية تستغل العمال من خلال الاستيلاء على فائض القيمة Surplus Value، أى الفرق بين قيمة العمل المنجز أو السلعة المنتجة وبين الأجور التى يدفعها رب العمل إلى العمال. تدين الشيوعية الماركسية استغلال الرأسمالية للعمال، فهى تدفع العمال لزيادة القوة الإنتاجية لصالح المجتمع، ولكن فى نفس الوقت تحكم عليهم بالعيش فى بؤس وشقاء. إن هذا التناقض الواضح - من وجهة نظر الشيوعية - يمكن القضاء عليه من خلال تطبيق النظرية الشيوعية التى تدفع للعامل ناتج عمله ومجهوده بالعدل والحق. إن تركيز الصناعة فى أيدى فئة قليلة تقضى على الطبقة المتوسطة بدمجها فى طبقة العمال، وإدخال العمال والموظفين فى صراع حاد وعنيف. فالاقتصاد الرأسمالى - من وجهة نظر الشيوعية - غالبًا ما يمر بدورات من الأزمات والكساد التى تحول المصانع إلى قوى عاطلة بالرغم من احتياج المجتمع إلى منتجاتها المصنعة. إن النتيجة الحتمية للتطور التاريخى - من وجهة نظر ماركس وانجلز - هى وصول الإنتاج إلى مرحلة من الممكن فيها أن تشبع الرغبات والاحتياجات المادية للمجتمع، بشرط أن

يقوم العمال بتنظيم وإنشاء حزب سياسى قائم على ديكتاتورية طبقة العمال والكادحين Dictatorship of the proletariat، والذى يقضى على الرأسمالية ويستبدل بها نظامًا اشتراكيًا قائمًا على الملكية الجماعية للأرض ورأس المال. وغيرها من وسائل الإنتاج Collective Ownership.

فسر ماركس وانجلز فى كتاباتهما اللاحقة شكل المجتمع الشيوعى المثالى، بأنه النظام القائم على ملكية المجتمع الذى يكون فيه الإنتاج وفقا لاتحاد تطوعى للعمال، وأن يكون التوزيع طبقا للاحتياجات، وعلى ان تكف الدولة عن دورها كأداة للقوة القهرية والإكراه، وتنزوى عن واجبها فى فرض النظام والحكم، وأن يعيش الأفراد فى حرية وتناغم مع المجتمع. اعتقد ماركس وانجلز أنه من الممكن قيام ثورات سلمية فى بعض الدول مثل إنجلترا والولايات المتحدة للمطالبة بتطبيق النظام الشيوعى، وقد استخدما المصطلح (شيوعية Communism) للتميز ما بين برنامجهما، والبرنامج الاشتراكى والذى كان يسمى فى عام ١٨٤٠ "إعادة تشكيل النظام الاقتصادى والاجتماعى". توقف استخدام هذا المصطلح - الشيوعية - ما بين عام ١٨٧٥ وعام ١٩١٧، ولكن فى عام ١٩١٩ أعاد البلاشفة الروس استخدام المذهب الشيوعى تحت اسم الاشتراكية العلمية Scientific Socialism. لقد استطاع الحزب الديمقراطى الاجتماعى الروسى "البلشفى" فى الأعوام (١٩١٧ - ١٩٢٠) بقيادة لينين الإطاحة بالنظام الرأسمالى فى روسيا، واستولى الحزب على السلطة عن طريق الثورة الدموية التى اجتاحت روسيا فى تلك الأعوام، وتحويل نظام الحكم فى روسيا إلى الشيوعية.

عدد أستاذ الاقتصاد الأمريكى جون جالبريت فى كتابه "تاريخ الفكر الاقتصادى - الماضى صورة الحاضر" - نقاط ضعف الرأسمالية من وجهة نظر كارل ماركس: (لم يشكك ماركس قط فى إنجازات النظام فى مجال الإنتاج. بل إنه أشاد بهذه الإنجازات إشادة تامة فى قوله: لقد خلقت خلال سيطرتها، التى لم تكن تتجاوز مائة عام، من قوى الإنتاج قدرًا أكبر وأضخم

مما خلقته كل الأجيال السابقة مجتمعة. وكإنجاز فرعى خلقت مدنًا هائلة، وزادت سكان الحضر زيادة كبيرة بالقياس إلى سكان الريف، وبذلك أنقذت نسبة كبيرة من السكان من بلاهة الحياة الريفية... إن الأسعار الرخيصة لسلعها هى المدفعية الثقيلة التى تهدم كل أسوار الصين. كما أنه - ماركس - نبه العمال إلى أن أول هدف لانتباههم الثورى لا ينبغى أن يكون كبار الرأسماليين الذين هم مصدر هذه القدرة الإنتاجية، وإنما هو بالأحرى: "بقايا الحكم الملكى المطلق، وملاك الأراضى، والبورجوازيين غير الصناعيين، والبورجوازية الصغيرة". فهم أعداء السلطة الرأسمالية والإنجازات الرأسمالية. لقد كان جزءًا من عبقرية ماركس أنه وجه أسلحته فى المقام الأول ليس إلى جوانب القوة، بل إلى جوانب الضعف. لقد كانت نقاط الضعف فى النظام الرأسمالى وفى تفسيره، كما رآها هى أولا، توزيع القوى، وهو موضوع تجاهله عمليا الاقتصاديون الكلاسيكيون وفى كل مكان تقريبًا. ثانيًا، الفروق الهائلة فى توزيع الدخل، وهو موضوع فسره التراث الكلاسيكى، ولكنه لم يجد له فى أى وقت تبريرًا قويًا. ثالثًا، أن النظام الاقتصادى معرض للأزمات والبطالة - أى بالتعبير الحديث معرض للكساد - وهو أمر إذا سلم به الاقتصاديون الكلاسيكيون، فإنهم لم يدخلوه فى نطاق نظرياتهم. وقد كان الاتجاه فى الاقتصاد، كما يراه الكلاسيكيون، هو تحقيق الاستخدام الكامل لموارده الإنتاجية، بما فى ذلك ما يتوافر له من أيد عاملة راغبة فى العمل ساعية إليه، وأن آخر هؤلاء العمال الراغبين فى العمل هو الذى يحدد الأجر. وأخيرًا، هناك الاحتكار، وهو عيب سلم به التراث الكلاسيكى. ولكن ماركس رأى أنه ليس ظاهرة منعزلة، إنما هو انعكاس لاتجاه أساسى، وهو اتجاه سيكون حاسمًا فى المصير النهائى للرأسمالية). لم يطرأ فى ذهن ماركس بما قد يجىء به المستقبل، فالرأسمالية النظرية قد تغيرت، واستسلم الرأسمالى العدوانى المتشدد لتنظيم أقل جمودًا وأكثر ميلا للتوافق، وسلم أمره لبيروقراطية الشركات، وبذلك تكون السلطة المتحكمة ليست سلطة الرأسمالية، بل سلطة التكنوقراطى والقائم بالإدارة والتنظيم.

يعتبر بعض المفكرين أن المذهب الشيوعى ما هو إلا شكل من أشكال التكتل المركزى Corporatism أو كما كتب لين جودمان فى كتاب "مستقبل الفلسفة فى القرن الواحد والعشرين" عن المذهب الشيوعى وارتباطه بالتكتل المركزى: (كلما انحسرت الفردية أو خفت وميضها، وكلما استمر مبدأ القبضة الخفية فى خسارة المناصرين له، فبإمكاننا أن نتوقع أن يكتسب فكر التكتل المركزى مزيدًا من الأرض وأن يغدو صوته قويًا ومؤثرًا. والخطر الذى يحمله الآن، كما كان فى الماضى، هو المخاطرة بحجب حقوق الفرد أو حتى إخفاء هويته خلف مطالب الجماعة التى تدعى أنها تتكلم بالنيابة عنه وعن نفسها... كانت الشيوعية إذًا تنويعة من التكتل المركزى والمجموعة التى ادعت أنها تتحدث باسمها هى الطبقة العاملة، على الرغم من أن تشكيلها المفترض قد اتسع لأغراض سياسية، ليشمل الفلاحين المطحونين من شتى الأمم ومن كافة البشر المحبين للسلام - حتى هؤلاء تشكلت حياتهم وفقًا للسلاسل والخطوط القبلية، ولم يعرفوا شيئًا عن ديكتاتورية البروليتاريا... إن خلق نوع من البيروقراطية المجردة لتراقب أو تشرف على رأس المال المملوك ملكية مشتركة من الناحية النظرية، يظهر على شكل وسائل بغيضة للتحايل على نقل الملكية التى حللها ماركس فى البداية على أنها نتيجة حتمية لتقسيم العمل. وفى الحقيقة لقد دحض هايك Hayeck بقوة - الطريق إلى العبودية/ صادر ١٩٤٤ - فكرة أن الاشتراكية بمعنى ملكية الدولة لأدوات الإنتاج تتلائم مع الديموقراطية، على أساس من اقتصاد الطلب Demand Economy قد يقطع دم الحياة عن الاستقلالية السياسية).

كتب جودمان فى نفس المرجع السابق عن سقوط الدولة الماركسية - اللينينية فى الكتلة السوفيتية كنتيجة للتغير الشعبى القوى المفاجئ الناجم عن فشل اقتصادياتها: (لقد ضحى بالحريات المدنية على مذبح الاقتصاد، وباسم المساواة. أما الرفاهية الاقتصادية المنتظر تحققها فقد ضحى بها هى الأخرى بدورها من أجل المخططات والطموحات العسكرية الضخمة والفساد السياسى

والحزب الإله الذى افترس أطفاله. كانت اقتصاديات السوق من جانبها تزدهر بعيدا عن طحن وجوه طبقة يزداد فقرها دومًا. إن المجتمعات المتنافسة Rival التى هدد خروشوف بدفنها فى المنافسة الاقتصادية السلمية لم تستسلم - أو لم تمت - كما تنبأ بذلك لينين. ولم تضح بالازدهار الاقتصادى من أجل الجماهير الساعية نحو الحريات المدنية التى نبذتها الأيدلوجيات الماركسية باعتبارها رفاهية برجوازية، وامتيازات للنخبة السياسية). إذا كانت الظروف المعيشية هى التى أدت إلى انتشار المذهب الشيوعى، فهى أيضًا التى أدت إلى إنهيار هذا المذهب فى الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية قبل نهاية الألفية الثانية.

الاشتراكية Socialism

الاشتراكية هى مذهب اقتصادى يناصر الملكية العامة، ويتحكم فى الوسائل الرئيسية للإنتاج. يسعى النظام الاشتراكى الى تحقيق قدر أكبر من المساواة والعدل، ونظام عالى الفكاءة لتوزيع السلع والمنتجات الرئيسية التى ترتبط بالإحتياجات الأساسية للمجتمع، كما يهدف الى تطبيق نظام اقتصادى أكثر تخطيطا عن مثيله فى النظام الرأسمالى. بالرغم من أن المذهب الإشتراكى يتعلق أساسًا بالاقتصاد إلا أنه يتشعب أيضًا فى مجالات عديدة مثل علم الاجتماع، والسياسة، والقيم وخلافه. لقد سادت الحركتين: الاشتراكية والقومية Nationalism - بمعنى التأكيد على ثقافة ومصالح جماعة ما - أيدلوجيات وسياسات دول العالم الثالث، المتطلع للحرية وكسر نير الاستعمار الأوروبى خاصة فى القرن العشرين.

ظهرت الاشتراكية الحديثة كمذهب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى فرنسا وإنجلترا كرد فعل للأحوال المعيشية التى تعرضت لها مجتمعات هذين البلدين نتيجة لانتشار الثورة الصناعية واستغلال العمال فى العمل لساعات طويلة، وظهور فروقات ملموسة فى تقسيم ثروات البلاد.

كَمُنَتْ ظاهرة الاشتراكية فى المجتمعات الأوروبية حتى نشوب الحرب العالمية الثانية، تتحرك داخل المجتمعات الفاشستية، والاتحاد السوفيتى، وبعض الدول الأوروبية التى كانت تطبق النظام الديموقراطى الاشتراكى، تغلغلت الاشتراكية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية خارج القارة الأوروبية، ثم تنوعت واختلفت أشكالها وصورها وفقًا لثقافة للمجتمع الذى تبناها وطبقها. تلازمت الاشتراكية مع حركات التحرير والاستقلال التى انتشرت فى الدول الآسيوية، وفى إفريقيا، ودول أمريكا اللاتينية، وأصبحت هى الأيدلوجية السائدة التى يشجعها ويدعمها الاتحاد السوفيتى، والدول الشيوعية الأخرى التى سارت فى فلكها فى الربع الثالث من القرن العشرين. أصبحت الاشتراكية هى الطريق إلى سياسة التصنيع المحلى والتأميم فى دول العالم الثالث بدون المرور على الرأسمالية كطريق تقليدى لتطبيق برامج التصنيع كما حدث فى الدول الأوروبية فى عصر الثورة الصناعية. فى ذلك الوقت أصبحت الاشتراكية نظام اقتصاديًا واجتماعيًا فى معظم دول العالم الثالث المتخلف اقتصاديًا، والمتطلع إلى التنمية والتطوير السريع.

نبعت جذور النظريات الاشتراكية من تطور الملكية الخاصة ومواصلة تطرفها، ومن عدم المساواة بين الأفراد، والفساد الأخلاقى، وانحلال الأوضاع الاجتماعية للمجتمعات الحضارية، ومن ثم فإن إلغاء الملكية الخاصة أو تحجيمها، وتقييد المظاهر غير المرغوب فيها، كانت من أساسيات مبادئ المذهب الاشتراكى. قامت برامج النظرية الاشتراكية على بحث الوصول إلى الطرق وإيجاد الوسائل لتحقيق الأهداف العامة لنشر المساواة، وإيجاد صيغ للتعاون الاشتراكى، وتنظيم الاقتصاد الفوضوى القائم على مزيج من: ملكية خاصة وتعاونيات وشركات قطاع أعمال، إلى اقتصاد قائم على التعاون بين المنتجين والمستهلكين لسيادة الإنتاج الوطنى، وتحويل برامج الرفاهية الاجتماعية المكفولة من الدولة State - Sponosered، إلى وحدات صغيرة مركزية ذات اكتفاء ذاتى Self Sufficient Local Communes أو ما تسمى

بالكيمونات المتنوعة للأنشطة الإنتاجية. لقد ناضل الاشتراكيون من أجل حصول العمال على نتاج أعمالهم من منظور أن العمل هو مصدر جميع الثروات، وأنه إذا كان الإنتاج هو عملية "مساعى جماعية" فى عملية التصنيع فإن ملكية وسائل الإنتاج يجب أن تكون أيضًا جماعية، وعليه يجب وضع ترتيبات ونظم اقتصادية لضمان تطبيق المبادئ الاشتراكية والتوزيع العادل للثروات. أكد الاشتراكيون على أن كل أشكال عدم المساواة هى عمليات زائفة وغير طبيعية، ويجب غض النظر عن مقومات التمييز من: الجنس كذكورة أو أنوثة، الطبقة الاجتماعية، الدين، العرق، امتلاك الثروة، الوظيفة، . . إلى آخره. إن عدم المساواة - من وجهة نظر الاشتراكين - هى المسئولة عن الفساد، والمنافسة الهدامة، والجريمة، والحسد الذى يؤدى إلى الصراع بين الطبقات المختلفة للمجتمع. أصر الاشتراكيون فى نظرياتهم الاشتراكية على أن كل أفراد المجتمع يجب أن يحصلوا على فرص متساوية فى الاستمتاع بثروات المجتمع ومزاياه الاجتماعية، للوصول فى النهاية إلى أن تكون احتياجات الفرد وفقًا لقدراته.

دخل الاشتراكيون فى مجادلات مع الأيدلوجيات الأخرى فى إرجاع الصراع التنافسى للحصول على الاحتياجات المادية والانحراف الاجتماعى والنفسى، لانتشار الملكية الخاصة التى انحرفت بالبشر عن طبيعتهم الحقيقية. بقبول الفروض بأن الإنسان بطبعه عقلانى واجتماعى وصالح، ذهب الاشتراكيون إلى أن مع تطبيق النظم الاشتراكية فى الإنتاج مع العدالة فى التوزيع، فسوف يتمكن البشر من العيش فى تناغم وسعادة ورخاء. ركز الاشتراكيون فى دعوتهم إلى الاشتراكية على أن من خلال طبيعة الإنسان المرنة للتغيير والتعديل، وبتأثير المناخ الاقتصادى الاشتراكى، وبالتعليم والتوجيه المخطط الرشيد، فبالإمكان إعادة تشكيل السلوك الإنسانى لما فيه خير وصالح للبشرية. أشار الاشتراكيون أيضًا إلى أن المذهب الرأسمالى القائم على الفردية القاسية يؤدى إلى إفساد طبيعة البشر الصالحة، أما من

خلال المضمون الاشتراكى ومن حقيقة طبيعة الإنسان التى تميل إلى الحياة الاجتماعية فسوف يحقق الفرد ذاته وشحذ كل قوته الفعالة من أجل خير وصالح الفرد والمجتمع. إن الحرية الفردية واهتمامات الإنسان الخاصة يجب أن تحترم، ولكنها أيضًا يجب أن تخضع إلى ما فيه صالح المجموع. وكبديل للحرية الفردية غير المقيدة فى المذهب الرأسمالى، فإن الاشتراكيين وصفوا شكلاً لحرية اشتراكية لها اتجاه فردى من خلال التنظيمات الجماعية، والقوانين الاشتراكية التى تحكم الاقتصاد وتنظم الحياة الاجتماعية.

اتسم المذهب الاشتراكى منذ قديم الزمن بالتفاؤل قبل الواقعية، ولأن النظريات الاشتراكية مقبولة وفى الإمكان تطبيقها فى كثير من المجتمعات، فإنها تجد رواجًا وانتشاراً بين كثير من البشر. توقع الاشتراكيون أنه سيجىء الوقت الذى ستعتنق فيه جميع المجتمعات البشرية المبادئ الاشتراكية، للقضاء على عدم المساواة والفقر والاحتكار والصراع، وحتى المرض والجهل يمكن كبح انتشارهما بواسطة القوانين الاشتراكية. فى المستقبل - الذى لم يتحقق حتى الآن - سيتم إشباع رغبات جميع البشر، وإمدادهم بالفرص المتساوية، وستعم السعادة والمحبة والسلام، والتعامل المتناغم والمتسامح بين جميع الناس. لقد كان حلم المدينة المثالية "يوتوبيا" هو أمل مفكرين عانوا من قسوة بداية الثورة الصناعية، من استغلال العمال، وعدم المساواة فى توزيع ناتج العمل. ومرت الأيام ولم يتحقق الحلم، ولكن ربما يجىء المستقبل الذى لا يخيب فيه ظن الاشتراكيين ويحين الوقت فى تطبيق نظريتهم المثالية.

إذا كان المذهب الليبرالى يمد الأيدلوجية الرأسمالية بالتبرير الكافى، فإن الاشتراكية كانت وما زالت تنتقد الحرية المفتوحة بدون قيود. بدأت الليبرالية الحديثة كمحاولة لتقييد السلطة الحاكمة المستبدة، وأيضًا من أجل ضمان الحرية الفردية. للوصول إلى هذا الهدف، كان على الليبرالية تأييد والدفاع عن التمسك بالمبادئ الدستورية والحكم وفقها Constitutionalism، وتطبيق القانون، والتأكيد على الحقوق الفردية النابعة من مبادئ نظرية القانون الطبيعى.

تفترض الليبرالية أن الإنسان عقلانى بالسليقة، وأنه إذا تحرر من القيود التحكمية الاستبدادية، فإنه سيتجه إلى الطوعية الاختيارية Voluntarism. إذا أسلمنا فرضًا بالتعارض بين الحكومة والحرية، فإن أفضل حكومة من وجهة نظر الليبرالية هى أقلها تحكمًا وتدخلا. إن المساواة، والتحكم من منطلق القبول والإجماع من المحكومين، والالتزام بحكم الضمير، وحرية وسائل الإعلام، وحرية الكلام بصفة عامة، وحرية المجالس النيابية، وقبول الفروق الفردية، وحرية الملكية الخاصة، كلها أمور تعد من الحقوق الأساسية للإنسان. لقد قامت ثورة ١٦٨٨ فى إنجلترا، وإعلان الاستقلال الأمريكى، والإعلان الفرنسى لحقوق الإنسان، كلها انبعثت من المذهب الليبرالى. بعد تطوير التجارة والصناعة فى العصور الحديثة، وبعد أن عانى جموع أفراد المجتمعات الأوروبية والأمريكية من صعود الطبقة الرأسمالية والأرستقراطية وحصولها على مزايا عينية ومادية، وكذلك تحرير الاقتصاد من التدخل الحكومى، بعد ذلك ومن هذا المنطلق أضيفت المطالبة بتطبيق نظام الفرص المتساوية إلى الحقوق الأساسية للإنسان. ذهب الاعتقاد فى المجتمع الغربى الحديث إلى أن السوق سيتطور ويتحسن من خلال السعى الفردى للثروة خارج نطاق تحكم الدولة، وأن حرية السوق وحدها هى التى ستنظم عملية العرض والطلب Supply / Demand. فى هذه المرحلة بدأت الاشتراكية فى الاعتراض والارتياب فى مقاصد الليبرالية غير المقيدة، وفى تفسيرات الرأسماليين لها، مطالبة بتنظيم العمل فى الصناعة والتجارة.

أشار الاشتراكيون إلى أن الحرية التى تسبب تكديسًا لا نهائيًا للثروات والممتلكات لا تؤدى إلى حرية واستقلالية السوق، ولكنها تؤدى إلى الاحتكار والاستغلال، وعدم المساواة للفرص المتاحة للمتعاملين فى سوق العمل. إن الرأسمالية غير المحكومة هى التى تؤدى إلى انهيار وتحطيم أساسيات السوق الحر من: حرية العمل، والفرص المتساوية فى الإنتاج وتبادل السلع، والأمان فى العمل. جادل الاشتراكيون مع أصحاب مذهب الرأسمالية غير المقيدة فى

أنه يوجد تناقض بين دفاع أصحاب مذهب الليبرالية عن الحرية السياسية والمساواة، وبين المبدأ الأساسى للرأسمالية وهو سياسة عدم التدخل Laissez Faire وذلك من منظور أن الليبرالية ستكون - فقط - صادقة فى أهدافها عندما تدعم المطالب البرجوازية Bourgeoisie من أصحاب الطبقة المتوسطة ضد استبداد الحكم ومزايا الأرستقراطيين Aristocratics وليس بتضليل السوق والحكومة بالمناداة بعدم التدخل فى الشئون الاقتصادية.

أبدت الاشتراكية الاتجاه الديمقراطى من أجل انتهاجها: مبدأ المساواة، وحق الترشيح والانتخاب لجميع أفراد الشعب بغض النظر عن عقائدهم السياسية أو الاقتصادية، وتطبيق مبدأ حكم الأغلبية. تطورت الديمقراطية والاشتراكية معا فى أوروبا الغربية فى خط متوازٍ مع الليبرالية، واصطبغتا بالروح الليبرالية التى سادت أوروبا الغربية فى القرن التاسع عشر. لم يكن من الضرورة التصاق الاشتراكية بالنظم الديمقراطية للحكم، فمبادئ: المساواة، واشتراكية الملكية، والتحكم فى الإنتاج، والاقتصاد المخطط، يمكن تحقيقها من خلال نظم سياسية أخرى قد لا تنتهج مبدأ الديمقراطية. لقد اعتقدت الاشتراكية فى وقت من الأوقات أنه يمكن الوصول إلى نهاية الطريق الاشتراكى من خلال تطبيق الوسائل الاشتراكية والسير فى الدروب الديكتاتورية. ففى بعض البلاد التى لا تنتهج التقاليد الليبرالية/الديمقراطية، غالبًا ما تقودها الاشتراكية إلى النظم الفاشستية أو الديكتاتورية بحيث تتحكم الدولة وتسيطر على جميع مظاهر حياة الأمة وطاقاتها الإنتاجية. ومن ثم، فنظريا وعمليا تتوافق الاشتراكية وتتماشى مع أشكال شتى من الحكومات مثل: الفوضوية Anarchism (نظرية تذهب إلى أن جميع أشكال السلطة الحكومية غير مرغوب فيها ولا ضرورة لها، وتنادى بإقامة مجتمع مرتكز على التعاون التطوعى بين الأفراد والجماعات)، والديكتاتورية Totalitarianism، والنظام الأبوى Paternalism (وهو نظام يقوم على إدارة البلاد من خلال نظام أبوى بواسطة الحكومة أو هيئة، أو شخص ذى

سلطان)، ونظم تسلوطية/عسكرية Militarism، ونظم فاشيـــتة Fascism، وأخيراً قد تتماشى الاشتراكية مع النظم البرلمانية الديمقراطية.

تعتبر الشيوعية من الأشكال المتطرفة للاشتراكية، فكلا من الاشتراكية والشيوعية يتميزان بحكم الحزب الواحد، وبالتحكم فى الإنتاج، والاقتصاد المركزى المخطط الموجه بخطط تصنيع سريعة وقائمة على صناعات كبرى. فى الطرف الآخر يختلف المذهبان فى أن الشيوعية تركز على ضرورة الصراع الطبقى بين البروليتاريا، والبرجوازية، وقد يتجه الصراع فى النظام الشيوعى إلى العنف لإقامة نظام ديكتاتورى تسيطر عليه البروليتاريا، وتمحو الاختلاف والمفاضلة بين الطبقات المختلفة للشعب. على هذا الأساس تختلف الشيوعية عن الاشتراكية التى تسمح بوجود طبقات، وتحترم اختلاف الأيدلوجيات، وتنادى بتطبيق النظم البرلمانية الديمقراطية، وتعتبر أن "نظام شيوعى بدون طبقات" هو حلم يوتوبى من المستحيل تحقيقه.

ارتبطت الاشتراكية بالأديان السماوية وغير السماوية، فجميع الأديان والعقائد الدينية تدعو إلى المساواة والعدل والإحسان ومساعدة الضعيف والفقير. بدأت الاشتراكية المسيحية الحديثة فى خلال الثورة الفرنسية، فقد نادى فوشية للعودة إلى الاشتراكية المسيحية. وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر انتشرت الدعوة للاشتراكية المسيحية فى بلاد أوروبا الغربية لتزاحم الأيدلوجيات السياسية والاقتصادية الأخرى. أخفقت حركة المسيحين الاشتراكين فى إقامة حلقات نقاش لتحفيز اندلاع شرارة حركة جديدة لإنشاء مجتمع اشتراكى جديد قائم على المبادئ الاشتراكية المسيحية. فى عام ١٨٦٠ أصبحت حركة المسيحين الاشتراكين فى دور الاحتضار، ولكن ظهرت فى القرن العشرين أحزاب مسيحية اشتراكية جديدة فى أوروبا الغربية لها ثقلها السياسى.

البنك الدولى

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية رأت دول العالم أنه من الأجدى لها أن تتعاون فى التعمير بدلاً من الصراع والتدمير. كان من نتاج مداولات مؤتمر بريتون وودز Bretton Woods Conference الذى عقد فى عام ١٩٤٤ فى ولاية نيوهامبشير بالولايات المتحدة الأمريكية، إنشاء البنك الدولى World Bank والذى يتألف من البنك الدولى للإنشاء والتعمير (International Bank for Reconstruction and Development-IBRD) والمؤسسة الدولية للتنمية الاقتصادية International Development Agency-IDA بهدف تعزيز التقدم الاقتصادى والاجتماعى فى البلدان النامية عن طريق مساعدتها فى زيادة إنتاجيتها كى تتحقق لشعوبها حياة أفضل وأكمل. كما أن هذا هو الهدف نفسه الذى تسعى لتحقيقه كل من مؤسسة التمويل الدولية (IFC) - التى تعمل بصورة وثيقة مع المستثمرين من القطاع الخاص فى كافة أنحاء العالم وتستثمر فى مؤسسات تجارية فى البلدان النامية - والوكالة الدولية لضمان الاستثمار (MIGA) - التى أنشئت لتشجيع الاستثمار الأجنبى المباشر فى البلدان النامية عن طريق حماية المستثمرين من مخاطر الاستثمار غير التجارية. ويعرف البنك الدولى ومؤسسة التمويل الدولية والوكالة الدولية لضمان الاستثمار معًا باسم "مجموعة البنك الدولى".

البنك الدولى للإنشاء والتعمير هو أقدم المؤسسات الأربع فى مجموعة البنك الدولى وأكبرها، إذ إنه أنشئ عام ١٩٤٥، وهو بنك تملكه حكومات ١٨٠ بلداً اكتتبت فى رأس ماله. وبموجب اتفاقية إنشاء البنك، لا يمكن بحث طلبات اكتتاب عضويته إلا إذا كانت البلدان الراغبة فى ذلك أعضاء فى صندوق النقد الدولى، كما أن نسب اكتتاب البلدان الأعضاء فى رأس مال البنك مرتبطة بحصة كل منها فى صندوق النقد الدولى، والهدف من ذلك هو إظهار القوة النسبية لاقتصاد البلد المعنى. ولا يقدم البنك الدولى للإنشاء

والتعـمير القروض إلا للمـقترضـين المتـمتعين بالأهـلية الائتمائيـة، ولا تقدم المساعدة إلا للمشروعـات التى يحتمل أن تحقق عائدًا اقتصاديًا حقيـقيًا مرتفعًا للبلد المعنى. ومن سـياسة البنك أنه لا يعيد جدولة أقـساط سداد القروض، كما أنـه لم يتعرض لخـسائر تتعلق بـالقروض التى قدمـها. فقد حـقق دخلاً صـافيًا فى كافة السـنوات منذ عام ١٩٤٨ .

يحصل البـنك الدولى للإنشاء والـتعمـير على معظم موارده المـالية عن طريق اقـتراضات مـتوسطة وطويـلة الأجل من أسواق رأس المـال فى أوروبا واليابان والولايات المتحدة الأمريكية. كمـا يقترض موارد مالية بأسعار السـوق من البنوك المركزية والمؤسسات الحكومية الأخرى ويستند مركزه الائتمانى المتين فى الأسواق إلى مجمـوعة من العوامل قوامها سيـاسات الإقراض المحافظة، والمساندة الماليـة القوية من جانـب الدول الأعضاء، والإدارة المالية الحـريصة. وإلى جانب الاقتراضات، يحصل البنك الدولى لـلإنشاء والتعمير على مبالغ كبـيرة من رأس مالـه المدفوع، ومن أرباحـه المحتجـزة، ومن حصيـلة سداد القروض التى قدمها.

أنشئت المؤسـسة الدولية للتنمية سـنة ١٩٦٠ لتقديم المساعدة للبلدان النامية الأشد فقرًا من غيرها بشروط تشكل عبـئًا أخف على كاهل ميزان مدفوعاتها مما تشكله قروض البـنك الدولى للإنشاء والتعمير. ولذلك تـتركز مـساعدات المؤسـسة على أشـد البلدان فقرًا والذى يصل نصيب الفـرد من إجمالى الناتج القومـى فيها حـوالى ألف دولار سـنويا. وعضـوية المؤسـسة الـدولية للتنمـية مفتوحة لكافة البلدان الأعضاء فى البـنك الدولى للإنشاء والتعمير، وقد انضم ١٥٩ بلدا إلى المؤسـسة. ويأتى معظم الموارد المالية التى تقوم المؤسـسة بإقراضـها على هيئة مـساهمات من البلدان الأكثر ثراء، غير أن بعض البلدان النامية تقدم أيضا مـساهمات للـمؤسـسة. كما تـستكمل المؤسـسة مـواردها المالية بتحويلات متكررة من صافى أرباح البـنك الدولى للإنشاء والتعمير.

لا تقدم المؤسـسة الدولية للتنمـية الاعتمادات إلا إلى الحكومات، على أن

تسدد فى فترة زمنية تتراوح بين خمس وثلاثين وأربعين سنة. وتقدم الاعتمادات بدون فائدة، غير أن هناك رسم خدمة سنويا يبلغ نصف فى المائة من المبلغ غير المسحوب من كل اعتماد تقدمه. وعلى الرغم من أن المؤسسة مستقلة من الوجهة القانونية والمالية عن البنك الدولى للإنشاء والتعمير، فإنهما يشتركان فى جهاز الموظفين، كما أن المشروعات التى تساعدها المؤسسة يجب أن تفى بها المشروعات التى يساندها البنك.

يتوقف نجاح عمليات البنك على الثقة التى اكتسبها لدى المقترضين منه، وهى ثقة مبنية على الخبرة والمهارات الفنية التى أظهرها البنك على مر السنين أثناء العمل مع البلدان النامية الأعضاء فيه. ولا يجوز للبنك، بموجب اتفاقية إنشائه، التأثر بالصفة السياسية لأى من البلدان الأعضاء، أى أن الاعتبارات الاقتصادية فقط هى الاعتبارات ذات الصلة بعمله. وهو يسعى أيضًا لضمان أن البلد النامى المعنى يحصل على كامل قيمة ما يقترضه من المال. ولذلك فإن مساعدات البنك غير مربوطة بشروط توريد خاصة، بمعنى أنه يمكن استخدامها لشراء السلع والخدمات من أى من البلدان الأعضاء.

أنشئت مؤسسة التمويل الدولية عام ١٩٥٦، ومهمتها المساعدة على تحقيق التنمية الاقتصادية فى البلدان النامية عن طريق تشجيع نمو القطاع الخاص فى اقتصاديات تلك البلدان والمساعدة فى تعبئة رءوس الأموال المحلية والأجنبية لهذا الغرض. ويبلغ عدد البلدان الأعضاء فى المؤسسة مائة وسبعين بلدًا. وتعتبر المؤسسة والبنك كيانين مستقلين من الناحيتين القانونية والمالية. إذ للمؤسسة جهاز موظفيها الخاص المعنى بالعمليات وبالشئون القانونية، ولكنها تستعين بالبنك فيما يتعلق بالشئون الإدارية والخدمات الأخرى.

وتقوم مؤسسة التمويل الدولية، فى إطار دورها المعنى بتمويل المشروعات، بتقديم القروض والاستثمار فى أسهم ملكية الشركات. وعلى نقيض معظم المؤسسات المتعددة الأطراف، لا تقبل المؤسسة الضمانات الحكومية للموارد التمويلية التى تقدمها، وهى تسعر الموارد التمويلية

والخدمات التى تقدمها - قدر الإمكان - وفق أسعار السوق، شأنها فى ذلك شأن المؤسسات المالية الخاصة، مع مراعاة تكلفة مواردها المالية، وهى تسعى لتحقيق عائد مربح من استثماراتها. كما أنها تتحمل مع شركائها فى المشروعات المسئولية الكاملة عن المخاطر التى قد تتعرض لها هذه المشروعات.

الوكالة الدولية لضمان الاستثمار، أحدث عضو فى مجموعة البنك الدولى، أنشئت عام ١٩٨٨ ومهمتها الرئيسية تشجيع الاستثمار من أجل التنمية الاقتصادية فى البلدان الأعضاء من خلال ضمانات تقدمها للمستثمرين الأجانب ضد الخسائر الناجمة عن المخاطر غير التجارية، ومن خلال الخدمات الاستشارية والمشورة التى تقدمها للبلدان الأعضاء بغية مساعداتها فى تهيئة بيئة استثمار وقاعدة معلومات متجاوبتين ترشدان وتشجعان تدفق رأس المال. والوكالة الدولية لضمان الاستثمار أيضاً كيان مستقل عن البنك الدولى. ولها جهاز موظفيها الخاص المعنى بالعمليات وبالشئون القانونية، ولكنها تستعين بالبنك فيما يتعلق بالشئون الإدارية والخدمات الأخرى، شأنها فى ذلك شأن مؤسسة التمويل الدولية، ويبلغ عدد أعضاء الوكالة حاليا ١٣٢ بلداً.

منظمة التجارة العالمية

فى ١٥ أبريل ١٩٩٤ أعلن وزراء مالية واقتصاد ١١٧ دولة فى مراكش قيام (منظمة التجارة العالمية World Trade Organization - WTO). بعد أن قامت هذه المنظمة بمزاولة عملها فى ١٩٩٥/١/١ انتهى العمل باتفاقية الجات GATT. وكلمة الجات مشتقة من الأحرف الأولى من اسم (الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة General Agreement on Tariffs and Trade). والجات هى معاهدة دولية كان الهدف منها تنظيم عملية المبادلات التجارية بين الدول الموقعة عليها فى جنيف عام ١٩٤٧، كانت فكرة قيام هذه المعاهدة، من نتاج مداولات مؤتمر بريتون وودز الذى أقر قيام صندوق النقد الدولى International Monetary Fund- IMF، والبنك الدولى للإنشاء والتعمير.

اشتملت اتفاقية "الجات" على المبادئ والأسس والقواعد التى تحكم النظام التجارى العالمى الجديد لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وقد شارك فى توقيع هذه الاتفاقية ثلاث وعشرون دولة هى: (أمريكا / بريطانيا / استراليا / نيوزيلندا / كندا / فرنسا / بلجيكا / هولندا / لوكسمبرج / النرويج / سوريا / لبنان / تشيكوسلوفاكيا / البرازيل / شيلى / كوريا / جنوب إفريقيا / روديسيا / الهند / باكستان / الصين / سيلان / بورما).

تتضمن اتفاقية إنشاء منظمة التجارة العالمية ست عشرة مادة عامة تغطى مختلف الجوانب القانونية والتنظيمية التى تحكم عمل المنظمة وتتلخص وظائف المنظمة فى النقاط الرئيسية التالية:

* تسهل المنظمة تنفيذ وإدارة اتفاقيات "الجات"، وتشكل المنظمة الإطار التفاوضى بين الدول الأعضاء لتنظيم العلاقات التجارية فيما بينها أو للشروع فى أى جولات مستقبلية للمفاوضات لتحقيق المزيد من تحرير التجارة الدولية.
* الإدارة والإشراف على الاتفاقية المنشئة لجهاز تسوية المنازعات والتى تحدد طبيعة عمل وأسلوب تشكيل لجان التحكيم وجهاز الاستئناف وحقوق والتزامات الدولة.
* وضع ضوابط تحرير التجارة فى السلع المصنعة.
* تشمل الاتفاقية أيضًا على بنود توافر معاملة خاصة لفئات معينة من الدول مثل الدول الداخلة حديثًا فى الاتفاقية، وصغار الموردين والدول الأقل نموا.
* تحرير التجارة الخارجية فى قطاع الخدمات وإخضاعها لأسس التجارة متعددة الأطراف.

تضمنت الاتفاقية أيضًا بنوداً خاصة بحقوق الملكية المرتبطة بالتجارة، وحقوق التأليف والطباعة والمصنفات الفنية والأدبية، وبراءات الاختراع، والعلامات التجارية.

العقيـــدة

العقيـدة الدينيـة

أطلق اسم الرب God، الله، الإله، خالق الكون على أقصى قوة عظمى مطلقة فى الكون. تقوم الأديان على عبادة الإله، وتكرس له الحب، والطاعة، والتقوى، والورع، والصلاة، والإجلال، والتعظيم، والإيمان بقدرته على فعل كل شىء وأى شىء. الإله هو من يميل إليه الإنسان، ويعتمد عليه المؤمن، إنه إيمان صادر من الذات الداخلية / العاطفية أكثر من الإيمان التحليلى المرتبط بالتجارب والبراهين العلمية والمعملية. الإيمان الحق هو عقيدة راسخة فى مكنون الذات البشرية، وثقة مطلقة - فى من نؤمن به - بدون شك أو ارتياب، وإخلاص تام نابع من نية صافية ومجردة من أية شوائب أو انتظار منفعة أو خوف من عقاب. يرجع إلى الذات الإلهية، القوة المطلقة التى خلقت الكون، والطاقة اللانهائية التى تُسَيره.

بدأت فكرة الإله من المنظور الفلسفى - قبل نزول الأديان السماوية - عندما واجه الإنسان الأول ظواهر طبيعية لم يجد لها تعليلا أو سببا من منطلق العقل البدائى الخالى من التجارب والخبرات المتطورة. قام الإنسان بتكوين صورة عن إله غير محدد، له رهبة، غامض، لا يمكن معرفة شىء عن أصل وجوده، أو ما يقدره للكون وللإنسان. نبعت من الفكرة الأصل، صورة أخرى لإله يمكن أن يخيف البشر ويدمرهم بالمرض والموت والظواهر الطبيعية مثل الرعد والبرق والزلازل. من هذا المنطلق نبعت فكرة إله الشر المقابل لإله الخير الذى يشفى المريض ويداوى الجروح وينقذ البشر من الكوارث التى تحل بهم. كان تصور إنسان الحضارات الأولى بأن إذا تواجد إله الشر مع إله الخير، فلا بد أن يتصارع الإلهين، كما أنه من الممكن أن يتواجد آلهة كثيرة، يعنى كل إله بموضوع من المواضيع الخاصة بالحياة البسيطة التى يحيا بها ومن خلالها الإنسان، مثل إله الإخصاب، وإله الحصاد، وإله الصيد... إلخ، ثم تطورت صور الآلهة فتخيل الإنسان إلهًا للحكمة، وإلهًا للجمال، وإلهًا للحرب....، .... إلى آخره من الصور المتعددة للآلهة.

فى قديم الزمان، كانت المجتمعات روحانية الطابع Animistic، أى تعتقد فى أن كل ما فى الكون - وحتى الكون ذاته - له روحًا أو نفسًا، وأن الروح أو النفس هى المبدأ الحيوى المنظم للكون، فالكون مسكون بأعداد لا تحصى من الأرواح، الخيرة منها والشريرة، العطوفة على البشر أو التى تتربص بهم لتنال منهم شرًا وانتقامًا. لقد تعود الإنسان - فى مخيلته ومن منظوره القديم - أن يتعايش مع هذه الأرواح، إما بطريقته الشخصية أو عن طريق السحرة الذين استغلوا سذاجة الكثير من البشر لتقديم القرابين إلى الأرواح الشريرة منعًا لشرهم، أو للأرواح الخيرة انتظارًا لخيرهم. ومن السحرة والكهان انبعثت فكرة الدين فى الحضارات القديمة. لقد تعددت الأرواح والآلهة فى المجتمعات والثقافات القديمة، ولكن أيضًا راود فكر الكثير من البشر فى العصور القديمة وجود إله واحد قوى، أعلى من الآلهة الأخرى ومتفوق عليهم Superior God.

بدأت فكرة التوحيد والإيمان بإله واحد Monotheism حتى قبل نزول الأديان السماوية. وفى مسار التوحيد يوجد أربعة مناهج أو طرق مختلفة هى:

- التأملية / التفكيرية Speculative
- السلطوية Imperialistic
- الروحية / الصوفية Mystical
- الأخلاقية Ethical

فى المنهج التأملى / التفكيرى، يبذل الإنسان أقصى جهده وعصارة فكره لاكتشاف كينونته ومرتبته بالنسبة للآخرين من خلال حصيلة التجارب التى يمر بها، وشخصيته التى تكونت وتبلورت. فالإنسان يجب أن يعيش العالم الواعى المليء بالأشرار أو الأخيار، ومن الاحتكاك بشتى أنواع البشر، ومن سلوكه تجاه مخلوقات مختلفة تحدد مرتبة الإنسان ودرجة إيمانه. أما

فى المسار السلطوى، فالعقيدة تأتى من الإيمان بوجوب فرض عقوبات صادرة من الرب، أو من قوى علوية خارقة للطبيعة Supernatural على أعداء الدين والمختلفين فى العقيدة. ينبع المنهج الصوفى من تجربة الإنسان الفردية - التى تعترى فئة قليلة من البشر - والتى فيها يشعر الإنسان الوفى بنشوة روحية Ecstasy، ورضا وراحة نفسية، وسعادة داخلية، منبثقة من محاولة الاندماج مع الذات الإلهية بغية الوصول إلى الحقيقة القصوى أو الحقيقة المجردة. تنتشر الصوفية فى جميع الأديان السماوية وغير السماوية، وفى جميع الثقافات الإنسانية المختلفة. ينشأ المنهج الأخلاقى من تعرض الإنسان لتجارب شخصية قاسية، يأمل فيها وجود قيم أخلاقية مثل: المساواة، والعدل، والخير، والإنصاف، والمحبة،... إلى آخره، حتى يستطيع الإنسان التغلب على المشاكل التى تصادفه أثناء مسيرته الحياتية. إن الإنسان عادة ما يتجه إلى الدين عندما يتعرض للمخاطر أو للظلم، ثم ينسى ربه بعد ما يزول الكرب وينقشع الغم، ويتجاوز النسيان إلى الافتراء والطغيان عندما يتملك ويتحكم.

الدين Religion

عرفت الموسوعة الأمريكية Encyclopedia Americana الدين بأنه: (شكل أو نموذج من الإيمان والممارسة، من خلاله يعيش المرء التجربة، أو يأمل فى خوض تجربة خارج نطاق تجارب العالم المادى التقليدى). الدين هو من الأمور النموذجية التى يركز فيها الإنسان فى المطلق / المجرد، من خلال الإيمان الكامل بالإله، وعبادته وطاعته. يتجلى الدين فى عدد من العقائد، والتى يمكن تصنيفها إلى عقائد تؤمن بالتوحيد Monotheism أى الإيمان بإله واحد، وعقائد تؤمن بتعدد الآلهة. من عقائد التوحيد الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام. بجانب الأديان السماوية، يوجد الكثير من العقائد الدينية التى نبعت من الهند والصين وبلاد الشرق الأقصى عامة مثل: البوذية، والهندوسية، والكنفوشسية، والشانتوية، والسيخ وغيرها من

الأديان غير السماوية الأخرى والذى سيجىء ذكرها لاحقًا. بالإضافة إلى ذلك يوجد الكثير أيضًا من الديانات الفطرية/البدائية التى تنتشر فى جزر المحيط الباسيفيكى، وفى استراليا، وفى بعض البلاد الإفريقية. فى العصور الحديثة لم تظهر أديان غير سماوية جديدة ولكن اندثر الكثير من الأديان غير السماوية التى كانت منتشرة فى الحضارات القديمة فى الشرق الأوسط والأدنى، وفى أوروبا، وفى القارة الأمريكية قبل اكتشافها.

انتهى عصر الشك والإلحاد فى الحضارة الغربية، وتشكل منظور جديد للدين، كتب أوليفر ليمان فى كتاب "مستقبل الفلسفة فى القرن الواحد والعشرين" عن المنظور الفلسفى الحديث للدين: (ظهر منهج آخر لفلسفة الدين فى القرن العشرين، وهو التأكيد على الجوانب العقلانية من الدين. فالدين شكل من أشكال الحياة، ونهج للسلوك، وإنه من الخطأ أن نراه مرتبطًا بقائمة معينة من الفرضيات. هذه هى الطريقة التى يميل الفلاسفة إلى أن يروه بها، حيث إن الفلاسفة يفضلون أن يجزئوا الأشياء أو يقسموها وفقًا لفرضياتهم الأساسية، لكن الاعتقاد الدينى هو مسألة التزام بطريقة للحياة، وليس سلسلة من المعتقدات المحددة. . . وإحدى مزايا وجهة النظر التى تأخذ بالاعتقاد أو الإيمان الدينى على أنه يتعلق بالسلوك أكثر من تعلقه بالاعتقاد، هى أنها تجنب المرء هذه الأنواع من المشكلات. فالدين إذًا هو مسألة سلوكنا بطريقة معينة ووجود قواعد محددة وطرق لسلكها تلائم هذا النمط من النشاط الإنسانى. والدين هو فى الحقيقة مصطلح يمكن الاستعاضة عنه أو استبدال عدد من الأفكار الأخرى به، وهى الأفكار المتعلقة بالكيفية التى نرى بها الحياة).

التصوف Mysticism

التصوف مذهب يدعو للتأمل والتبصر الروحى، والدخول فى تجربة الالتحام التام والتوحد Oneness، والبحث عن الحقيقة المطلقة

Absolute Reality وانسجام الذات مع الكل، والتناسق بين الذات وجميع عناصر الكون للوصول إلى مرحلة اتحاد الكل فى واحد. يمكن الوصول إلى هذا الهدف من خلال تجربتين صوفيتين مختلفتين: الأولى هى إخراج كل الانتباه الوجدانى والشوق الصوفى من الذات الداخلية وهو ما يسمى بالتصوف الانبساطى Extrovertive Mysticism، والثانية تركز كل الانتباه الوجدانى نحو الداخل وهو ما يسمى بالتصوف الانطواى Introvertive Mysticism. والتصوف الانبساطى يعنى اعتبار مضمون الأشياء المادية كلها كواحد، وينفذ الصوفى بجميع وجدانه فى هذا "الواحد" ويتفاعل معه ويتبصر ماهيته، أو كما قال الصوفى الألمانى جاكوب بوما فى القرن السادس عشر: (من هذا الضوء النابع من داخلى، رأت روحى كل الأشياء، وأدركت وجود الله فى العشب والنبات). برز التصوف الانطوائى - فى جميع الثقافات - مع ظهور الأديان، بدخول الإنسان المتصوف فى تجربة التصوف من خلال النزول إلى أعماق العقل وذلك للوصول إلى الجذور العميقة أو المنبع. فى هذه الحالة، على الصوفى أن يكبت جميع الأحاسيس، والتخيل، والأفكار، والرغبات، والإرادة، والشعور المادى، فقط يترك لنفسه الرضا، والقناعة، وراحة البال، والاطمئنان والسلام الداخلى، والشعور بعدم الحاجة إلى أى رغبة حسية أو مادية. بوصول الإنسان إلى هذه الحالة من أقصى درجات الصوفية، يكون قد تحرر من كل شىء عدا التوحد مع النفس، والذاتية الخالصة، ليصبح مع جميع مكونات الكون: واحداً ليس له ثان.

يختلف مضمون التوحد الصوفى مع الذات العليا باختلاف الديانة، ففى الديانة الإسلامية يكون التوحد مع "الله الخالق سبحانه وتعالى - الواحد الأحد"، وفى الديانة المسيحية يتوحد الصوفى مع "السيد المسيح بكونه الأب والابن والروح القدس" ، وفى البوذية يأخذ التوحد صورة وميض النيرفانا أى السمو بالنفس خارج الواقع المادى، أما فى الهندوسية فهو الاتحاد مع البراهما. إن الصوفية تمارس فى كل دين، داخل إطار وتعاليم الدين،

والعقائد التى تفسر هذا الدين. يمكن للصوفية - إلى حد ما - أن تتماشى وتتواكب مع النظام الغيبى أى ما وراء الطبيعة Metaphysics، فبعض النظم الفلسفية الحديثة - خاصة فى الغرب - مثل بعض من الاتجاهات الفلسفية لهيجل، وشيلنج، وشوبنهاور، وبرادلى تسمى بالفلسفة الصوفية، والتى تحاول الوصول إلى الحقيقة الحقة، والحقيقة المجردة، والحقيقة المطلقة.

كتب ول ديورانت فى موسوعته "قصة الحضارة" عن التصوف فى الإسلام: (يرجع التصوف الإسلامى إلى أصول كثيرة: منها نزعة الزهد عند فقراء الهندوس، وغنطوسية مصر، والشام، وبحوث الأفلاطونية الجديدة عند اليونان المتأخرين، وتأثير الرهبان المسيحيين الزاهدين المنتشرين فى جميع بلاد المسلمين. وقد وجدت فى العالم الإسلامى، كما وجدت فى العالم المسيحى، أقلية تقية تعارض فى تكييف الدين حسب وسائل العالم الاقتصادى ومصالحه، فكانوا يندون بترف الخلفاء، والوزراء، والتجار، ويدعون المسلمين أن يعودوا إلى بساطة أبى بكر وعمر بن الخطاب. وكانوا يرفضون فكرة وجود وسيط أيا كان بينهم وبين الله، وحتى فروض الصلاة الصارمة نفسها كانت تبدو لهم عقبة تحول بينهم وبين تلك المرتبة التى تسمو فيها الروح بعد أن تتطهر من جميع مشاغلها الدنيوية حتى تشاهد ذات الله العليا، فإذا سمت فوق هذه المرتبة استطاعت أن تتحد مع ذات الله نفسها... وكلمة الصوفى التى تطلق على معظم الزهاد المسلمين مشتقة من ثياب الصوف البسيطة التى كانوا يرتدونها... ويقول ابن رشد إن الصوفيين يعتقدون أن معرفة الله مستقرة فى قلوبنا، بعد أن نتخلى عن جميع الشهوات الجسمية والانقطاع إلى الله، فقالوا: إن كل ما نراه فى العالم من كمال وجمال سببه حلول الله فيه. ويقول أحد الصوفية إنه لا يسمع صوت الحيوان، أو حفيف أوراق الشجر، أو خرير الماء، أو تغريد الطيور، أو هبوب الرياح، إلا أنه أحس أنها كلها شواهد على وحدانيته وأنه سبحانه لا شبيه له. والحق أن الصوفى يعتقد أن هذه الأشياء المتفرقة إنما توجد بما فيها من القوة الإلهية،

وأنها إنما وجدت لما هو كامن فيها من روح الله. وعلى هذا فالله هو كل شيء، وهم لهذا لا يكتفون بالقول بأنه لا إله إلا الله، بل يضيفون إلى هذا أنه لا موجود بحق سواه. وعلى هذا فكل نفس هى الله، والصوفى الكامل يجهر فى غير مواربة بأنه هو نفس الذات الإلهية... ويعتقد الصوفى كما يعتقد الهندوسى أن نظامًا صارمًا من التطهير لا بد منه لكى ينكشف عنه الغطاء ويرقى إلى عالم الفيض والإلهام. والتطهير يكون بضروب من التفانى فى الطاعات، والتأمل والنظر والتدبر، والصلاة، وإطاعة المريد لأستاذه الصوفى أو معلمه، والتجرد الكامل من جميع الشهوات البدنية، بما فيها التجرد من شهوة النجاة، والاتحاد الصوفى مع الله. والصوفى الكامل يحب الله لذاته لا رغبة فى ثواب ولا خوفًا من عقاب).

الإلحـاد Atheism

يعنى الإلحاد فكرة إنكار وجود الرب / الإله / الخالق. والكلمة فى اللغة الإنجليزية مشتقة من الكلمة اليونانية Theos بمعنى "الرب"، وحرف "a" الذى تبدأ به الكلمة للنفى. يسلك المذهب الإلحادى ثلاثة فروع كما ورد فى الموسوعة الأمريكية Encyclopedia Americana.

* إنكار وجود قوة يمكن أن نطلق عليها كلمة الرب، أى عدم وجود قوة لها القدرة المطلقة، والتبجيل والوقار والمهابة Revernce، والتى يمكن أن تضفى على المعنى الذى تعنيه كلمة "الرب God".
* الإلحاد هو كلمة تطلق على الاقتناع والإيمان الراسخ برفض المعتقدات السائدة فى ثقافة ما عن الدين وعن "الرب".
* يمكن أن تطلق الكلمة على تجاهل وجود الآلهة بصفة عامة.

لم يتشكل معنى الإلحاد فى الحضارات القديمة قبل نزول الأديان السماوية لعدم وضوح صورة مشكلة ومنزلة عن الرب الإله الخالق والقادر على

كل شيء. بالرغم من ذلك وجد من ينكر وجود الإله المحلى فى صورته التى تشكلت فى الديانات القديمة مثل الديانات الفرعونية، وديانات بلاد بين النهرين، والديانات الفارسية والإغريقية والهندوسية،.... إلى آخره من الديانات العديدة التى سادت الشرق الأوسط والأدنى وجنوب أوروبا، قبل نزول الأديان السماوية. لقد اتهم سقراط وتم محاكمته بتهمة ازدراء وإهانة الآلهة، فقد كانت الآلهة لها تقديس خاص فى الحضارات القديمة تستوجب القتل لمن يهينها أو ينكرها. مع ظهور الأديان السماوية وجد أيضًا الملحدين الذين أنكروا الأديان ووجود الرب الخالق. انتشر الإلحاد فى عصر العقل والانفتاح الدينى فى أوروبا بعد ظهور فلاسفة الشك فى القرن السابع عشر. انتشر الإلحاد فى أوروبا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والذى أرجعه ول ديورانت فى موسوعة "قصة الحضارة" إلى رد الفعل ضد الهيمنة الدينية فى القرون الوسطى وتعسفها مع الأفكار العلمية الحديثة والاكتشافات الفلكية والفيزيائية التى بدأت تنتشر.

أدت الحرية الفكرية فى أوروبا فى القرن السابع عشر إلى ظهور من شكوا فى الدين وأنكروه. كان رأى راعى الأبرشية الفرنسى جان مسليه فى الدين - كما جاء فى موسوعة "قصة الحضارة": (أن الدين كان جزءاً من مؤامرة بين الكنيسة والدولة لإرهاب الناس إلى إذعان مريح للحكم المطلق... زعزعت الخلافات الدينية أركان الإمبراطوريات وأدت إلى الثورات ودمرت الملوك وخربت أوروبا بأسرها... إن الأنصار المتحمسين لدين يدعو إلى البر والإحسان والتآلف والسلام أثبتوا أنهم أشد ضراوة وقساوة من أكلة لحوم البشر أو المتوحشين، فى كل مرة يستثيرهم فيها معلموهم إلى تحطيم إخوتهم، وليس ثمة جريمة لم يرتكبها الناس فى سبيل إرضاء الرب أو تسكين ثورة غضبه.. أو إقرار خداع الدجالين لحساب كائن لا يوجد إلا فى خيالهم وحدهم... هل حقا أن نظرية الجنة والنار تجعل الناس على جانب أكبر من الفضيلة، وهل الأمم التى يسودها هذا الزعم تشتهر بالسلوك الحميد

والخلق القويم؟... ويكفى لنتحرر من الوهم أن نفتح أعيننا على أخلاق أشد الناس تمسكًا بالدين ونفكر فيها مليا، وسنرى طغاة متعجرفين ومغتصبين لا حصر لهم، وحكامًا لا ضمائر لهم، ودجالين وزانين وفاسقين وإباحيين فجرة، وعاهرات ولصوص، وأوغاداً من كل صنف، لم يشكوا لحظة فى وجود إله محب للانتقام، أو لم يشكوا فى عذاب الجحيم أو جنة النعيم).

لم يستطيع الملحدون استيعاب فكرة الصلاة والدعاء القادر على حل جميع المشاكل والملبى لجميع الرغبات، كتب أوليفر فى كتاب "مستقبل الفلسفة فى القرن الواحد والعشرين" : (ترتبط المشكلة الكلاسيكية فى فلسفة الدين بقضية الصلاة. فالكثير من الناس يظنون أنهم حينما يصلون فإن هناك من ينصت إليهم أو ربما ينصت إليهم، وأنهم فى الحقيقة ربما يأملون فى استجابة من المنصت. وهم قد يظنون أنهم قد تلقوا استجابة بالفعل، حتى لو ظلت طبيعة هذه الاستجابة غامضة بالكامل أو مستعصية على فهم الملاحظ غير المؤمن. والمشكلة التى تواجه الكثير من فلسفة الدين هى أنه توجد صعوبة فى فهم كيف يمكن أن يكون الله حقيقة مطلعًا على صلوات المخلوقات البشرية الفردية، وكيف يمكن أن يتوقع منه أن يستجيب لهذه الصلوات... وفى الكثير من تعريفات الله أنه لا يتغير، ومن ثم فإذا كان له أن ينصت إلى الصلوات ويتعين عليه أن ينتظر المعلومات قبل أن يقرر ماذا يفعل، إذًا فهو سوف يتغير، وأنه يجب أن ينتظرنا لنقترح عليه كيف يمكن أن يتغير. وقد يقال إنه سوف يعرف منذ الأزل ما الذى سوف نسأل وكيف سيلبى، لكن توجد حينئذ مشكلات تتعلق بكيفية أن نكون نحن أحراراً فى أن نقرر أن نصلى ونثير قضايا معينة معه... وإحدى مزايا وجهة النظر التى تأخذ بالاعتقاد أو الإيمان الدينى على أنه يتعلق بالسلوك أكثر منه تعلقه بالاعتقاد، هى أنها تجنب المرء هذه الأنواع من المشكلات فالدين إذًا هو مسألة سلوكنا بطريقة معينة، ووجود قواعد محددة لسلوكنا).

العقائد الدينية القديمة

يرجع أصل الديانات المصرية القديمة إلى أربعة آلاف عام قبل الميلاد، عندما كان الاعتناء بدفن الحيوانات تدل على عبادة المصرى القديم لها. تصف بردية آنى والمعروفة بكتاب الموتى والتى وجدت فى معبد أبيدوس، قصة الخلق من المنظور الفكرى للمصرى فى الحضارة الفرعونية: (كان الكون فضاءً أزليًا يغمره الظلام وتنعدم فيه الحركة حتى خلق الإله الأكبر "رع" نفسه بنفسه فسارت الحركة الدائمة وغمر النور الكون كله، ومن أنفاسه أنجب "شو" وتفنوت أبا الكون وأمه... وتزوج "شو" و "تفنوت" فأنجبا "نوت" ربة السماء "وجب" إله الأرض...). أثمر زواج نوت وجب أربعة أبناء وهم: إيزيس وأوزوريس وست ونفتيس، آلهة الخير والخصب والشر والبركة، وبوجودهم بدأت الحياة فى الأرض وبدأ معها الصراع البشرى عندما قتل ست إله الشر أخاه أوزوريس إله الخير، وهى قصة قابيل وهابيل وآدم وحواء كما كتب الدكتور سيد كريم فى كتابه "لغز الحضارة المصرية"، والذى استكمل فيه قصة الخلق: (كان الله حكيمًا عندما خلق بقدرته البشر قطيع الإله، صنع لهم الأرض ليعيشوا فوقها والسماء لتغطيهم وأبعد الظلمات من الكون وجعل نسمة قلبهم حياة وجودهم وكيانهم فهم صورته الخارجة من جسمه. وصعد الإله إلى الفضاء الكونى ليرعى أفلاكه بعدما وضع لهم من النبات والحيوان والطير والأسماك غذاء لهم).

يشرح كتاب الموتى سر الوجود، وفلسفة الروح والجسد برسم هرم الوجود على شكل هرم مدرج مكون من ثلاث مصاطب، العليا هى الروح "با" وتعلوها السماء "بت" وتتمثل الروح فى العقل والإيمان والضمير. تعتبر المصطبة الوسطى النفس "كا" وهى الواسطة بين الروح والجسد، وتتمثل النفس فى الحواس الخمس الظاهرة والحواس الباطنة والغرائز والانفعالات. أما المصطبة السفلى "جثا" فتمثل الجسد الذى يرتكز على

الأرض والتى خرج منها: الروح والنفس والجسد.

كان تحمس الرابع أول من رمز للإله الواحد باسم أتون "الشمس" الذى نادى به أخناتون "أمنحتب الرابع" فيما بعد عندما تولى عرش مصر بعد أن شارك والده "أمنحتب الثالث" فى الحكم ما يقرب من ثمانى سنوات وجد الأمور مهيأة لعبادة إله الشمس "الإله الواحد" ورمز له بقرص الشمس الذى أطلق عليه اسم "أتون" بدلا من "رع" ليعبر عنه بالقوة الكامنة خلف قرص الشمس، وليس الشمس نفسها. كان شعار أخناتون عند القيام بحملته على الآلهة والمعبودات الأخرى وقيامه بتحطيم تماثيلهم ومحو أسمائهم والذى بدأ به دعوته ورسالته - كما ورد فى "لغز الحضارة المصرية": (الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، خلق السموات والأرض ولا شأن بجواره لأحد. وهو الأب وهو الأم وليس له ولد). كان الرمز الجديد الذى وضعه أخناتون هو قرص الشمس، تخرج منه أشعته متفرقة تنتشر فوق الأرض وينتهى كل شعاع من أشعته بيد بشرية، وهو ما يعبر عن اليد القوية الخارجة من منبعها السماوى وتضع أيديها فوق العالم وعلى شئون البشر الأرضية.

نسب السومريون والأكاديون - من حضارات جنوب العراق - إلى آلهتهم مشاعر وعواطف إنسانية وأسبغوا عليهم نفس طريقة الحياة وإن رفعوهم عن الجنس البشرى بأن منحوهم الخلود وآمنوا بهم كخيرين ورحماء عندما لم يكن هناك إله شرير، فالشر كانت تسببه فى العالم أرواح خبيثة ربما كانت أسمى من البشر ولكنها دون الآلهة. كان الناس يقاومون الشر ويتقون تأثيره عن طريق ممارسة السحر. جاءت الحضارة البابلية - فى جنوب العراق- بالثالوث الأعظم لمجموعة الآلهة وهم: آنو، وأنليل، وأيا. فى تلك العصور عبد السومريون أيضًا ثالوث آخر مكون من "سن" الإله القمرى، وطفليه: شماش أو شمش إله الشمس، وعشتار نجم الزهرة وإله اللذة. كان سن يقيس الزمن وهو الذى ينهى الأيام والشهور والسنين للملوك، وكان رمزه الهلال. أما شمش فكان فوق كل شىء فهو القاضى الأعظم، أملى شخصيا قوانين

العدالة على أورانجور وحمورابى. أما عشتار فمعبود ذكر فى الصباح وإلهة أنثى فى المساء.

لم يختلف الدين الأشورى - فى شمال العراق - عن الدين البابلى كثيراً، أما العقيدة فقد طرأ عليها تعديل لتلائم حضارة قائمة على الحروب. منح الإله الأعظم آشور (يعنى العطوف) اسمه إلى أول عاصمة آشورية وإلى البلد نفسها، فكان يعبده الكثير منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد. كان أشور ملكا للآلهة جميعًا وخالقا لسماء "أنو" والأقاليم السفلية، وخالقًا للبشر جميعًا. كإله حربى كان أهل أشور يدعون أنه أخضع البشر جميعهم لنيره، وكان يمثل مسلحًا بقوس ممدود مستعدًا لرمى سهم فى وسط قرص مجنح، وكانت زوجته عشتار الأشورية والتى تسمى فى معظم الأحيان "بعليت" أى الملكة. تحتل عشتار بعد أشور أهم مكانة فى مجمع الآلهة الأشورية فيما يختص بالحملات الحربية لأنها كانت أيضًا محاربة، ويسميها أشور "ريش أيشى" أى بطلة المعارك التى لا تبقى على أحد من أعداء أشور. امتلأت قصور حضارة بين النهرين بالدعوات للآلهة، ورسوم تقديم القرابين والهدايا لهم، وكان الملك بعد عودته من كل حملة حربية يضع جانبًا من الغنائم لصيانة وترميم هياكل العبادة وملء خزائنها. حتى قبل بدأ الحرب، كان الملك القائد العسكرى يقوم بالدعاء للآلهة ملتمسًا النصر على أعدائه.

يعتنق الهندوسية - الدين الشائع فى الهند - مئات الملايين، وهو دين ليس له عقيدة محددة لأنه أسلوب فى الحياة أكثر منها عقائد، بالرغم مما تشمله الهندوسية من عقائد تهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار. كتب جفرى بارندر فى كتاب "المعتقدات الدينية لدى الشعوب" عن الهندوسية: (من الناحية الإيجابية يمكن القول إن الهندوسية هى اتباع أو عبادة الإله فشنو أو شيفا، أو الإلهة شاكتى أو تجسيداتهم، أو مظاهرهم أو أزواجهم أو ذريتهم. وهكذا يندرج ضمن الهندوسيين عدد كبير من أتباع عبادة راما وكرشنا "وهما تجسيدان لفشنو" وأتباع عبادة درجا وسكاندا وجانيشا). عبد الهنود إله الحرب

وملك الآلهة "إندرا"، فهو الذى دمر المدن الحصينة وركب السماء على رأس جيشه من آلهة العاصفة الأقل منه شأنا. أما آلهة الشمس فى الديانات الهندوسية فكانت عديدة، فكانت منها "سربيا" وتعنى هذه الكلمة الشمس، ومنها الإله "فشنو"، وإله النار "أجنيى" الذى يربط عالم البشر بعالم الآلهة. ارتفع "شيفا" إلى مكانة مرموقة بالتدريج بحيث أصبح مركزاً للعبادة، وانبثقت من الشيفية مذاهب عديدة، منهم "السيدها" أى النساك المعتزلين، ومنهم "الكابليكاس" أى حملة الجماجم الذين يحملون أوعية للتسول على هيئة جمجمة لجلب العار والخزى على أنفسهم، بالإضافة إلى الإفراط فى شرب الخمر وأكل اللحوم والممارسة الجنسية المحظورة أثناء تأدية الطقوس الدينية، لجلب مزيد من الخزى والعار، ويمكن أن يطلق على هذا المذهب الجناح المتطرف من الشيفية.

ظهر فى الهند أيضًا مذهب "السيخ Sikhism"، وهو نظام دينى علمه للناس فى إقليم البنجاب، المعلم الروحى ناناك خلال العقود المبكرة من القرن السادس عشر. آمن ناناك بوحدانية الخالق، المفارق المتعالى الذى يجب أن يرتبط به ارتباطًا وثيقًا أولئك الذين يبحثون عن الخلاص. يعبر ناناك عن فهمه للخالق بعدد من المصطلحات تشمل "الواحد الذى لا شكل له"، "الأزلى"، "ما لا يوصف". كان جواب ناناك عن سؤال: كيف للمرء أن يعرف الله؟... هو أن المرء لا يستطيع أن يعرف الله، لأن الله فى تمامه يجاوز كثيراً فهم الموجودات الفانية، فالله حاضر فى كل مكان، ويمكن للشخص اليقظ روحيا أن يراه فى كل مكان متمثلا فى مخلوقاته، أما مصير الإنسان الضال الذى لا يتوب ولا يندم هو الانفصال الدائم عن الله.

لعبت ثلاث ديانات الدور الرئيسى على مدى ثلاثة آلاف عام فى التاريخ الصينى، وهى الكونفوشية والتاوية وهما ديانتان قوميتان نبعتا من الصين، أما الديانة الثالثة فهى البوذية التى ولدت فى الهند. تم وضع البذور الدينية لكل من الكونفوشية والتاوية خلال عصر الفلسفة، من القرن السادس حتى القرن الثالث قبل الميلاد. كان كونفوشيوس - الذى يعنى المعلم كونج - فيلسوف

الصين الأول الذى ولد عام ٥٥١ ق.م هو مؤسس الكونفوشية كمذهب أخلاقى واجتماعى ممزوج بالسحر، وقوى الخير / الشر. كانت الفضيلة فى المذهب الكونفوشى ليست مضادة للرذيلة وإنما هى فضيلة باطنية ملازمة. اهتم كونفوشيوس فى حديثه عن الخير وتهذيب القوة التى تولده وتساعد على تطبيقه، انبثقت التاوية من المصطلح الفلسفى الصينى "تاو Tao" بمعنى الطريق، أو النهج، أو أسلوب الحياة أو الواحدية، أو قوة الدفع وحركة الحياة. تتمثل أفرع الفكر التاوى فى الأجزاء المختلفة من كتب شوانج تسو، وليه تسو من عصر الفلاسفة. من الواحدية التاوية يكون الموت مظهراً للوجود، مثله مثل الحياة، أى استبدال صورة من صور الوجود بصورة أخرى، أو كما يقول شوانج تسو: "الحياة والموت شىء واحد، وكذلك الصواب والخطأ". من الفكر التاوى أيضًا أن السماء والأرض ظهرا إلى الوجود معا فأصبحت الأشياء جميعًا شيئًا واحدًا، ومن خلال هذا المنظور تكون كل الأشياء نسبية، وتتآلف جميع الأضداد، وتنسجم جميع المتقابلات، والتاو بمعنى الواحد هو التلقائية الشاملة لجميع الأشياء، فكل شىء هو كذلك من ذات نفسه، ومن ثم يستطيع التاو أن يفعل كل شىء بدون أن يفعل شيئًا. كانت البوذية، كالتاوية ديانة للخلاص. يتلخص جوهر العقيدة البوذية فى حقائقها الأربع الأساسية:

* الحقيقة المقدسة الأولى هى: أن الحياة شر، والوجود معاناة.
* الحقيقة المقدسة الثانية هى: أن الميلاد الجديد يعمل على إدامة الحياة. وأن الاشتياق والرغبة هما اللذان يسببان هذا الميلاد من جديد.
* الحقيقة المقدسة الثالثة هى: أن التحرر من الميلاد الجديد يمكن أن يتحقق بالتخلص من الرغبة والاشتياق.
* الحقيقة المقدسة الرابعة هى: أن ثمانى خطوات تؤدى إلى إيقاف شر الحياة، ويعتمد الطريق ذات الثمانى خطوات على الفهم السليم، والفكر السليم، والجهد الأخلاقى السليم، والانتباه السليم والتركيز السليم.

ومن ثم يوجد طريق واحد فقط للفرار من المعاناة، وهو الذى يؤدى إلى النرفانا Nirvana بمعنى الوجود المطلق غير المشروط، والذى يدوم دون أن يفضى إلى الموت أو إلى ميلاد جديد، ويأتى الخلاص عن طريق بوذا وتطبيق الشريعة Dharma البوذية.

كانت الآلهة موجودة بالفعل عندما وصل الهيلينيون بلاد اليونان، فكانوا يعبدون هيرا أى السيدة فى صورة الأم. كانت جزيرة كريت هى المركز الرئيسى للثقافة المبكرة، كما كانت للأم فيها مكانة عالية. كانت العقيدة هى عبادة الخصب حيث ارتبطت الآلهة بالقمر لما للقمر من ارتباط بالطمث وقوة النساء، كما ارتبط زوجها بالشمس. جاء الهيلينيون فى الألف الثانية قبل الميلاد وجلبوا معهم إله السماء العظيم ديوس Dyaus أو زيوس Zeus، السيد المسيطر والقائد الأعلى، وأب الآلهة والبشر. كان هناك أيضًا بعض التخصصات فى وظائف الآلهة: أفروديت تمثل قوة الحب، آرتيمس هى ربة الطبيعة البرية، أما أثينا فهى بالإضافة إلى خصائصها الحربية فهى ربة الحكمة وراعية الحرف الفنية، أما الإله أبوللو فهو مختص بالموسيقى والأدب والفكر، كما كان الإله هرمس مرشدًا للمسافرين والتجار.

يعتقد المؤرخون أن الإله العظيم الأول عند الرومان كان مارس Mars الذى أصبح فى عصور تالية يعرف كإله للحرب، كان الإله الثانى فى ثالوث الآلهة الرومانية قوة روحية غامضة، وكان يسمى كويرينوس والذى توحد مع روملوس Romulus المؤسس الأسطورى لروما. أما ثالث الآلهة فهو جوبيتر Gupiter الذى يسيطر على مجمع الآلهة ويحمل لقب "الأفضل والأعظم". كانت مهمة الدين فى روما تأمين رضا الآلهة عن طريق تقديم القرابين، وتأدية الطقوس المقدسة، وإقامة الاحتفالات فى المناسبات الدينية، التى كان يقدم فيها القرابين بأيدى الكهنة. شاركت روما الشعوب الشرقية فى تأليه حكامهم، وانتشر سحر مصر وبابل بعد أن زحف القياصرة شرقًا إلى بلاد الشام والعراق، وجنوبًا إلى مصر.

مارس زرادشت نشاطه فى بلاد فارس، خاصة فى الشمال الشرقى من البلاد. كان الإله عند زرادشت هو السيد المهيمن الحكيم، أهورا مزدا خالق السموات والأرض وهو الأول والآخر. تمثل تاريخ العالم فى الديانة الفارسية القديمة بالصراع بين الرب والشياطين. كتب جفرى بارندر فى كتاب "المعتقدات الدينية لدى الشعوب" عن تاريخ هذا الصراع طبقًا لديانة بلاد فارس: (ينقسم هذا التاريخ إلى أربع فترات تمتد كل منها ثلاثة آلاف سنة. فى الفترتين الأولى والثانية كان الله والشيطان يجهزان قوتهما. أما فى الفترة الثالثة فقد اشتبكا فى الصراع. وفى الفترة الأخيرة سوف ينهزم الشيطان فى النهاية... إن العالم ينتمى إلى الله نفسه، ولذلك فإن الزرادشتين، على خلاف أتباع بعض الديانات الأخرى، لا يعتقدون أن المادة شر. والواقع أن الشيطان، لا الكائنات البشرية، هو الذى يوجد فى عالم مادى غريب، وهو لا يستطيع أن يتخذ شكلا ماديا وإنما يبقى فى العالم متطفلا محاولا عبثًا تدمير أعمال الله).

السحر والخرافة

كان الخوف، هو الطريق السهل لظهور فكرة الآلهة فى عقول البشر قبل نزول الأديان السماوية. أرجع الإنسان الأول جميع الظواهر غير الطبيعية بالنسبة له مثل الموت، خسوف الشمس، الرعد، البرق، البراكين... إلى قوى خفية تحاول النيل منه. من هذا المنطلق نبع الدين، وتعددت الآلهة، من إله خير يساعد الإنسان ويعاونه، ويأمر بسطوع الشمس مرة ثانية، ويساعد فى الشفاء من الأمراض، وإله شرير يسبب المرض والدمار والموت والأذى للإنسان. حتى إن مخيلة الإنسان منذ عدة آلاف من السنوات قد توصلت إلى صراع عنيف بين قوى الشر وقوى الخير، تنتصر قوى الخير تارة، وتفوز قوى الشر تارة أخرى. لم يكن يعرف الإنسان القديم الجراثيم أو الميكروبات، كان يرى فقط الظاهر لنظره. كانت البويضة داخل المرأة والحيوان المنوى داخل

الرجل مجاهيل لا تعنى له شيئًا، لذا كانت عملية الحمل وتكوين الجنين فى رحم أمه ثم عملية الولادة من الظواهر الإلهية التى نظر إليها الإنسان بتقديس. لا عجب أن يضفى إنسان الحضارات القديمة فى مصر الفرعونية، وفى الهند وفى سومر وفى بابل وأشور، وفى الحضارتين اليونانية والرومانية، على الجنس كل الإجلال والتقديس. لقد عبد الفرعونى الكوبرا رمز الجنس، وكان الفيل فى الحضارة الهندية رمز القوى النابعة من الجنس. بدع الإنسان الطوطم على شكل الحيوان ليعبده ويستجدى منه العون والمساعدة أمام قوى الشر والخراب، ومن أجل زيادة الخصوبة.

لم تعد القوى البدنية والأسلحة البدائية تكفى جدودنا القدامى وهم يصارعون قوى أشد أو عدوا طاغيا، فبدؤا يتخيلون ويتوهمون - حتى صدقوا - أنه توجد قوى أخرى خفية تتمثل فى الآلهة أو فى الأبطال غير العاديين الذين يستمدون جبروتهم من السماوات المجهولة لهم. من هنا ظهرت أساطير جلجامش فى الحضارة البابلية، ورستم فى الحضارة الفارسية، وهرقل فى حضارة الإغريق. من صراع الآلهة نبعت الأسطورة التى كانت غالبًا ما تمزج الجنس مع الصراع. كانت الأسطورة تشكل ثقافة الإنسان القديم، وتمثل له علمه وعقيدته، من خلالها قام بتحليل وجود الظواهر الطبيعية وغير الطبيعية بالنسبة له، والتى تؤثر فيها سلبًا أو إيجابًا، شرًا أو خيرًا. لقد كانت جميع الظواهر نابعة من قوى خافية - بالنسبة له - احتار فى الوصول إليها. استغل بعض الخبثاء الكثير من عامة الناس ليوهموهم بأنهم وكلاء لهذه القوى، أو مندوبين للآلهة فى الأرض، ومن هنا ظهرت الكهانة، والسحر الذى تمكن من حكام الحضارات الأولى بعد أن سيطرت على عقول عامة البشر.

فى لحظات ضعف الإنسان، وامتزاج الأساطير بالجهل قد يلجأ إلى الغيبيات، والإيمان بالسحر معتقدًا بقواه الخارقة، فيتحول الإنسان إلى عاجز لا إرادة له. الملائكة كما ورد فى كتاب "الكائنات غير المنظورة" هى: (أجسام لطيفة نورانية، تتشكل بأشكال مختلفة، وهم مخلوقات غائبة عنا،

لا نراهم فى الأحوال العادية، قادرون على التشكل بأشكال جسمانية مختلفة ومرئية بالعين المجردة، ولهم قدرة خارقة). والجان كما ورد فى المرجع نفسه: (مخلوقات مجردة من المادة تمثل عالما بذاته، يختلف عن عالم الإنس.. إن الجن مخلوقات مريدة، منهم المؤمنون ومنهم الفاسقون، وأن لهم قدرة على التشكل، وأنهم يثابون ويعاقبون... للجن قدرة على التشكل بأشكال الإنسان والحيوان، فهم يتصورون بصور الإنس، والبهائم، والحيات، والعقارب، والإبل، والبقر، والغنم.... إلخ). أما كلمة شيطان فقد جاءت فى اللغة المسمارية فى ثقافة بين النهرين (البابلية والسومرية، والأشورية) باسم Satan إله الشر، وفى اللغة العبرية أصلها Shatan ومعناها المقاوم للرب الإله. ثم وصلت الكلمة فى العقائد السماوية (شيطان) كرمز للشر، وغواية إنسان بفعل الفحشاء، وقرين للسوء، وضال للإنسان،، وهو الوسواس الخناس الذى يوقع العداوة والبغضاء بين الناس.

مارس الإنسان السحر حتى فى عصور ما قبل التاريخ المكتوب، فقد وجدت حفريات مصرية قديمة فى عهد ما قبل الأسرات الفرعونية، تحتوى على أشكال لآلهة تحمل صوراً لحيوانات فى أوضاع خاصة قد تعنى الحصول على صيد وفير بأقل مجهود وأقل خسائر، وصوراً أو أشكالاً تمثل الجنسين فى أوضاع جنسية استخدمها الإنسان القديم كقرابين للحصول على القوة الجنسية وزيادة الإخصاب، وكثرة النسل. لقد آمن الإنسان القديم بالسحر بهدف الحصول على ما يحتاج إليه، وحمايته مما يخشاه من حيوانات ضارية وأرواح الموتى. كان للسحر احترام خاص، وكان الإيمان بالقوى الخارقة للطبيعة والإنسان أمراً لا يقبل الشك والجدال، واستغل بعض الناس من أصحاب الذكاء المتميز وجهل عامة البشر فى السيطرة عليهم، وظهرت طبقة السحرة، والكهان لتحكم وتبتز حتى إن سيطرتهم قد امتدت فى كثير من الأحيان على ملوك الزمان الغابر. تفتق ذهن السحرة والكهنة على القيام بطقوس سحرية، وتحضير تعاويذ تحمى من الأرواح الشريرة، وتقى الإنسان من مصائب الزمان.

من خلال الطقوس الدينية، والتفوه بكلمات مضغمة وغير مفهومة ولها رنين وقوة، أو إيقاع خاص يدعو إلى الانفعال وإثارة غرائز كامنة، تفتق ذهن السحرة والكهان أيضًا إلى ما أسموه أسماء القوة Names of Power. شرح الدكتور عبد الرحمن صلاح فى كتاب "العلم والسحرة" مصدر ووظيفة أسماء القوة: (تقوم فلسفة الكلمات السحرية أو أسماء القوة على أن استجلاب القوى الشريرة أو القوى السحرية لا يتأتى إلا باستدعاء بالاسم اللازم لها، وأن لكل شيء فى الكون اسمًا، سواء أكان شيطانًا، أو ملاكًا... ويقولون إن الإنسان له وضع متوسط بين الاثنين، وإن لكل إنسان قرينًا من الملائكة، وقرينًا من الشياطين، فإذا عرف الساحر كيف يمكنه السيطرة على الناحيتين أصبح أقوى منهما، وهو لذلك يستعمل كلمات تحمل أسماء الملائكة، أو الشياطين وبعضها فى كتابات مربعة، تحمل أحرفا مكتوبة بالطول والعرض بشكل محدود تؤدى الغرض منها - وهو ما يمكن أن نسميه مجازا بالأحجبة.. هناك كلمات يمكن تتبع أصولها مثل أسماء بعض الآلهة الوثنية، وهناك كلمات أخرى مصدرها من الكتب السماوية، وخاصة التوراة. فقد تحتوى الأسماء على مسميات قديمة للآلهة الكنعانية، مثل الإله بعل، أو شاموس، أو الآلهة الآشورية والبابلية مثل: أزموديوس، وشماس.... وهكذا. ولكن الكلمات الأكثر استعمالات أصلها عبرى وردت فى التوراة بالعبرية، ثم حرفت للغة التى يستعملها الساحر).

كتب عالم الآثار الدكتور سيد كريم فى كتابه "لغز الحضارة المصرية" عن ارتباط الدين بالسحر فى حضارات ما قبل نزول الأديان السماوية: (السحر القديم قدم الإنسانية نفسها، وأقدم من الحضارة التى انبثقت عنها... عرفه الإنسان عندما أحس بوجوده، عرفه بإحساسه عندما نظر إلى الطبيعة حوله فوجد نفسه محوطًا بقوى خافية خارجة عن نطاق فهمه وبعيدة عن مدى إدراكه. لم يكن فى استطاعته مقاومتها بما فى متناول يده من وسائل وإمكانات. حاول أن يستميل تلك القوى بالتضرع تارة وبالحيلة والفنون تارة

أخرى، فالعقيدة والسحر وليدا هذا المجهود الإنسانى المزدوج، وليدا ضرورة واحدة، فكان من الطبيعى أن يتقابل الدين والسحر فى أكثر من جانب من جوانب المجتمع، لذا فقد تركز السحر فى المعابد واعتبر علماً من علوم الكهنوت الذى تخصص فيه الكهنة وحدهم، كما أن الكثير من الطقوس الدينية ارتبطت بالسحر وتعاليمه، وتداخل السحر والدين معًا فى كتب الموتى والمتون الدينية وعلاقة الآلهة القديمة بالبشر. . . ارتبط السحر منذ نشأته بأساطير الخلق - خلق الحياة والوجود، والعوامل المكونة لهما، والقوى المحركة والمسيطرة عليهما. وقد نسب قدماء المصريين السحر ونزوله على الأرض إلى الإله تحوت إله العلم والمعرفة وحامل العلامات الإلهية والمعبود القمرى هرموبوليس، أول من أنزل كتب السحر المقدسة ووضع طلاسمه).

كان للسحر مكانة خاصة فى الدولة المصرية القديمة قبل عصور الأسر الفرعونية، وخلال الأسرات الثانية عشرة والثامنة عشرة. تقلد السحرة المتميزين أعلى مناصب الدولة من مستشارين لفرعون إلى أعضاء فى مجلس الحكماء. لم يقتصر السحر فى مصر الفرعونية على الرجال فقط، بل كان لبعض النساء معرفة بالسحر، وحمل بعضهم لقب عرافة المعبد. لقد سيطرت عقيدة السحر على المصريين القدماء كسيطرة العقائد الدينية نفسها، فكانوا يستعينون به فى شئونهم الدينية والدنيوية، كان من معتقدات السحر عند قدماء المصريين أن لكل آدمى قرينًا من الجن يلازمه فى الحياة ويتبعه فى الموت، ويسمى باللغة المصرية القديمة "كا" وكان يرمز له بذراعين مرفوعين، فالدنيا وفقًا لعقيدتهم مملوءة بقوى الأرواح المؤثرة، ويجب على الإنسان اتقاء شر الأرواح الشريرة. لم تندثر فكرة القرين والأرواح الشريرة من ثقافة المصرى الحديث، فكثيراً من المصريين ما زالوا يؤمنون بفكرة القرين، وبقوة الحسد.

كتب الدكتور سيد كريم فى المرجع السابق عن تداول وانتشار القصص الأدبية المرتبطة بالسحر خاصة فى عهد الدولة الحديثة فى الأسرة الثامنة عشرة

(١٥٧٠ - ١٣٠٠ق. م) ومن أشهرها قصص سحر الاستخارة التى كان يقوم بها الملوك والقواد قبل خروجهم للحرب، ومنها قصة "كامس" الذى خرج لقتال الهكسوس بناء على أمر آمون ذى الرأى السديد والذى جاء له فى المنام. أيضًا ما ذكرته الملكة حتشبسوت من أنها أرسلت بعثتها إلى بلاد بونت (شرق إفريقيا) بوحى من آمون. كان تحتمس الثالث يقوم باستخارة الإله آمون ليحدد له ميعاد غزواته وينبئه بما سيحققه من انتصارات.

كانت التمائم والأحجبة هى العنصر المادى فى فاعلية قوى السحر، أو الواسطة التى تنقل مفعول السحر إلى الإنسان لحمايته فى حياته الدنيوية وفى رحلته فى العالم الآخر. كان قدماء المصريين يحملون هذه التمائم وهم أحياء ويضعونها على أجساد الموتى اعتقاداً منهم بأن لها من القوى السحرية ما يدفع عنهم الأرواح الشريرة. كانت التمائم توضع أيضًا فوق أعتاب المنازل، وتحت عتبات الأبواب، وفى داخل حجرات البيت. كانوا يضعونها فى أماكن نومهم، وتحت الوسائد، وفى أماكن ممارسة أعمالهم اليومية. كانت صناعة التمائم من الصناعات الرائجة فى مصر القديمة، وكان لكل لون دوره السحرى المؤثر، فاللون الأخضر لتمائم الصحة والشباب، والأزرق لمنع الحسد وطرد الأرواح الشريرة، لذا كان الكف الحارس (الخمسة وخميسة)، وأوزات (العين المقدسة) تصنع من الحجر الأزرق اللامع أو حجر الفيروز.

كان المصريون القدماء يعتقدون أن كل داء من أعمال الأرواح الشريرة التى تسلط بقواها الخبيثة على الأجسام فتصيبها بالأمراض، وعندما تواجه هذه القوى الخبيثة بقوى السحر الأقوى فإنها تنهزم وتخرج من البدن فيشفى المريض. لذا كان السحر من العلوم التى تدرس فى المدارس وفى المعابد بجانب الطب والكهنوت. كشفت حفريات الدولتين القديمة والوسطى بصفة خاصة عن الكثير من برديات السحر المرتبطة بالحب، فقد كان قدماء المصريين يعتقدون بأن الحب قوة خفية متقلبة لا يمكن السيطرة عليها. احتوت البرديات على الكثير من الوصفات والصيغ السحرية التى وضعت فى خدمة إله الحب،

والتي نسبت إلى إله المعرفة والسحر ناحوتى، وإلى إله الحب والجمال حتحور، وقد ذكر فى هذه البرديات أن مجرد تلاوة صيغة معينة وممارسة ما يرتبط بها من طقوس وتعاويذ، كان كافيًا لأن تقع المرأة فى حب من يتلو هذه الصيغة. لقد اتسمت الحضارة المصرية القديمة بسيطرة الدين، والسحر، والمعتقدات على جميع مقومات حياة المجتمع، وظهر جليًا دور السحر فى الأدب والفن المصرى القديم، وفى ممارسته لعلوم الطب والفلك والتنجيم والكيمياء والرياضيات وعلى علوم البناء والعمارة.

تسائل ول ديورانت عن ارتباط الجهل والإيمان بالخرافات، بالقدرة العقلية والفقر فى موسوعته "قصة الحضارة": (هل الناس فقراء لأنهم جهلاء، أم جهلاء لأنهم فقراء؟... تلك مسألة انقسم عليها الفلاسفة السياسيون إلى محافظين يؤكدون عامل الوراثة - التفاوت الفطرى الموروث فى القدرة العقلية - ومصلحين يعتمدون على البيئة وأهمية التعليم وإتاحة الفرصة. وبازدياد الثروة وتوزيعها ينمو العلم ويتقلص ظل الخرافة. ومع ذلك فإنه حتى فى البلد المزدهر ازدهاراً كبيراً وبخاصة بين الفقراء المنهوكين والأثرياء الخاملين نجد أن الفكر يعيش فى متاهة من الخرافات: علم التنجيم، دراسة المعانى السحرية أو التنجيمية للأعداد، قراءة الكف، الحسد، السحرة، الغيلان، الأشباح، العفاريت، التعزيم لاستحضار الجن، التعاويذ والرقى، تفسير الأحلام، الكرامات والمعجزات، الشعوذة والدجل، الخصائص الخفية الشافية أو المؤذية للجماد والنباتات والحيوانات. فلتتدبر إذًا الجو الخانق الذى يسمم جذور العلم بثماره، فى شعب ذى ثروة ضئيلة أو مركزة فى أيدى فئة قليلة. إن الخرافة لدى ضعاف الأجسام والعقول عنصر ثمين فى قصيدة الحياة، تضيء أيامهم الكئيبة بالأعاجيب المثيرة، وتخفف من بؤسهم بالقوى السحرية والأمانى الخفية.... قد تولد الديانات وقد تفنى، ولكن الخرافة باقية أبد الدهر. وسعداء الحظ هم الذين يحتملون العيش بدون أساطير، والكثير منا يعانى فى جسمه وفى أعماق نفسه، وأفضل عقار مسكن فى الطبيعة جرعة مما هو فوق الطبيعة).

الطوطميـــة

الطوطمية Totemism عقيدة تقسم الجنس البشرى والطبيعة إلى طبقات وأنواع، أو طوائف، أو منازل مختلفة. تربط الطوطمية ثقافة مجتمع ما مع شىء خاص به قد يأخذ شكل التماثيل الحجرية أو الأقنعة الخشبية، لتشكيل وضع معين، أو وصف تعبير معين، لحيوان أو نبات أو بشر. جاءت الكلمة فى اللغة الإنجليزية من قبيلة فى أمريكا الشمالية - الهنود الحمر - قبل اكتشاف الأوروبيين لها. تعتبر الأوثان والتماثيل التى كانت تعبد فى الحضارات القديمة شكل من أشكال الطوطمية.

يعتبر الطوطم شىء مقدس نابع من العشيرة أو القبيلة، له كل التقديس والتبجيل والعبادة، وقد يحمل الطوطم اسم القبيلة أو تطلق عليه القبيلة اسم خاص به. فى الغالب ما تدور أساطير عديدة عن أصل الطوطم وقدراته الخارقة. إذا أخذ الطوطم شكل حيوان، فيعتبر هذا الحيوان مقدس، لا يستطيع أحد فى القبيلة إيذاءه، ولكنه قد يذبح ويتناول لحمه أعضاء القبيلة من خلال طقوس دينية. يتوارث الأبناء عضويتهم الانتمائية للطوطم الذى يعبدونه، ويعتبر جميع الأعضاء إخوة فى الدم لانتمائهم إلى الأصل الواحد، وهو الطوطم. تعتقد بعض القبائل الطوطمية فى وجوب الزواج من الغرباء Exogamous وذلك لعدم الجواز لأفراد القبيلة التابعين لطوطم واحد أن يتزاوجوا، وكذلك لنشر الانتماء للطوطم الذى يعبدونه.

أدخل عالم النفس النمساوى سيجموند فرويد تعبير الطوطم فى علم النفس، وأرجع إلى النظام الطوطمى امتناع الاتصال الجنسى بين من تحرم الأديان الزواج بينهم من ذوى القربى Incest. استخدم فرويد أيضًا كلمة تابو Tabu / Taboo بمعنى المحرم / المقدس / النجس / الملعون / المحرم، وذلك للدلالة على تحريم غشيان المحارم.

تناسخ الأرواح

هى عقيدة من عقائد الديانة الهندوسية العديدة، يطلق عليها البعض مصطلح "تجوال الروح" أو "تكرار المولد"، والتناسخ هو رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلى العالم الأرضى فى جسم آخر. وسبب التناسخ هو: إما أن الروح خرجت من الجسم ولا تزال لديها شهوات مرتبطة بالعالم المادى، أو أن الروح قد خرجت من الجسم وعليها ديون فى علاقتها بالآخرين لا بد من أدائها.

كتب الدكتور أحمد شوقى عن تناسخ الأرواح فى كتاب "أديان الهند الكبرى": (الميل يستلزم الإرادة، والإرادة تستلزم الفعل فى هذا الجسد، وإن لم يصلح هذا ففى جسد غيره، فقد خلقت الميول لتستوفى، وإذا لم تستوف لم ينج الإنسان من تكرار المولد، وإذا اكتملت الميول ولم يبق للإنسان شهوة ما، وأزيلت الديون فلم يرتكب الإنسان إثما ولم يقم بحسنة تستوجب الثواب، نجت روحه وتخلصت من تكرار المولد.. فجسد الإنسان المادى هو الذى يولد من جسدى الوالدين، وأما الذى يحركه ويسيطر عليه فجسد لطيف يتركب من القوى الأساسية والحواس والقوى الآلية المحركة، والعقل. فإذا حدث الموت، مات الجسد المادى وتوقف وبلى، أما الجسد اللطيف فلا يموت بل يخرج ويعمل مدة من الزمن فى آفاق الكون اللطيفة التى تشبه حالة أحلامنا، فيجرب هناك الجنة والنار التى تكلمت عنها الكتب الدينية، ثم يعود - مسوقًا بالميول والأعمال الماضية - إلى الحياة متقمصًا جسدًا جديدًا، وتبدأ بذلك دورة جديدة لهذه الروح، وتكون هذه الدورة نتيجة للدورة الماضية، ويسعد أو يشقى نتيجة لما قدم من عمل فى حياته السابقة... إن الروح فى عالمها الجديد لا تذكر شيئًا عن عالمها السابق، فكل دورة منقطعة تمامًا بالنسبة للروح عن سواها من الدورات).

الأدب والأساطير

الأدب

يطلق لفظ الأدب، بمعناه العام على كل ما صاغه الإنسان فى قالب لغوى ليوصله إلى الذاكرة. يعتبر الأدب Literature واحداً من أعظم الوسائل الإبداعية الشاملة للتواصل العاطفى والروحى، أو العقلى فى المنظومة البشرية، مثلها مثل الموسيقى والرسم، وغيرها من الفنون، ولكن الأدب يظهر فى صور من الأفكار، والتشبيهات، والدراما أو الكوميديا، أو أى صور أخرى إبداعية تثير عاطفة الإنسان. تستخدم الرمزية Figurativism فى الأدب والنقد الأدبى لتأكيد معنى معين والتركيز عليه. يأخذ الرمز Symbol الصورة الاستعارية أو المجازية بغرض التوضيح والمقارنة. يتميز الأدب الراقى بالتخيل، والمعنى الهادف، والتعبير المتقن، والأسلوب الجيد الذى يثير الأحاسيس والمشاعر. بالتعريف العام والواسع للأدب فإنه قد يأخذ شكل النثر Prose، أو الشعر Verse . وبين هذين التصنيفين فالأدب قد يأخذ أشكال وصوراً عديدة مثل: القصيدة النثرية Prose - Poem، أو الرواية / القصة الطويلة Novel، أو المسرحية Play، أو القصة القصيرة Short Story، أو المقالة Essay، أو قصص الأطفال، أو النوادر، أو السيرة الحياتية Biograph، أو قصيدة من الشعر الغنائى الشعبى Lyric Poetry، أو القصيدة القصصية Narrative Poetry، أو الملحمة Epic أو الحكاية الشعبية Folktale، أو الأسطورة Myth، أو القصص الخرافية وقصص الخوارق.

قد يأخذ الأدب الشكل الإرشادى (تعليمات ونصائح)، أو الشكل الإعلامى/الإخبارى، أو الشكل الترفيهى، أو يعبر عن الألم أو الفرح الإنسانى، وقد يتناول الأدب الموضوعات الاجتماعية، والعقائدية/الدينية، والسياسية والجمالية إلى آخره من المجالات المختلفة التى تثير مشاعر وأحاسيس الإنسان. أما العشق، فإنه كان يملأ الكثير من قصائد بعض الشعراء القدامى مثل امرئ القيس إلا أنه تميز بالإباحية فى العصر العباسى من

خلال شعراء الخلاعة و المجون مثل أبى نواس وبشار بن برد.

الأدب هو صناعة إثارة الانفعالات فى وجدان القراء والسامعين والمشاهدين، لذلك يعتمد الأدب على الخيال والمبالغة، والاستعانة بالتعبيرات المجازية، والتشبيه والكناية والاستعارة، إن الأديب لا يتحدث حديث الشخص العادى المجرد كلامه من التصوير، ولكن يتحدث حديثا تصويريا، يختلف باختلاف الموقف والمعنى، وباختلاف الشخصية والسلوك. أيضًا تختلف المادة اللفظية فى الأدب عن مادة الحديث العادى، فالصورة الذهنية لدى الأديب ليست صورة طبيعية مجردة، ولكنها صورة تمتزج فيها الحقيقة بالخيال والأحاسيس الخاصة للأديب، مما قد يحولها إلى صورة ذهنية تختلف تمامًا عن الصورة الواقعية. إن رسم صورة أدبية أو قصيدة لوردة حمراء اللون قد يحوى صفحات عديدة، فى وصف حزن الوردة أو خجلها، أو فى عبيرها الذى ينشى الصدور، أو اقتطافها من أحضان أقرانها، إلى آخره من التعبيرات التى تثير العواطف والأحاسيس الانفعالية. إن الأديب لا يرتبط بالحقيقة، أو بالكذب ولا بالصدق، فالأدب يملى عليه إثارة المشاعر للتغلغل داخل الوجدان. كتب الدكتور شوقى ضيف فى كتابه "البحث الأدبى": (ينبغى أن يلاحظ أن الصدق والكذب إنما هما نمطان أخلاقيان، ولا علاقة للأخلاق بالأدب، وإلا كنا كمن يتحكم فى المسائل الرياضية إلى الأخلاق فيقول: إن المثلث المتساوى الضلعين أصدق وأجود أخلاقًا من المثلث المتساوى الأضلاع. وعلى هذا النحو ينبغى الا نُحكم الأخلاق والصدق والكذب فى الأدب لسبب طبيعى، وهو أنه لا يقصد به إلى الوعظ والتربية الخلقية، وإنما يقصد به إلى التأثير فى العواطف والمشاعر، ولذلك كان من الخطأ أن نُحكم فيه المسائل الأخلاقية وأختها الاعتقادية، وتنبه أسلافنا تنبهًا دقيقًا إلى ذلك، فكانوا يروون الشعر الجاهلى الوثنى الذى نظمه الجاهليون فى العصور الغابرة، كما كانوا يروون شعر الخمر والمجون الذى نظمه معاصروهم من العباسيين، وعلى نحو ما رووا للشعراء المسلمين رووا للشعراء المسيحيين من

أمثال الأخطل. وكأنهم أحسوا فى عمق بأن للشعر مجاله العاطفى الخاص الذى يفصله عن كل مجال سواه من أخلاق وعقيدة ومن حق وباطل ومن صدق وكذب، فلم يحكموا فيه شيئًا من ذلك كله إذ رأوها جميعًا مقاييس خارجة عن دائرته العاطفية). وبالرغم من ذلك لا ينفصل الأدب عن المجتمع الذى يعيش فيه، لأنه يمثل المجتمع، ويطرح أفكاره ومبادئه، وقيمه، ويتعايش مع عاداته وثقافته. إن روعة الأدب تنبع من مناخ الحرية، ولكن يظل دائمًا مرتبطًا بتقاليد المجتمع.

كتب الدكتور شوقى ضيف فى المرجع السابق: (ومن هنا كان الأدب ذاتيًا غيريًا فى الوقت نفسه، فهو ذاتى فى صدوره عن صاحبه وأحاسيسه ومشاعره، وهو غيرى فى تصويره لمشاعر الناس وأحاسيسهم وكل ما يموج به مجتمعهم من قيم مختلفة، وبذلك كانوا حين يقرءون أدبيًا لا يقرءونه وحده وإنما يقرءون أنفسهم وأنفس من حولهم، وكانوا يعيشون أحاسيسهم وأحاسيس مجتمعاتهم. وهو ما يجعل قصيدة معينة لشاعر مثل شوقى تصبح مجموعة من القصائد بعدد من يقرءونها، فكل منهم تنعكس لها صورة فى نفسه تخالف صورها فى أنفس الآخرين، إذ تتحول فى يد كل منهم إلى ما يشبه مرآة يرى فيها شوقى ويرى المجتمع ويرى أيضًا نفسه). جعل الاتساع فى معانى الكلمات الأدبية، كل فرد يحملها - من خلال شخصيته الفردية - المنظور الخاص به. لذا لا عجب أن يختلف النقد الأدبى، ويختلف التفسير المفهومى من فرد لآخر.

ذهب الدكتور شوقى ضيف إلى منظور آخر للتشكيل الأدبى وهو المنظور السمعى أو الصوتى: (وللكلمات الأدبية بجانب معنيها البيانى واللغوى معنى ثالث صوتى أو بعبارة أدق معنى موسيقى، وهو معنى الجأ الأدباء إليه من قديم أنهم أرادوا أن يتلافوا ما فى كلماتهم من نقص فى الأداء العاطفى، فاحتالوا على إكماله بالجرس الموسيقى، وبالغ الشعراء فى ذلك الغاية، إذ ما زالوا يصفون فى نغمات ألفاظهم وعباراتهم حتى اكتشفوا الأوزان الشعرية،

وتبعهم الكتاب يصفون، منذ وجدوا، في كلماتهم وأدائها الصوتي ملائمين بين حروفها وحركاتها، وتكامل ذلك عند العرب في النظام النثري المعروف باسم السجع).

يهدف علم الأدب إلى العناية بفهم ما كتبه شعب من الشعوب، والذي يمثل ثقافة وحضارة ذلك الشعب، كما يهدف أيضًا من منظور الكتاب الواحد إلى تفهم خصوصية المؤلف والمؤثرات المحيطة التي يعيش فيها. جرى العرف في الثقافة العربية إلى فصل تاريخ الأدب العربي إلى عصرين: الأول هو عصر الجاهلية، والثاني هو عصر الإسلام. وعلى الرغم من التشتت الظاهر للعرب اجتماعيًا وسياسيًا، إلا أنه ربطت بينهم قبل الإسلام وحدة في الأفكار والعادات التي شكلت ثقافتهم البدوية المميزة بولعهم للشعر. كان الشعر العربي فنًا مستوفيًا لكل عناصر النضج الفني والكمال التعبيري. ساعد ثراء اللغة العربية على سهولة التعبير عن أرق الأحاسيس العاطفية، وأقوى خوالج الشعور، وأكثر البطولات القتالية عنفًا، وتصوير أدق تفاصيل وحلات الصيد والقنص، وخلافه من الأمور الحياتية الأخرى التي عاشها العربي في الصحراء أو في الحضر. كان العرب يصفون إبلهم وخيلهم مستعملين أسماء وألفاظًا خاصة لألوانها وعمرها وخصائصها. كان الأدب العربي المفعم بالحماسة والشجاعة في الصيد والحرب له تأثير سحري على العنصر البشري العربي الذي عاش في بيئة جافة يملؤها الصراع ضد عوامل الطبيعة الفنية. أما قصص الحب العفيف والعشق المستتر، فإنه كان يملأ الكثير من قصائد الشعراء القدامى، مثل: امرؤ القيس، وعنترة بن شداد، وكُثيِّر، إلا أنه قد تطور في الاتجاه الإباحي في العصر العباسي الذي تميز بالخلاعة والمجون. لم يكن الشعر وحده هو الذي تهفو له النفوس عند عرب الجاهلية، بل كان للقصاص أيضًا مقام مهم إلى جانب الشاعر في سمر الليل بين مضارب الخيام، وفي مجالس أهل القرى والحضر. كان القصاص يستمد قصصه من الأساطير والخرافات السائدة، ومن الأخبار والأحاديث الخرافية والتاريخية

المأثورة عن العـرب وعمن جاورهم. لم يحفل الـقاص بالدقة التاريخـية مثل اهتمامـه بعنصر التشويـق وتمجيد القبيلـة. ظهرت قصة زانوبيا مـلكة تدمر، وملاحم عنتـرة بن شداد فى قتالـه الذى تغلب فيه علـى آلاف من الجنود من أجل الحصول على نوق ليقدمها مهراً لمحبوبته عبلة بنت مالك. كانت الجاهلية العربية تقدس رموز القوة والعظمة.

ظهرت الحـركة الرومانـسـية Romanticism فى الأدب والفن عـامة، فى معظم دول العالم الغربى، وفى بعض الدول الأخرى فى نهايات القرن الثامن عشر وفى الـقرن التاسع عشر. جـاءت الموجة الأولى من إنجلـترا وألمانيا من خلال المدرسة الشعرية التى تميزت بالحزن والعاطفة الجياشة، وبعد أن بشر بها الفيلـسـوف الفرنـسى روسو والكاتب الإنجليـزى شافتـبرى. نمت الرومـانسية كحركة رافضة: لمظاهـر الكبت والتقيـد والتقاليد والتزويـق، ومذهـب الحقيقة الموضوعيـة، والمذاهب العقلانية. نـادت الرومانـسـية بفك الارتـبـاط بالأشكال والصور الجامدة والثـابتة للتعبير الفنـى، داعية للتعبير الشـعبى وأسلوب الفن النابع من الفـطرة البدائية والحيـاة البـسيطة المرتبطة بـالجذور الطبيعـية للإنـسان Primitivism. رأت الحركة الرومانـسـية أن الفن يجـب أن يضفى على الطبيعة العفويـة غير المرتبة، والـسـمة العاطفيـة والـسمو، Sublime والتأمل الروحى Mysticism، والنزوع إلـى الحزن Melancholy، وتمثـيل الطبـقة العـادية، والاسـتعـانة بالأغانى الشـعـبية والعـاطفية البـسيطة Ballad، وإظهار الجمال الطبـيعى فى المجال الفنى والأدبى. إذا كان أدبـاء وكتاب الحركة الكلاسـيكية/ التقليدية الجديدة Neoclassic قد رأوا أن جميع أشكال الفنون ما هى إلا مرآة للطبيعـة، إلا أن الرومانـسيين قد اعـتقدوا واقتنعوا بأن الفن مـا هو إلا شعلة مضيئة نابعة من الذات الداخلية للإنـسان، وأن الحقيقة النابعة من داخل النفس البشرية يجب أن تعلو فوق الإدراك الحسى والمنطق، فالتخيل والفكر الإنـسانى والتفاعل مـع البيئة والمجتمع، كـلها وسائل وأدوات للفنان نابعـة من مصدر خصـب للمعـرفـة والإبـداع، وهـو ذات وروح الإنـسـان. كـان يـرى

أصحاب الحركة الرومانسية أنه لو حكم العقل المجرد وحده الفكر الإنسانى، فسيعيش الإنسان أسير أنانية ظالمة وكريهة، وسيمضى فى دوامة من الذاتية الفردية، منعزلا وحيداً، ولن يشعر بمصلحة أخرى غير مصلحته الشخصية.

واكبت الحركة الرومانسية الاتجاه العام نحو الفردية فى أوروبا، والتى تميزت بالتركيز على خبرات ذات معنى وهدف فى كل مجالات الحياة، وفى كل أشكال الفن والأدب الذى يحوى قيمًا نابعة من الشعور الأصيل للإنسان. عبرت الرومانسية - فلسفيا - عن الفكر الأفلاطونى، وعن الأفلاطونية المحدثة، وعن خلاصة فكر الفيلسوف الألمانى كانط، وعن الفلسفة الألمانية والتى كانت تسمى ما بعد الكانطية Post - Kantian.

الأسطورة وعلم الأساطير Mythology

تعرف الأسطورة Myth بكونها قصة رمزية تتداول على أنها وقائع لها جذور حقيقية، داخل مجتمع يعيش بتقاليد وثقافة تعتمد على الروايات الشفهية. فى الغالب ما تختص الأسطورة بأحداث خارقة للعادة، أو أشياء غير طبيعية، أو بطولات مذهلة، تحكى فتنال الإعجاب والاندهاش من عامة المجتمع الذى يتداول الأسطورة، تعتبر الأسطورة مصدراً غنيًا ومهمًا للإلهام فى مجال الأدب، والدراما، والفنون عامة. تتعلق الأسطورة بصورة أكبر بالقصص الشمولية الخاصة بأصل الكون / العالم، وأصل الحياة، وما بعد الموت، والآلهة والمعابد. قد تأخذ الأسطورة أشكالاً أخرى من الأدب الشفهى الفولكلورى Folklore، أو الحكايات الشعبية، أو الإشاعات، أو الخرافات Legend، ولكن تتميز الأسطورة عن العناصر السابق ذكرها بشيئين مهمين:

* أن الأسطورة تتداول فى المجتمع الذى نبعت منه كقصة حقيقية، ولكن قد تتداولها المجتمعات الأخرى كأدب شعبى وليس كحقيقة ثابتة.
* أن الأسطورة قد تحقق الشمولية واللانهائية من خلال البعد الأولى والبعد النهائى للخلق، واللتان يبنى عليهما ثقافة وعقيدة المجتمع.

قد تظهر الأسطورة فى شكل غير عقلانى، أو فى صورة لا يمكن تصديقها، ولكنها تمثل القواعد الأساسية لمبادئ، وقيم، وثقافة الإنسان. كذلك تمثل الأسطورة التفكير البدائى والأولى للبشر، والذى قد يكون قد اندثر وتم نسيانه عبر القرون وخلال رحلة الزمان. قد تأخذ الحكاية الشعبية أو الرواية المحبوكة شكل الأسطورة ولكن لا تعطى الإحساس بالزمن مثل الأسطورة، فالحكاية الشعبية قد تنطبق على حدث فى أى زمان أو أى مكان، ولكن الأسطورة تتعلق بزمن معين ومكان معين. تحاول الأسطورة إعطاء مغزى أو إسقاط معنى للحدث الذى يتناوله المجتمع ويعتبره حدث مهم بالنسبة له، أو متصل بمشاكله الحالية. أيضًا قد توجه الأسطورة لتغذية الأمل فى مجتمع يائس، أو قد توجهه فئة من المتفعين لتثبيط الهمم.

قد تختلف الأسطورة فى طبيعتها، ولكن تعتبر الأسطورة المتعلقة بالكون وخلقه أكثر الأساطير الشعبية انتشاراً، خاصة فى الحضارات القديمة. كان الماء هو المادة الأساسية للخلق فى الحضارة العبرانية القديمة وفى معتقدات سكان أمريكا الأصليين. فى الأساطير الهندية والصينية كان العالم يأخذ صورة "البيضة"، ومن هذه البيضة ظهرت الألهة وظهر الإنسان. أما فى الأساطير البابلية فكانت البداية تتمثل فى عالمين، هما عالم الخير وعالم الشر. ترددت الثنائية أيضًا فى أساطير قدماء المصريين مثل إيزيس وأوزوريس. من هذه الأساطير ظهرت الألهة فى الحضارات القديمة فى أشكال إلهية أو نصف إلهية، قد تأخذ جزءاً من الطابع الإنسانى من التسامح والرحمة، أو تتجسد فيها قوة غير عادية، أو قد يكون لها طباع الشر البشرية. من القصص التى انتشرت فى أكثر من ثقافة هى قصة الطوفان الذى غمر الأرض، والسفينة التى حوت بعض البشر المتقين، وكذلك جميع أنواع الحيوانات، ليعمروا الأرض بعد انحسار المياه. أيضًا جاء فى أساطير مختلفة بأن نهاية العالم ستكون من خلال معركة نهائية بين/ الرب/ الإله الأعظم. وبين الشيطان/ الشر، وستنتهى هذه المعركة - طبقًا للأسطورة - بانتصار الخير ممثلا فى الخالق الذى سيسوق البشر، إما إلى الجنة أو إلى الجحيم.

حاولت الأسطورة فى قديم الزمان أن تفسر بالتخيل بعض الظواهر الطبيعية، وتجيب عن بعض الأسئلة التى قام العلم بدوره فى تفسيرها والإجابة عنها فيما بعد، لذا كانت الأسطورة تمثل شكلاً مبسطًا وبكرًا للعالم. قد يتداخل تعريف قصص الخوارق أو الأحداث غير العادية Legends مع تعريف الأسطورة لوجود عناصر مشتركة بينهما، فقصة هرقل مثلا يمكن اعتبارها قصة من قصص الخوارق لبطولة وقوة هرقل الخارقة، كما يمكن اعتبارها إلى حد ما من الأساطير، وذلك من وجهة نظر أن هرقل كان شبيهًا بالآلهة. صنف فوزى العنتيل فى كتابه "عالم الحكايات الشعبية" قصص الخوارق على النحو التالى:

* قصص الخوارق المفسرة Explanatory Legend، والتى تتصل بالخلق أو النشأة وهذه القصص قد تتطابق مع الأسطورة.
* القصص التى تتعلق بالكائنات الخارقة مثل الجنيات والأقزام والأشباح.
* قصص الخوارق التى تدور حول الشخصيات التاريخية أو الملفقة.

قد تندرج حكايات الأعمال البطولية والملاحم الشعبية Saga تحت المفهوم العام للأساطير وقصص الخوارق، فهى ترتبط بأفعال بطل من أبطال التراث الشعبى الذى يسلم جدلا بوجوده. إن مصطلح (حكاية البطل) يطلق على حكاية تتعلق بشخص حقيقى أو مكان أو ظاهرة أو طقوس قد ألهبت مشاعر عامة الناس. كانت الحرب هى حرفة هؤلاء الأبطال، ونمط الحرب فى هذه الحكايات يعتمد على البساطة، ويرتكز على شجاعة البطل أكثر من ارتكازه على خطة عسكرية استراتيجية. أما بالنسبة للحكاية الشعبية فقد كتب عنها فوزى العنتيل فى المرجع السابق ذكره: (يستخدم مصطلح حكاية شعبية Folktale للإشارة إلى الحواديت أو حكايات الجنيات مثل سندريلا وسنوهوايت. كما يستعمل كذلك بمعنى أكثر اتساعًا ليشمل جميع أشكال المرويات النثرية التى توارثتها الأجيال، سواء كانت مدونة أو شفوية، وهو بذلك ينطبق على أشكال متنوعة من القصص مثل أساطير الخلق عند الشعوب

البدائية، والحكايات الإطارية المتقنة فى ألف ليلة وليلة... على أن السمة الأساسية للحكاية الشعبية هى كونها مأثورة).

الحكايات الشعبية

الحكاية الشعبية هى حكاية نثرية مأثورة انتقلت من جيل إلى جيل، سواء كانت مدونة وتروى بواسطة مؤلف نقلا عن مؤلف آخر، أو اعتمدت على الكلمة المنطوقة تنتقل من شخص إلى شخص آخر، وتظل الحكاية تسمع وتروى بإضافات أو بدون إضافات أو تغييرات يدخلها الراوى الجديد عليها.
بدأت الدراسة العلمية للفولكلور فى مستهل القرن التاسع عشر كنتيجة للحركة الرومانسية التى بدأت فى الانتشار فى أوروبا، والتى اهتمت بفروع الثقافة الشعبية التى تمثل روح الشعب وتعبر عنها مثل اللغة والأدب والشعر والحكايات الشعبية. كانت نظرية ولهلم جريم فى منتصف القرن التاسع عشر أن الحكايات الشعبية ميراث من الماضى البعيد المشترك للشعوب الهندوأوروبية، وأن هذه الحكايات ما هى إلا بقايا أساطير، وليس من الممكن فهمها إلا من خلال التفسير الصحيح لهذه الأساطير من مصادرها الأصلية.
أما المدرسة الميثولوجية فقد اعتبرت أن الحكايات الشعبية والأساطير - وبخاصة أساطير الطبيعة - هى نتاج آرى، وأنها موروثات باقية من الأساطير القديمة، وأن العناصر المشتركة بين الحكايات تتضح معالمها من خلال الأصل الشعبى المسمى بالهندو - جرمانى، أو الآرى.

انهارت نظرية الأصل الآرى للحكايات الشعبية والأساطير خلال القرن التاسع عشر مع ظهور الحكايات والأساطير غير الآرية. فى منتصف القرن التاسع عشر، أثرت التغيرات الاتجاهية من الرومانسية إلى الواقعية فى الدراسات الفولكلورية. نسبت هذه التحولات إلى التقدم العلمى والصناعى والتجارى فى أوروبا، وكذلك إلى تقدم علم الاستشراق الذى كشف عن كثير من الظواهر فى الشرق فى ميدان اللغة والدين والأدب المشابهة لنظائرها فى

الحياة الشعبية الأوروبية. أكدت هذه الدراسات المشابهة على ضرورة تفسير هذه النظائر بطريقة جديدة خاصة فى موضوعات الحكايات الشعبية، نظراً لما تبين من عدم إمكانية شرحها فى ظل مفهوم المدرسة الميثولوجية.

كتب فوزى العنتيل فى كتابه "عالم الحكايات الشعبية" عن تحول اهتمام الباحثين الأوروبيين المعنيين بآداب الهند القديمة من أغانى "الفيدا Veda" إلى الأدب الروائى فى الفترة السنسكريتية، وكانت النتيجة المباشرة لذلك هى اكتشاف كثير من حكايات الجان الأوروبية المعروفة فى صلب المجموعات الهندية. وقد أدت هذه الحقائق بتيودود بنفى Benfey إلى أن يعلن عام ١٨٥٩ نظريته الشهيرة القائلة بالأصل الهندى لحكايات الجان وارتحالها إلى أوروبا. وقد رد بنفى أسباب التشابه الغريب بين الحكايات السنسكريتية والحكايات الشعبية الأوروبية وغير الأوروبية إلى الاقتراض Borrowing وارتحال النصوص. وقد قرر بنفى بأن الهند هى موطن الحكايات الشعبية، واعتقد أن انتشار هذه الحكايات قد اتجه نحو الغرب خلال ثلاث قنوات:

أولاً: طائفة منها انتشرت عن طريق التراث الشفوى قبل القرن العاشر.

ثانياً: بعد القرن العاشر عن طريق التراث الأدبى على طول حدود النفوذ الإسلامى، وبصفة خاصة عبر بيزنطة وإيطاليا وأسبانيا.

ثالثاً: المادة الأدبية النابعة من الثقافة البوذية عبر الصين والتبت، أو مباشرة عبر المغول ومنهم إلى أوروبا.

أشار بنفى إلى المراحل المتعددة التى كان للشرق فيها على وجه الخصوص تأثير قوى على الغرب الأوروبى مما ساعد على استمرار الاقتراض. وفى رأيه أن هذه الصلات الثقافية قد مرت بأطوار مختلفة، أولاً: عصر فتوحات الإسكندر المقدونى، ثم العصر الهيلينى الذى تلاه من منتصف القرن الرابع إلى القرن الثانى قبل الميلاد. ثانياً: فترة الفتوحات العربية والحروب الصليبية التى تمتد على مدى القرن الثانى عشر الميلادى، وسرعان ما وجدت نظرية بنفى عديداً من الأتباع فى كل الأقطار، وكان لها أثرها القوى على دراسة

الحكايات بوجه خاص. وأصبح من مشاغل الفولكلوريين تتبع ارتحال النصوص وظلت هذه النظرية برغم مبالغتها فى نسبة نشأة الحكايات إلى الهند مسيطرة بعد ذلك عشرات السنين. وقد قامت المحاولات لإرجاع كل حكاية أوروبية إلى صورتها الهندية القديمة. وإن كان لم يتحقق ذلك إلا فى نطاق محدود، وقد اعترف كوسكان Cosquin فى القرن التاسع عشر/ العشرين، وهو من أتباع هذه المدرسة، بأن الحكايات الفرعونية أقدم تاريخيًا من حكايات الهند.

قام أندرو لانج بنقد النظريات السابقة، ومشيرًا إلى أهمية الكشف عن الحكايات المصرية القديمة والتى يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأيضًا الحكايات التى ورد ذكرها هيرودوت وهوميروس. أيضًا قام فون سيدوف بالتعقيب على آراء بنفى ذاكرًا أن المجموعة الهندية القديمة من الخرافات Fables - مثل كليلة ودمنة - قد ترجمت خلال العصور الوسطى من السنسكريتية إلى اللاتينية عن طريق الترجمات الفارسية والعربية والسريانية، ومن اللاتينية وجدت طريقها إلى اللغات الأوروبية، من طرف آخر يرى ستيث طومسون أن نظرية بنفى لم تنته تمامًا، فمعظم دارسى الحكايات الشعبية المحدثين مقتنعون بأهمية الهند كمصدر لكثير من الحكايات، ولكنهم يعتبرونها مصدرًا واحدًا فقط من المصادر المختلفة.

ظهرت بعد ذلك نظرية علمية جديدة تحت اسم المدرسة الميثولوجية.
كتب فوزى العنتيل فى المرجع السابق: (أدى الاهتمام الذى أبدته مجموعة قديرة من العلماء فى دراسة الشعوب البدائية إلى تراكم مجموعات ضخمة من المواد تجمعت من سائر الأقطار. وفى ضوء هذه المجموعات نشطت الدراسات المختلفة فى اللغة والجغرافيا والانثوجرافيا والفولكلور. ولما كان العلماء قد أخذوا يدركون قصور نظرية الهجرة منذ زمن بعيد، وأصبح من غير الممكن تفسير التشابه بين تراث الشعوب المختلفة من خلال مفهوم نظرية الأصل المشترك التى دعت إليها المدرسة الميثولوجية، ولا عن طريق الاقتراض والانتشار كما فعلت مدرسة الهجرة. ونظرًا للكشوف المستمرة عن أساليب

حياة شعوب متباعدة، فى إفريقيا واستراليا وأمريكا الجنوبية، وفى شرق آسيا وجنوبها وغيرها من البقاع، يمكن أن تشبه أساليب حياة الشعوب الأوروبية، وليس من الممكن تفسيرها من خلال روابط ثقافية يمكن القول بأنها تربط بين تلك الشعوب وبين الأوروبيين، لذلك كان لزامًا البحث عن تفسيرات جديدة، ومن ثم فقد ظهرت تفسيرات جديدة، كما ظهرت وجهة نظر علمية جديدة، اتخذت فى تاريخ العلم اسم المدرسة الأنثروبولوجية.... وقد استخدمت المدرسة الأنثروبولوجية - بصفة عامة - المنهج المقارن Comparative method فى دراسة مواد الفولكلور. وبينما يعترف دعاة هذه المدرسة - فيما يتصل بالحكايات الشعبية - بحقيقة أن الحكايات تنتشر من شعب إلى شعب آخر، فإنهم يميلون إلى تفسير تشابه الحكايات الشعبية، وبصفة خاصة، موضوعات هذه الحكايات بمفهوم الأصول المتعددة المستقلة Polygenesis فهم يرون أن الناس جميعًا قد مروا بنفس مراحل التطور. وبالتالى فإنهم قد حملوا عناصر تطورهم فى القصص نفسها. ولذلك فإن هذه المدرسة كانت مهتمة أساسًا بتتبع كل عنصر من عناصر القصة والثقافة حتى يصلوا إلى مصدره فى الحياة البدائية... ويكمن ضعف هذه المدرسة فى أنها فشلت فى التعرف على الاختلافات بين الثقافات والتأثيرات المتبادلة بين الشعوب .... ونظرية: "الأصول المتعددة" فى الحكايات المتشابهة هى المقابل للنظرية الانتشارية Diffusionism التى تقول بأن التشابه بين القصص والعناصر القصصية فى الأقطار المختلفة يرجع إلى انتشارها من أصل مشترك. بينما النظرية الأولى تقول بأن المراحل المتشابهة فى تطور المجتمع الإنسانى - بالرغم من تباعدها زمانًا ومكانًا - ينشأ عنها خلفيات ثقافية وردود فعل انفعالية متشابهة، وأن ذلك بالتالى يقود إلى توالد حكايات متشابهة).

ظهرت مدرسة علم النفس فى دراسة الحكايات الشعبية فى نهاية القرن التاسع عشر. ركز الباحثون الألمان وفى مقدمتهم وليم فونت على تحليل مضمون الحكايات الشعبية من منظور علم النفس، وقام فونت بتحليل الأساطير وقصص الشعر لدى الشعوب المختلفة فى كتابه "سيكولوجية

الشعوب"، والذى انتهى فيه إلى أن كثيرًا من التصورات الدينية والشعرية قد أبدعها العقل البشرى فى ظروف خاصة، هى حالة من الحلم والهذيان المرضى. أعطى بعض الباحثين الألمان مثل فون ديرلاين اهتمامًا خاصًا لاحتمال أن الأحلام كانت أصلاً سببًا فى نشأة كثير من الأحداث أو الوقائع التى توجد فى الحكايات الشعبية. ذهب ليستنر إلى أن الأحلام قد تكون مرشدًا لفهم جميع الحكايات الشعبية وقصص الخوارق وغيرها، وذلك كما جاء فى كتابه "لغز أبى الهول" فى عام ١٨٨٩، كان ليستنر مهتمًا بأحلام الخوف أو الفجيعة. فسر أنصار سيجموند فرويد رائد مدرسة التحليل النفسى، الحكايات الشعبية على أنها تعبير عن أحلام الرغبات المكبوتة، وأنها تعكس بعض العقد النفسية خلال فترة الطفولة عند الإنسان.

ظهرت المدرسة الفنلندية فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين بواسطة كارل كرون الذى كان أول من طبق منهج الدراسة التحليلية التاريخية الجغرافية والذى عرف باسم "المنهج التاريخى الجغرافى" Historial Geographical Method يتضمن هذا المنهج دراسة مقارنة منظمة لجميع الروايات الشفهية الموجودة لنمط من الأنماط، مع الأخذ فى الاعتبار توزيعها الجغرافى القائم على تحليل دقيق للصور المختلفة، مع إعادة بناء النمط أو الشكل العام الذى اشتقت منه بصورة نهائية جميع الصور الشفوية، ثم تجرى بعد ذلك مقارنته بالصور التاريخية لإعادة بناء النمط الأصلى، وتعين موطنه وتاريخ نشأته بصورة تقريبية. توجد أيضًا بعض الاتجاهات التى تتصل بتفسير الحكايات الشعبية مثل النظرية الشعائرية / الطقوسية Ritualistic Theory، والذى تبناها الباحث الفرنسى سايتيف، وراجلان، وهايمان. حاول سايتيف اشتقاق أنماط معينة من بعض الطقوس القديمة، ومن الشعائر والاحتفالات الدينية. هناك أيضًا المدارس الوظائفية الحديثة New Functionalism التى تقوم بفحص الحكايات فى بيئاتها، وكذلك وجهات النظر التاريخية فى دراسة المأثورات.

النهايـــة

بعد أن عرف الإنسـان الزراعة، واستقر فى مكان واحد، وعرف السكينة النسبية - بدأ العقل فى التدبير والتفكير، فكان من نتاجه الفلسفة، ثم تطور النتاج الفكرى مع تطور الحضارة ليشمل جميع مجالات الحياة. بلايين من الأفكار فى جميع المجالات وردت على عقل الإنسـان، منها من خلد، وتلاشى بجانبها الكثير. بدأت الفلسـفة كخليط من الأسطورة والشعر للأمور المتعلقة بنشأة الكون والظواهر الطبيعية التى أحاطت بالإنسـان القديم. وكما بدأت الفلسـفة بالأسطورة فسوف تنتهى بالأسطورة - لمخلوق مستقبلى - عن كائن حى كان يسمى بالإنسـان والذى عاش على كوكب الأرض أو خارجه، على مدى مئات الألوف من السنين أو ألوف الملايين، ككائن حى يكد ويشقى، وله شعور وأحاسيس، يحب ويكره، يفرح ويحزن، يتخاصم ويتصالح، يقتـل ويعالـج، يبنى ويهدم، تتابعه دورات ونوبات من السعادة والتعاسـة، يتصـارع مـن أجـل معايير أخلاقيـة لـم تمنع البعد عن الأخلاق، ومن أجل نظريات وأيدلوجيات، وقيم ومبادئ، .... إلخ، ثم انتهى فى النهاية بالنهاية.

المراجـــع

المراجـــع

١- "منظومة القوى" - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠٥ .

٢- "الإنسان - السيد.. العبد" - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠٤ .

٣- "مستقبل الفلسفة فى القرن الواحد والعشرين" - تحرير أوليفر ليمان - ترجمة مصطفى محمود محمد - عالم المعرفة - مارس ٢٠٠٤ .

٤- "ثورة العقل - تغير واقع الكيان العربى" - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠٤ .

٥- "تشكيل العقل الحديث" - كرين بريتون - ترجمة شوقى جلال - المؤسسة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٤ .

٦- "الإنسان والخرافة - الخرافة فى حياتنا" - د. أحمد على مرسى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٣ .

٧- "فصول فى الفلسفة ومذاهبها" - س. جود - ترجمة د. عطية محمود هنا، ود. ماهر كامل - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٣ .

٨- "سيكولوجية الذاكرة - قضايا واتجاهات حديثة" - د. محمد قاسم عبد الله - عالم المعرفة - الكويت - فبراير ٢٠٠٣ .

٩- "الجغرافية السياسية لعالمنا المعاصر - الاقتصاد العالمى، الدولة القومية، المحليات" - بيتر تيلور، وكولن فلنت - ترجمة عبد السلام رضوان، د. إسحق عبيد - عالم المعرفة - الكويت - يونيو ٢٠٠٢ .

١٠- "بعيدًا عن اليسار واليمين - مستقبل السياسات الراديكالية" - أنطونى جيدنز - ترجمة شوقى جلال - عالم المعرفة - الكويت - أكتوبر ٢٠٠٢ .

١١- "الأسطورة - فجر الإبداع الإنسانى" - د. كارم محمود عزيز - الأمل للطباعة والنشر - ٢٠٠٢ .

١٢- "الجات ومنظمة التجارة العالمية - أهم التحديات فى مواجهة الاقتصاد العربى" - د. نبيل حشاد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠١ .

١٣- "الكون - بداية ... ونهاية" - دكتور محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠١ .

١٤- "القانون الجنائى الدستورى" - الدكتور أحمد فتحى سرور - دار الشروق - ٢٠٠١ .

١٥- "نهاية اليوتوبيا - السياسة والثقافة فى زمن اللامبالاة" - راسل جاكوبى - ترجمة فاروق عبد القادر - عالم المعرفة - الكويت - مايو ٢٠٠١ .

١٦- "تاريخ الفكر الاقتصادى - الماضى صورة الحاضر" جون كينيث جالبريث - ترجمة أحمد فؤاد بلبع - عالم المعرفة - الكويت - سبتمبر ٢٠٠٠ .

١٧- "عقل جديد لعالم جديد" - روبرت أورنشتاين وبول إيرليش - ترجمة الدكتور أحمد مستجير - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٠ .

١٨- "العولمة والجات - التحديات والفرص" - دكتور عبد الواحد العفورى - مكتبة مدبولى - ٢٠٠٠ .

١٩- "الفيزياء والفلسفة" - جيمس جينز - ترجمة د. جعفر رجب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٠ .

٢٠- "يوتوبيا" - توماس مور - ترجمة د. إنجيل بطرس - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٠ .

٢١- "الجات والعالم الثالث" - دراسة تقويمية للجات واستراتيجية المواجهة" - الدكتور عاطف السيد - مطبعة رمضان - الإسكندرية - ١٩٩٩ .

٢٢- "عالم الحكايات الشعبية" - فوزى العنتيل - الأمل للطباعة والنشر - ١٩٩٩ .

٢٣- "النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هوبرماس" - اريان كريب - ترجمة د. محمد حسين غلوم، ود. محمد عصفور - عالم المعرفة - الكويت - أبريل ١٩٩٩ .

٢٤- "فخ العولمة - الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية" - هانس بيتر مارتين، وهارالد شومان - ترجمة د. عدنان عباس على - عالم المعرفة - الكويت - أكتوبر - ١٩٩٨ .

٢٥- "صدام الحضارات - إعادة صنع النظام العالمى" - صامويل هنتجتون - ترجمة طلعت الشايب - سطور - ١٩٩٨ .

٢٦- "أبستمولوجيا - نصوص مختارة" - جاستون باشلار - ترجمة درويش الحلوجى - دار المستقبل العربى - ١٩٩٨ .

٢٧- "تقدم الإنسانية" - جوردن تشليد - ترجمة د. السيد غلاب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٧ .

٢٨- "أساطير من الشرق" - سليمان مظهر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٧ .

٢٩- "بلاد ما بين النهرين - الحضارتين البابلية والأشورية" - ل. ديلابورت - ترجمة محرم كمال - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٧ .

٣٠- "لغز الحضارة المصرية" - د. سيد كريم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٦ .

٣١- "إطلالات على الزمن الآتى" - د. السيد نصر الدين السيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٦ .

٣٢- "أسس الليبرالية السياسية" - جون ستيوارت مل - ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام - د. ميشيل متياس - مكتبة مدبولى ١٩٩٦ .

٣٣- "تحول السلطة" - ألفين توفلر - ترجمة لبنى الريدى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٥ .

٣٤- "موسوعة الفولكلور والأساطير العربية" - مكتبة مدبولى - ١٩٩٥ .

٣٥- "المتناطحون - المعركة الاقتصادية القادمة بين اليابان وأوروبا وأمريكا"- لسترثارو - ترجمة د. محمد فريد - دار الساقى - بيروت - ١٩٩٥ .

٣٦- "موسوعة الفولكلور والأساطير العربية" - مكتبة مدبولى - ١٩٩٥ .

٣٧- "المقاومة بالحيلة - كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم" - جيمس سكوت - ترجمة إبراهيم العريس وميخائيل خورى - دار الساقى - بيروت - ١٩٩٥ .

٣٨- "الفرص الضائعة فى مسار التكامل الاقتصادى والتنمية العربية" - دكتور سليمان المنذرى - مكتبة مدبولى - ١٩٩٥ .

٣٩- "السادة الجدد" - بات شوت - ترجمة د. أحمد عبد الله كساب وطلعت غنيم حسن - مكتبة مدبولى - ١٩٩٥ .

٤٠- "الأمم المتحدة فى نصف قرن - دراسة فى تطور التنظيم الدولى منذ ١٩٤٥" - د. حسن نافعة - علم المعرفة - الكويت - أكتوبر ١٩٩٥ .

٤١- "إنهم يصنعون البشر" - فانس بكارد - ترجمة زينات الصباغ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٤ .

٤٢- "الطاغية - دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي" - د. إمام عبد الفتاح إمام - عالم المعرفة - الكويت - مارس ١٩٩٤ .

٤٣- "سماسرة الأفكار" - جيمس آلان سميث - ترجمة عبد الكريم - مكتبة مدبولى - ١٩٩٤ .

٤٤- "الكائنات غير المنظورة - الملائكة - الجن - الشياطين" - مجيد طراد - المؤسسة الحديثة للكتاب - طرابلس - لبنان ١٩٩٣ .

٤٥- "المعتقدات الدينية لدى الشعوب" - جفرى بارندر - ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام - عالم المعرفة - الكويت - مايو ١٩٩٣ .

٤٦- "التحليل السياسى الحديث" - روبرت أ. دال - ترجمة علا أبو زيد - مركز الأهرام للترجمة - ١٩٩٣ .

٤٧- "موسوعة تاريخ الحضارات العام" - أندريه إيمار وآخرين - ترجمة يوسف داغر وآخرين - دار منشورات عويدات - ١٩٩٣ .

٤٨- "نهاية التاريخ وخاتم البشر" - فرانسيس فوكوياما - ترجمة حسين أحمد أمين - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٩٣ .

٤٩- "قصة الحضارة" - ول ديورانت - ترجمة محمد بدران - دار الجيل - بيروت - ١٩٩٢ .

٥٠- "علم السياسة" - جان مارى دانكان - ترجمة د. محمد عرب - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - ١٩٩٢ .

٥١- "النظم السياسية" - دكتور عاصم أحمد عجيلة، ودكتور محمد رفعت عبد الوهاب - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - ١٩٩٢ .

٥٢- "دائرة معارف الحاسب الآلى" - د. محمد فهمى طلبة وآخرون - مجموعة كتب دلتا - ١٩٩١ .

٥٣- "الفلسفة وقضايا العصر - ٣ أجزاء" - جون ر. ربورر، ميلتون جولدينجر - ترجمة د. أحمد حمدى محمود - مكتبة مدبولى - ١٩٩٠ .

٥٤- "الأمير" - نيقولا ميكيافيلى - ترجمة على الجوهرى - مكتبة مدبولى - ١٩٩٠ .

٥٥- "العلم والسحر" - د. عبد الرحمن نور الدين - دار الهلال- ١٩٩٠ .

٥٦- "سيكولوجية الخوف"- يوسف ميخائيل سعد - نهضة مصر- ١٩٩٠ .

٥٧- "الشركات دولية النشاط" - دكتور محمد إبراهيم عبد الرحمن - الأهرام الاقتصادى - نوفمبر ١٩٩٠ .

٥٨- "الجسم البشرى" - الدكتور فائز المط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٩ .

٥٩- "الفكر الأوروبى الحديث" - فرانكلين باومر - ترجمة د. أحمد حمدى محمود - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٩ .

٦٠- "التحليل النفسى للجاسوسية" - سمير عبده - دار الكتاب العربى - دمشق - سوريا - ١٩٨٩ .

٦١- "العلاقة المتبادلة بين العبقرية والذكاء" - سمير عبده - دار الكتاب العربى - دمشق - ١٩٨٩ .

٦٢- "موسوعة نظم وأساليب الحرب الحديثة" - لواء أحمد نور زهران - مطابع الأهرام التجارية - ١٩٨٩ .

٦٣- "نظام الأسعار وتخصيص الموارد" - ريتشارد ليفتويتش - ترجمة د. عبد التواب اليمانى، ود. عبد الحفيظ محمود الزليطنى - منشورات جامعة قاريونس - بنى غازى - ليبا - ١٩٨٩ .

٦٤- "الجرائم المالية والتجارية" - دكتور عبد الحميد الشواربى - منشأة المعارف - ١٩٨٩ .

٦٥- "الفكر الأوروبى الحديث" - فرانكلين باومر- ترجمة د. أحمد حمدى محمود - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٩ .

٦٦- "الإبداع العام والخاص" - الكسندر روشكا - ترجمة د. غسان عبدالحى أبو فخر - عالم المعرفة - الكويت - ديسمبر ١٩٨٩ .

٦٧- "الدافعية والإنفعال" ادوارد موارى - ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة - دار الشروق - ١٩٨٨ .

٦٨- "إدارة الصراعات الدولية - دراسة فى سياسات التعاون الدولى" - د. السيد عليوة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٨ .

٦٩- "الاقتصاد الكلى - الاختيار العام والخاص" - جيمس جوراتينى، وريجارد استروب - ترجمة د. عبد الفتاح عبد الرحمن وآخرين - دار المريخ للنشر - الرياض - ١٩٨٨ .

٧٠- "النظم السياسية فى العالم المعاصر" - دكتور سعاد الشرقاوى - دار النهضة العربية - ١٩٨٨ .

٧١- "استخدام القوة فى القانون الدولى" - علاء الدين حسين مكى - دار الشؤون الثقافية العامة - ١٩٨٨ .

٧٢- "أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة" - أنطونى دى كرسبنى وكينيث مينوج - ترجمة د. نصار عبد الله - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٨ .

٧٣- "العلم والاغتراب والحرية - مقال فى فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية" - د. يمنى طريف الخولى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٧ .

٧٤- "نصوص مختارة من التراث الوجودى" - جان فال، كيركجور، وآخرين - ترجمة فؤاد كامل - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٧ .

٧٥- "صنع القرار السياسى فى منظمات الإدارة العامة" - د. السيد عليوة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٧ .

٧٦- "قصة الأنثروبولوجيا - فصول فى تاريخ علم الإنسان" - د. حسين فهيم - عالم المعرفة - فبراير ١٩٨٦ .

٧٧- "التشريع الجنائى الإسلامى مقارنًا بالقانون الوضعى" - عبد القادر عودة - دار الطباعة الحديثة - ١٩٨٤ .

٧٨- "تاريخ الأدب العربى" - كارل بروكلمان - ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار - دار المعارف - ١٩٨٣ .

٧٩- "البحث الأدبى - طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره" - الدكتور شوقى ضيف - دار المعارف - ١٩٨٣ .

٨٠- "معالم التحليل النفسى" - سيجمند فرويد - ترجمة د. محمد عثمان نجاتى - دار الشروق - ١٩٨٣ .

٨١- "قوة الإرادة" - يوسف ميخائيل أسعد - مكتبة غريب - ١٩٨٢ .

٨٢- "نظرية علم الاجتماع - طبيعتها وتطورها" - نيقولا تيماشيف - ترجمة د. محمود عودة وآخرين - دار المعارف - ١٩٨٢ .

٨٣- "علم النفس الفسيولوجى" - دكتور أحمد عكاشة - دار المعارف - ١٩٨٢ .

٨٤- "علم الاجتماع" - دكتور عبد الحميد لطفى - دار المعارف - ١٩٨٢ .

٨٥- "حقوق الإنسان - بين الشريعة الإسلامية والفكر القانونى الغربى" - الدكتور محمد فتحى عثمان - دار الشروق - ١٩٨٢ .

٨٦- "حكومة الفنيين فى النظم السياسية المعاصرة" - د. أحمد عباس عبد البديع - دار المعارف - ١٩٨١ .

٨٧- "علم النفس الفردى" - دكتور إسحق رمزى - دار المعارف- ١٩٨١ .

٨٨- "تجارة السلاح والعالم الثالث" - د. سامى منصور - مركز الدراسات المصرية العامة والاستراتيجية بالأهرام - ١٩٧٩ .

٨٩- "العقل والمعايير" - أندريه لالند - ترجمة د. لطفى لوقا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٩ .

٩٠- "الوجودية مذهب إنسانى" - جان بول سارتر - ترجمة دكتور عبد المنعم الحفنى - ١٩٧٧ .

٩١- "القوى الخفية التى تحكم العالم - ترجمة كتاب مجموعات الضغط الدولية" - جان مينو - ترجمة محمد كامل حسن، ومحمد فوزى محمود - دار البحوث العلمية - ١٩٧٣ .

٩٢- "تطور الفكر السياسى" - جورج سباين - ترجمة حسن جلال العروسى - دار المعارف - ١٩٧١ .

٩٣- "لعبة الأمم" - مايلز كوبلان - ترجمة مروان خير - مكتبة الزيتونة - بيروت - ١٩٧٠ .

٩٤- "هيجل أو المثالية المطلقة" - الدكتور زكريا إبراهيم - مكتب مصر - ١٩٧٠ .

٩٥- "تطور الفكر السياسى" - جورج سباين - ترجمة محمد فتح الله الخطيب - دار المعارف - ١٩٦٩ .

٩٦- "أعلام الفلاسفة - كيف نفهمهم" - د. هنرى توماس - ترجمة مترى أمين - دار النهضة العربية - ١٩٦٤ .

٩٧- "الدوافع النفسية" - د. مصطفى فهمى - مكتبة مصر - ١٩٦٠ .

٩٨- "الذكاء" - الدكتور فؤاد البهى السيد - دار الفكر العربى - ١٩٥٩ .

٩٩- "نيتشه" - د. عبد الرحمن بدوى - مكتبة النهضة المصرية-١٩٥٦ .

١٠٠- "فلسفة اليوجا" - يوجى راما شاراكا - ترجمة عريان يوسف سعد - مطبعة مصر.

١٠١- "نظام الأسعار وتخصيص الموارد" - ريتشارد ليفتويتش - ترجمة د. عبد التواب اليمانى.

١٠٢- "مذاهب فلسفية" - محمد جواد مغنيه - دار ومكتبة الهلال - لبنان.

١٠٣- "أديان الهند الكبرى" - الدكتور أحمد شلبى - مكتبة النهضة المصرية.

References:

1- "The Leader of the Future - New Visions, Strategies, and Practices for the Next Era" - Frances Hesselbein, Marchal Goldmith, Richard Beckhard- Jossey Bass Publishers - San Franciso - U. S. A. - 1996.

2- "Managerial Economics" - Mark Hirschey, James L.Pappas - The Dryden Press - U. S. A. - 1993.

3- "Applied Microeconomics for Public Policy Makers" - Prajapti Trivedi - International Management Publishers - New Delhi - India - 1992 .

4- "The Encyclopedia Americana" - International Edition - American Coroporation - Canada 1980.

5- "Probalility and Statistics for Engineers" - Irwin Miller, John Freund - Prentice Hall Inc. - New Jersey - U. S. A. - 1977.

6- "Human Development" - Grace J. Craig - Prentice Hall Inc. - New Jersey - U. S. A. - 1976.

7- "Time - Series" - M. G. Kendall - Charles Griffin & Co. - London - England - 1973 .

8- "Readings in Macroeconomics" - M. G. Mueller - The Dryden Press - ILLinois- U. S. A. - 1971.

رقم الإيـــداع :
٧٨٦٧ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولى :
977 - 294 - 340 - 9

مطابع آمون

ش الفيروز متفرع من إسماعيل أباظة

لاظوغلي - القاهرة

تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦

تصميم الغلاف هبة إمام